عبيد الله بن قيس الرقيات

حياته وشعره

تأليف

الدكتور ابراهيم عبد الرحمن

دراسات في التراث العربي

— ٨ —

عبيد الله بن قيس الرقيات

حياته وشعره

تأليف

الدكتور ابراهيم عبد الرحمن

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه الدراسة ، في الأصل ، جزء من رسالة كنت تقدمت بها عام ١٩٥٩ لنيل درجة الماجستير من جامعة عين شمس موضوعها : « شعر عبيد الله بن قيس الرقيات : تحقيق ودراسة » . فلما سافرت الى انجلترا للدراسة وعدت بعد أربع سنوات أحسست أنه قد طرأ على تفكيرى تحول كبير باعد بيني وبين كثير من الآراء التي توصلت اليها وتحمست لها في هذه الدراسة — سواء ما يتصل منها بشعر الشاعر خاصة أو الشعر الأموى عامة — ثم حال زمن بيني وبين نشرها . ولكني عدت فاقتنعت بأنه من الخير ألا يضيع هذا الجهد المبذول فنشرت الدراسة ، ولكني لم أوفق ، حتى الآن ، لنشر ديوانه الذى حالت ظروف عديدة دون طبعه وإذاعته على القراء .

وهذه الدراسة التي أقدمها لقراء العربية هي نفسها نص القسم الثاني من الرسالة التي حصلت بها على درجة الماجستير ، لم أغير فيها شيئا . وسوف يرى القارئ فيها الحاحا على قضايا بعينها تتصل بمكانة الشاعر في حركة الشعر في العصر الأموى ، وتأثره بفن الغناء على أيامه ، وهى قضايا تنبع في الحقيقة من منهج بعينه في دراسة الشعر لم أعد أتحمس له كثيرا على الرغم من ذيوعه بين عامة الدارسين المحدثين .

كما سيجد القارئ فيها حرصا على تحقيق رواية الديوان ، وتوثيق قصائده وتوقيتها ، وهي محاولة قد خرجت بشعر ابن قيس الرقيات الى صورة جديدة مخالفة أشد المخالفة للصورة القديمة في مخطوطاته وطبعاته المختلفة . واني لأرجو أن يتاح لى ، يوما ما ، طبع هذا الديوان في صورته الجديدة .

د. ابراهيم عبد الرحمن

عبيد الله بن قيس الرُّقَيَّاتْ

حياته وشعره

مكتبة لسان العرب
رفع أ. علاء الدين شوقى أسكنه الله الفردوس

الفصل الأول

ابن قيس الرقيّات
عصره وحياته

(١) الحياة السياسية

أقام الخلفاء الراشدون نظام حكمهم على أن يسيروا في المسلمين سيرة النبي الكريم من تحقيق العدل المطلق ، وإقامة المساواة بين الناس ، ولكن أمورا حدثت لعهد عثمان ، غيرت من سير الأحداث تغييرا تاما ، وامتحنت المسلمين — في القرن الأول وشطر من القرن الثاني — بكثير من الفتن والمحن والخطوب .

وقد حاول عثمان — رحمه الله — أن يسير في المسلمين سيرة النبي وصاحبيه ، ولكن أقاربه من بني أمية اتخذوا من حلمه وقرابته وسيلة لبلوغ مآربهم ؛ وقد أثار ذلك ثائرة المسلمين ، كما أثار سخط زملائه من رجال الشورى الذين اختاروه ؛ وانتهى الأمر بالثورة عليه ، وقتله .

ومنذ أن قتل الثائرون عثمان أصبح السيف الوسيلة المشروعة للفصل في الخصومات السياسية التي اتخذت طابعا عصبيا في ذلك الوقت ، وانفتح بذلك باب الحروب الأهلية على مصراعيه .

وقد واجهت المسلمين — إثر مقتل عثمان — مشكلتان خطيرتان ، تتصل إحداهما بانتخاب خليفة جديد يحفظ عليهم نظامهم وسلطانهم ، ويقيم فيهم حدود الله ؛ وتتصل الأخرى بالتحقيق في مقتل عثمان ، هذا الخليفة الذي اجترأ الثائرون عليه . ولم يكن عثمان فردا عاديا من أبناء هذه الدولة الضخمة ،

---

(١) انظر أنساب الأشراف (المطبوع) : ٥ /٥٧ .

وإنما كان خليفة انتخبه المسلمون وأعطوه عهدهم على السمع والطاعة ، ثم هو قبل ذلك كله صحابي جليل .

- ١ -

وقد سارع المسلمون في المدينة إلى مبايعة علي بالخلافة ، وألحوا عليه في قبولها (١) ، وظهرت بوادر الفتنة منذ أن جلس علي لأخذ البيعة ، فقد امتنع(٢) عليه نفر من الصحابة أبوا أن يبايعوا ، فلم يلح عليهم ، ولم يسع إلى إكراههم على بيعته .

وهمّ علي بالتحقيق في مقتل عثمان ، ولكنه لم يستطع أن يمضي في التحقيق إلى غايته ، فقد شغلته عن ذلك أحداث بدأت بتحرك عائشة — رضي الله عنها — إلى البصرة ، حيث أعلنت أن عثمان قُتِل مظلوما ، ودعت للثأر من قاتليه . وقد التف حولها عدد من الثائرين ، وانضم إليها طلحة والزبير . وأخذ ثلاثتهم يُعِدُّون العُدة للثورة على الخليفة . وأحس الخليفة بهذا الخطر الجديد الذي ينذر بفتنة أشد على المسلمين من فتنة عثمان ، فقر رأيه على الخروج ، ليرد هؤلاء الخارجين عما انتووه ، فيحفظ على المسلمين بيعتهم ووحدتهم . وقد اضطره سير الحوادث إلى قتال الخارجين في وقعة الجمل ، وقتل فيها طلحة والزبير ، وعقد أهل البصرة صلحا مع علي ، واعترف العراق كله بخلافته ، فبقي هناك ، واتخذ الكوفة مقرا له .

---

(١) المصدر نفسه : ٥/١٥٢ .

(٢) المصدر نفسه : ٥/٦٦ ومابعدها .

وفي الشام اتخذ معاوية – والي عثمان القويّ – من مقتل الخليفة وسيلة لصرف الخلافة عن بني هاشم إلى بني أمية . فامتنع من أول الأمر عن مبايعة علي . والدخول فيما دخل فيه جماعة المسلمين .

ولم يكشف معاوية عن أهدافه . وإنما أعلن أنه وليّ الإمام المقتول . وأن من حقه وواجبه – قبل غيره من الأقارب – أن يثأر له من قاتليه . وكانت حجة معاوية أن يحقق علي في مقتل عثمان ، ويسلم إليه قاتليه ، فتلزمه بعد ذلك بيعته . وكانت حجة علي أن يدخل معاوية أولا فيما دخل فيه عامة المسلمين . حتى يشرع في إنفاذ أمر الله فيمن قتلوا الإمام المقتول . وقد سار علي إلى الشام ووقعت بينه وبين معاوية خطوب كثيرة انتهت بموقعة « صفين » التي لم تعد بالأمة الإسلامية إلى ما كانت عليه أيام عمر ، من النصح للإمام والطاعة له .

وقد ترك المسلمون « صفين » هذه وهم أحزاب ثلاثة :

جماعة لعلي في العراق والحجاز ، وأنصار لمعاوية في الشام ، وخوارج يرفضون عليا ومعاوية . ويرون في سلطان قريش خطرا على الدين ، وخطرا على المسلمين .

وهكذا تفرق أمر المسلمين ، وانتشرت الفوضى في كثير من الامصار الإسلامية . وكثرت غارات الخوارج ، وغارات الشام على العراق والحجاز . وأخذ علي يعد نفسه وجيشه للدفاع عن خلافته . ومنذ ذلك اليوم انقسمت الدولة الإسلامية إلى دولتين :

دولة أمرُها إلى معاوية وقوامها الشام ومصر ، ودولة أمرها إلى علي وقوامها العراق وجزيرة العرب .

– ٢ –

وقد انتهى الأمر إلى معاوية بعد مقتل الخليفة علي ؛ وبموت علي رضى الله عنه انتهى نظام الخلافة ، كما كان يفهمه السلف وكما وضع أسسه أبو بكر وعمر رضى الله عنهما . فقد استقلّ معاوية بالحكم وانحصر في بني أمية ، وتحوّل به إلى ملك يوَرّثه الآباء للأبناء .

وقد مضت خلافة معاوية هادئة مستقرة إلا من هذه الحروب الصغيرة التي كانت تثور من حين لآخر بينه وبين الخوارج ، وما كان ينهض به من الفتوح الخارجية ، حتى كانت بيعة يزيد التي عدها الهاشميون خرقا لعهد معاوية مع الحسين ، وعدها الحجازيون انتصارا للشام على الحجاز ، ولليمنية على المضرية مما أثار حفيظة نفر من شيوخ قريش أبوا أن يبايعوا ليزيد إلى أن مات معاوية وولي يزيد من بعده ، فكانت تلك الخطوب الشديدة التي قتل فيها الحسين ، وأبيحت فيها المدينة ، وحرقت فيها الكعبة .

ومن هؤلاء النفر الذين أبوا أن يبايعوا : الحسين وابن الزبير ، وقد اعتلا بالبيعة ليزيد على والى المدينة « الوليد بن عتبة » حين بلغتهما وفاة معاوية ، واجتهدا في مراوغته واستمهاله حتى دبرا أمرهما تدبيرا حسنا ففرا بليل لاجئين إلى مكة (١) .

---

(١) انظر تاريخ الأمم والملوك للطبري ٦ /٩٣ .

وقد أقام الحسين بمكة ، واتصلت الرسل بينه وبين مؤيديه في الكوفة ، وأتته كتبهم بمبايعته والتمكين له من أمور الخلافة ، وقد كثرت هذه الكتب ، وكثر الذين أمضوها من أشراف القبائل ورؤسائهم ، فأغرت الحسين بالخروج إليهم ، والوثوق بهم ، وشاور في ذلك نفرا من أهل بيته وأبناء عمومته ، فحذروه مغبة هذا الأمر ، (١) وقال له ابن عباس قولته المشهورة : « إن قلوبهم معك وسيوفهم عليك » ! وأما ابن الزبير فقد حسن له الخروج ، وشجعه عليه ، وقال له (٢) : « أما لو كان لى بها (بالكوفة) مثل شيعتك ما عدلت عنها » !

وقد فطن (٣) ابن عباس إلى ما يريد إليه ابن الزبير من دفع الحسين إلى الخروج إلى العراق ، حتى يخلو له جو مكة ، فيدعو لنفسه ، ولم يكن ليجرؤ على ذلك والحسين بها ، لما يعلم من تعظيم الناس له ، وتقديمهم إياه عليه .

ولم يفلح ابن عباس ، ولم يفلح كثير من القرشيين معه في أن يخوفوا الحسين بأس ابن زياد ، وغدر أهل العراق ، ومضى الحسين لوجهه ، فحلت الكارثة به وبنفر من أهل بيته ، فقتله العراقيون الذين كتبوا إليه ، وكانوا بحق كما قال ابن عباس : قلوبهم معه وسيوفهم مع بنى أمية عليه .

وقد انتهت محنة الحسين إلى الحجاز ، فأحفظت أهله على يزيد خاصة ، والأمويين عامة ، وأخذ الناس يتحدثون بهذا الخطب ، فيكثرون الحديث ، ويلومون بنى أمية فيكثرون من اللوم ، وينكرون على يزيد هذا التردى

---

(١) انظر المصدر نفسه : ٢١٥/٦ ومابعدها .

(٢) انظر البداية والنهاية لابن كثير : ١٧٠/٨ .

(٣) انظر المصدر نفسه : ١٦٥/٨ ، وتاريخ الأمم والملوك : ١٧/٥

في الإثم الذى جعل طاعته – في نظر أهل المدينة – غير واجبة . فخرجوا عليه

وأفاد ابن الزبير من مقتل الحسين . وأحسن استغلاله في الدعوة لنفسه ، فقد خلا له جو الحجاز والعراق . وأخذ يتناول يزيد في سيرته وخلقه ، فيذيع فيه من الشر ماينفر الناس منه .

وأحس يزيد بأن مقتل الحسين لم يكن خيراً ، وإنما أضاف شراً إلى الشر ، وعظم من أمر ابن الزبير . ومهد لظهوره على هذا النحو ، فصمم يزيد على أن يبلغ من ابن الزبير مابلغه من الحسين حين خرج عليه : ولكن أنباء وصلته فأزعجته وأثارته . فقد ثار أهل المدينة بعامل يزيد . فأخرجوه ، وبنى أمية فحصروهم . ثم طردوهم إلى الشام .

ولم يكتف يزيد برد الخارجين عليه من أهل المدينة إلى طاعته حين سير إليهم مسلم بن عقبة . وإنما أذن له في أن ينتقم منهم ، ويمعن في التنكيل بهم . فيبيح المدينة ثلاثا لجنده يقتلون وينهبون . ويستبيحون ماعصم الله من الحرمات . وقد أسرف مسلم في القتل . وأسرف جنوده في السلب ، وأخذ البيعة ليزيد على أن أهل المدينة خول له . يحكم في مالهم وأنفسهم ، ثم تحول الجيش عن المدينة إلى مكة . فحاصروا فيها ابن الزبير . ورموا البيت « بالمنجنيق » وحرقت الكعبة . واتصل الحصار حتى جاءهم موت يزيد .

ويروى المؤرخون أن الحصين بن نمير (١) قائد جيش الشام لما علم بموت يزيد بن معاوية ، كف الشاميين عن ضرب الكعبة . وتقدم إلى ابن الزبير يطلب منه أن يتوجه معه إلى الشام ليأخذ له بيعته . وحسن له هذا الأمر .

(١) وكان ولى إمرة الجيش بعد موت مسلم بن عقبة وهو في طريقه إلى مكة .
انظر البداية والنهاية : ٨/٢٢٥ .

وأخذ يكلمه سراً ويقول : « إن كان هذا الرجل قد هلك فأنت أحق الناس بهذا الأمر بعده ، فهلم فارحل معي إلى الشام فوالله لا يختلف عليك اثنان(١) » . فلم يثق به ابن الزبير ، وأغلظ له في المقال ، فنفر منه ابن نمير ،وقال : « أنا أدعوه إلى الخلافة وهو يغلظ لي في المقال(٢) » وكر بجيشه راجعاً إلى الشام .

— ٣ —

واضطرب أمر الخلافة في الشام اضطراباً عنيفا بعد موت يزيد بن معاوية. فقد أخرج عبيد الله بن زياد من البصرة . وثار الضحاك بن قيس بالكوفة ، وانحاز إلى عبدالله بن الزبير وأخذ في الدعوة له (٣) ، وكاد يتم لابن الزبير أمر الشام ، لولا أن تدخل « حسان بن مالك بن بَحْدَل الكلبي » عامل يزيد على فلسطين ، وكان هدفه حصر الخلافة في خالد بن يزيد بن معاوية لخئولته الكلبية . فسعى في عقد اجتماع في الجابية (٤) . وقد اشتد الخلاف في هذا الاجتماع ،وانقسم المؤتمرون فريقين : فريق انحاز إلى جانب خالد بن يزيد، وكان يتزعمه بالطبع أخواله من بني كلب ،وفريق كان يرى في خالد هذا فتى غرا صغير السن لا يستطيع النهوض بهذا الأمر وحده ، وأنه ليس كفؤا لابن الزبير . وكان لكل من الفريقين أطماع سياسية ،وأهداف معينة تحكم آراءهم تلك ، وتحاول التأثير في سير الحوادث على النحو الذى يحقق آمالهم .

فأما الكلبية أصحاب الدعوة لخالد بن يزيد ، فقد كانوا يخشونه على

---

(١) البداية والنهاية : ٨ / ٢٢٦ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) انظر أنساب الأشراف المطبوع (٥ /٢٢٢ ومابعدها) .

(٤) المصدر نفسه .

سلطانهم الذى مهد له معاوية ، ومكن له يزيد في خلافته . ونجد في الجدل الذى ثار بين زعماء الفريقين ، صدى هذه المطامع وتلك المخاوف واضحاً في محاولة مالك بن هبيرة استمالة الحصين بن نمير إلى جانبه في الدعوة لخالد ، محذرا من سيطرة المروانية فيما لو أصر على تنصيب « مروان بن الحكم » . ويدل هذا على أن المروانية كانت على خلاف مع البيت السفياني ، وقد اشتد هذا الخلاف في اجتماع « الجابية » .

وقد واجه « بنو سفيان » في هذا الاجتماع أخطاراً ثلاثة ، كان على المؤتمرين اعتبارها عند اختيار الخليفة الجديد : خطر المروانية ، وخطر القيسية التي خرجت بقيادة « الضحاك بن قيس » وخطر الزبيرية التي يتزعمها شيخ قرشي من صحابة الرسول ، لايدانيه في فضله ومكانته الدينية واحد من المرشحين من بنى أمية .

ويصور ذلك كله هذا الجدل الذى ثار بين «مالك بن هبيرة » و « الحصين ابن نمير » وقد رواه البلاذرى في أنساب الأشراف ،فقال(١) : « .. فقال مالك : هلم بنا مع خالد بن يزيد فقد عرفت كيف كانت منزلتنا من أبيه ، فقال الحصين : لا والله ، لا يأتينا الناس بشيخ ونأتيهم بصبي ، فقال مالك : ويحك ، مروان وآل مروان يحسدونك على سوطك وشراك نعلك ، وظل شجرة تستظل بها ، ومروان أبو عشرة ، وأخو عشرة ، وعم عشرة ، وإن بايعتموه كنتم عبيدا لهم. ولكن عليكم بابن أختكم خالد . فقال الحصين : مروان شيخ قريش والمطالب بدم الخليفة المظلوم ، وهو يدبرنا ويسوسنا ولا يحتاج إلى أن ندبره ونسوسه ، وغيره يحتاج إلى أن يدبر ويساس ! »

ويستطرد البلاذرى في روايته فيقول : « وذكر بعضهم عبدالله بن عمر

---

(١) أنساب الأشراف : ٥/١٣٤ — ١٣٥

ابن الخطاب ، فقال رَوْح بن زِنْباع : إنكم تذكرون عبدالله بن عمر وفضله ، وهو كما ذكرتم إلا أنه ضعيف ، وليس صاحبُ أمةِ محمـــد بالضعيف ، وتذكرون ابن الزبير . وهو والله ابن حواريّ رسول الله ، وابن أسماء بنت أبي بكر ذات النطاقين . وهو بعد كما ذكرتم في قدمه ، ولكنه منافق ، خلع خليفتين : يزيد بن معاوية ومعاوية بن يزيد . وسفك الدماء ، وشق العصا : وأما مروان فما كان في الإسلام صَدْع إلا كان ممن شَعَبَه ، وهو الذى قاتل عن أمير المؤمنين يوم الدار ، وقاتل عن على بن أبى طالب يوم الجمل ، ورمى طلحة فاستقاد منه لعثمان ، أنبايع الصغير وندع الكبير (١) ؟ »

ولم يكتف المجتمعون في « الجابية » — فيما يقول البلاذرى (٢) — بالبيعة لمروان وحده ، وإنما تجاوزوه إلى خالد بن يزيد من بعده ، ثم لعمرو بـــن سعيد الأشدق ، وكان هذا حلا وسطا ، قصدوا به إلى إرضاء الكلبية أخوال يزيد بن معاوية ، محاولة للتقليل من خطر المروانية ، لأن هذا الخطر سوف ينتهي بمروان بن الحكم ، وهو شيخ كبير .

وقد واجهت قريش خطر « كلب » في موضعين :

الأول ، في محاولة الدعوة لخالد بن يزيد على نحو ما رأينا ، وخالد فتى صغير وعن طريق استخلافه كان يمكن التوسع في سيطرة « كلب » عـــلى سائر العرب ، ومن بينها قريش .

والثاني ، مايذكره البلاذرى من أن خالد بن بحدل — الذى كان واليـــاً ليزيد على فلسطين — أخذ في طلب البيعة لنفسه ، ثم سلم الأمر لمروان بن الحكم ، وفي ذلك يقول (٣) :

---

(١) أنساب الأشراف المطبوع (٥/١٣٤ – ١٣٥) .
(٢) المصدر نفسه ٥/١٣٥ .
(٣) المصدر نفسه .

فإلا يكن منا الخليفـــة نفســـه   فما نالهـــا إلا ونحن شـــهود

وقد ظلت « كلب » — بعد أن أفلت منها الأمر — تفخر وتـــدل عـــلى الأمويين ، ومن ذلك قول شاعرهم (١) :

نزلنـــا لكم عن منبر الملك بعدما   ضللتم ومـــا أن تستطيعون منبـــرا

وقد كان لهذه العوامل والمصاعب التى واجهت مسألة اختيار الخليفـــة الجديد، أثر كبير في الدعوة لمروان وانتخابه . وعلى الرغم من أن المجتمعين في « الجابية » قد تحفظوا في قراراتهم — كما بينا — إرضاء للأهواء والآراء المتباينة ، فإن الخلافة قد سارت في نفس الطريق التى ارتضاها معاوية. أعنى طريق الوراثة ، فقد أخلف مروان عبد الملك ، وأخلف عبد الملك الوليد ، وهكذا صدقت نبوءة مالك بن هبيرة .

ومروان هذا الذى انتخبه اجتماع « الجابية » يقول فيه أخوه عبدالرحمن ابن الحكـــم (٢) :

لعمـــــرك مـــا أدرى ، وإنـــى لســــائـــل
حليلـــــة مضـــروب القفـــا كيـــف يصـــنع
لحـــى الله قـــوما أمّـــــروا خيـــــط باطـــل(٣)
على النـــاس . يعطـــى من يشـــــاء ويمنـــــع

— ٤ —

وواجهت مروان منذ البدايـــة مشكلتان خطيرتان ، تتصـــل إحداهمـــا « بالضحاك بن قيس الفهرى » ،وتتصل الأخرى « بعبدالله بن الزبـــير » :

(١) المصدر نفسه .
(٢) المصدر نفسه .
(٣) خيط باطل : لقب مروان بن الحكـــم .

وقد استطاع « مروان » — بمساعدة القبائل اليمنية ولا سيما كلب — أن يقضي على حركة « الضحاك » في « مرج راهط (١) » المعروفة ، وهي تعتبر من وجهة النظر العسكرية « صفين » ثانية .

وقد كانت هذه الواقعة مقدمة لحروب كثيرة بين قيس وكلب ، ثم بين قيس وتغلب ، (٢) استمرت زمنا طويلا ، ودار حولها كثير من الشعر الذى يمكننا اعتباره شعرا سياسيا من حيث الأسباب والدوافع التى دعت إليـــه ، وهى التعصب للزبيريين من جهة قيس ، وللأمويين من جهة كلب(٣) . وقد تحولت هذه الوقائع من صراع سياسى في سبيـــل الخلافة إلى صراع قبـــلى تحكمه التقاليد الجاهلية بكل ما فيها من حمق واعتداد بالقبيلة ورعاية لأحسابها ومات مروان قبل أن يدرك من ابن الزبير شيئا ، وخلفه ابنه عبدالملك ، وفي عهده تجددت المحاولات للقضاء عليه .

وقد استفحل أمر عبدالله بن الزبير في أيام عبد الملك ، فقد خلص له الحجاز كله ، وتمكن — بفضل شجاعة أخيه مصعب — من القضاء على المختار الثقفى وانتزع العراق منه في سنة تسع وستين للهجرة ، حيث أقام حكما مستقلا عن حكم أخيه في الحجاز . وقد أثار مقتل المختار الشيعة كثيراً ، فقد أوضح نيات

---

(١) انظر خبر هذه الوقعة في أنساب الأشراف (المطبوع) ٥ /١٣٦ — ١٤٦ .

(٢) المصدر نفسه : ٥ /٣٠٨ — ٣٢٢ ، والكامل في التاريخ : ٤ /٢ ومابعدها .

(٣) في الجزء الخامس من أنساب الأشراف للبلاذرى حظ لا بأس به من هذا الشعر ، وهو ليس شعراً حزبيا بالمعنى المفهوم وإنما هو هجاء وحماسة . انظر المصدر نفسه ٥ /١٣٦ — ١٤٦ ، ٢٩٨ — ٣٣٢ ، والكامل لابن الأثير : ٤ /٢ — ١٠ ويعلل الدكتور شوقي ضيف لنقائض جرير والأخطل تعليلا سياسيا يتصل بما ثار من حروب بين قيس وتغلب ، ومن لف لفهما من القبائل اليمنية التى ناصرت الأمويين ، فقد أخذ جرير جانب قيس ، وأخذ الأخطل جانب قبيلته تغلب : انظر التطور والتجديد في الشعر الأموى ١٣٣ — ١٣٤

ابن الزبير تجاههم ،ولا سيما أن « المختار » كان قد أخذ في القضاء على قتلة الحسين من أهل الكوفة الذين كانوا يهربون إلى ابن الزبير ويحتمون به .(١)

وأيقن عبدالملك أن في القضاء على مصعب قضاء على أخيه عبدالله ، فصمم على استخلاص العراق أولا . وقد عمـــد الخليفة الأموى إلى إفساد رؤساء القبائل ووجوه الناس على مصعب ،فاشترى الكثيرين منهم بوعود زائفة ، بلغ من زيفها أن عبدالملك كان يكتب للكثيرين بولاية المصر الواحد ، يريد بذلك إلى خداعهم ، والسخرية منهم (٢) .

وقد ظهر أثر هـــذه السياسة في وقعة « دير الجاثليق » في سنة ٨٢ للهجرة فقد خان العراقيون مصعبا ، وتخلوا عنه ،وانضموا بجموعهم إلى عبدالملك ابن مروان .(٣) وقد سبقت المعركة مفاوضات بين الطرفين ، عرض فيها الخليفة الأموى على مصعب ولاية العراق طول حياته ،وماشاء من المال ،(٤) ولكن شجاعة مصعب غلبته ، فآثر الدخول في حرب خاسرة ، كان يعرف نهايتها منذ البداية (٥) . وبذلك تمكن عبدالملك ــ بفضل عناد مصعـــب وانصراف العراقيين عنه ــ من قتله في سنة اثنتين وسبعين للهجرة .

وكان مقتل مصعب واستيلاء عبد الملك على العراق إيذانا بالقضاء على خلافة الزبيريين ، وكان على عبدالله بن الزبير أن ينتظر مصيره المحتوم في الحجاز .

---

(١) انظر أنساب الأشراف (المطبوع) ٥ /٢٣٧ ، ٢٤٠ ، ٢٥١ ، البداية والنهاية ٨ /٢٧٠

(٢) انظر أنساب الأشراف .

(٣) المصدر نفسه ٥ /٣٣٨ – ٣٣٤ .

(٤) المصدر نفسه ٥ /٣٣٩ .

(٥) المصدرنفسه ٥ /٣٣٨ ، ٣٤١ .

ويفهم من سلوك عبدالله بن الزبير في مكة ، وخطبه (١) فيها إثر مقتل أخيه وضياع العراق منه ، أنه يلقي تبعة قتله على الخونة وحدهم . وظواهر الأمور قد تؤيد عبد الله فيما يزعمه . فقد انصرفوا عن نصرته ، ولكن التعليل لهزيمة مصعب لا ينبغي حصره في الخيانة فقط ، فقد ساهم سلوك مصعب وأخيه عبدالله في هذه الهزيمة . ويؤيد ذلك مايقوله المؤرخون من أن عبدالملك كتب إلى ابن الأشتر يغريه بخيانة مصعب. ويمنيه في سبيل ذلك إمرة العراق من بعده ! وقد حمل ابن الأشتر كتاب عبدالملك إلى مصعب دون أن يفضه، وحذره من أن يكون قد كتب إلى غيره من رؤساء القبائل ، وأشار عليه بحبسهم حتى يفيء رجالهم إلى الحق ، أو يقتلهم ،ففي ذلك عقاب لهم ،وإنذار لغيرهم (٢) . ولكن مصعبا لم يستمع إليه ، وأبى أن يأخذ الناس بالظنة فيما قال. وهذه غلطة سياسية ، يتجلى فيها سوء الفهم السياسي ، الذي يظهر بوضوح في توجيه المهلب بن أبي صفرة لقتال الخوارج ، وذلك على الرغم من إلحاح المهلب في البقاء إلى جانبه ، وتخويفه غدر الخونة به ، وانصرافهم عنه (٣) .

وكان حريًّا بمصعب أن يستمع لنصيحة ابن الأشتر ، حين رأى انصراف الناس عنه وغدر أهل الكوفة به ، فينحاز إلى البصرة ، ويستقدم عماله لنصرته ، والتقوى بهم على قتال عبدالملك . ولكن شجاعة مصعب حملته على المخاطرة بنفسه وبمركزه في العراق .

---

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير ٨ /٣٢٣ .

(٢) المصدر نفسه ٨ /٨١٥ .

(٣) انظر أنساب الأشراف (المطبوع) : ٥ /٣٣٢ .

ومن هذه الأسباب التي عملت أيضاً على هزيمته ، ما عرف من شدة مصعب على العراقيين إثر مقتل المختار ؛ فقد قتل من أهل الكوفة مايقرب من سبعة آلاف أسير . ممن كان في جيش المختار . وكان بُعْد النظر السياسي يحتم على مصعب أن يَمُنَّ عليهم ويتألف قلوبهم ؛ فيكونوا له — كما وعدوه — جنوداً يكفونه أهل الشام . ولكنه استمع لابن الأشتر ، وغدر بهم . فأورث قلوب قبائلهم حقداً عليه (١) . ولم يمض على سقوط مصعب وقت طويل حتى أسرع عبدالملك الى تسيير جيش بقيادة الحجاج الثقفي لاستخلاص الحجاز من عبدالله بن الزبير . وكانت بالحجاج هذا غلظة وشدة . يضاف إليهما حقده الشديد على آل الزبير لقتلهم المختار الثقفي . واستخلاص العراق منه. وقد حاصر الحجاج عبدالله في مكة وأحكم حصاره . وكانت بينهما خطوب شديدة . ورمى فيها الشاميون الكعبة « بالمنجنيق » (٢) . على نحو ما فعلوا في الحصار الأول أيام يزيد بن معاوية (٣) . وتمكن الشاميون بعد حصار دام خمسة شهور من قتل عبدالله بن الزبير . والتمثيل بجثته ، فقد احتز الحجاج رأسه وبعث بها إلى الخليفة الأموى بالشام . ثم أمر بجثته فصلبت منكسة . وبقيت كذلك حتى أمر عبدالملك بإنزالها بعد شكاة إليه (٤) .

وبالقضاء على ابن الزبير . انتهت تلك الحروب القرشية التي دامت زمنا طويلا . والتي فرق فيها المسلمون شيعا وأحزاباً . وسفكت فيها دماؤهم . واستحلت فيها حرماتهم .

---

(١) انظر البداية والنهاية : ٨/ ٣١٨ .

(٢) نفسه ٨ /٣٢٩ .

(٣) المصدر نفسه : ٨ /٢٢٥ .

(٤) انظر الكامل لابن الاثير ٤ /٣٥٧,٣٥٨

تكـون الاحـزاب السـياسية :

وقد تكونت حول هذه الحروب أحزاب سياسيـة ، تعارض سياسـة الأمويين . وتحاول القضاء على دولتهـم . وهي : الخـوارج . والشيعة ، والزبيريون .

وكان حزب الخوارج أكثرها خطراً . وأشدها تعصباً . وقـد تكون هذا الحزب إثر وقعة « صفين » وقبول علي التحكيم (١) . وقد جذب مذهبهم القائم على المساواة بين المسلمين ، كثيراً من الموالى الذين اضطهدهم العرب .

ويتلخص مذهبهم السياسي في أن الخلافة حق مشترك بين المسلمـين ، يتولاها القادر على النهوض بها دون نظر إلى القبيلة التي ينتمي إليها (٢) ، فليس ضروريا أن يكون قرشيا ، كما يقول الزبيريون . أو هاشميا كما يقول الشيعة . أو أمويا كما يقول معاوية وأصحابه . وهم يستوحون مذهبهم في المساواة بين المسلمين من قوله تعالى : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكـر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » .(٣)

وقد أقر الخوارج بصحة خلافـة أبي بكر وعمر . لصحه انتخابهما . وبصحة خلافة عثمان في سنواته الأولى ، فلما غير وبدل . وأظهر لأهـل

---

(١) انظر فجر الإسلام : ص ٢٥٦ .

(٢) المصدر نفسه : ص ٢٥٦ — ٢٥٧ ، ٢٦٢ .

(٣) سورة الحجرات ، الآيـة ١٣

مصر شيئاً و كتب بخلافه ، وآثر أقاربه بمال المسلمين صار كافراً (١) .

وهم يصححون كذلك خلافة علي ، ولكنهم يخطئونه في قبول التحكيم . وأما معاوية فيعدونه غاصباً لما ليس من حقه ، ويرى الخوارج وجوب عزل الخليفة إذا فقد ثقة الأغلبية ، وخالف على المسلمين أمور دينهم (٢) .

وقد ظهرت الدعوة لعلي إثر وفاة الرسول ،وذلك لقرابته منه ، وإصهاره إليه ،وماضيه في نصرة النبي . وبذلك وجدت البذور الأولى لحزب الشيعة . حتى إذا قتل علي انحاز أنصاره من الشيعة إلى العراق . ومنذ هذا التاريخ ؛ أصبح العراق مركز المعارضة الشيعية لحكم الأمويين . ومن أهم تعاليم الشيعة أن علياً أحق بولاية المسلمين ، وأن الخلفاء من قبله قد اغتصبوا هذا الحق منه ، وأن الأمويين أيضاً غاصبون لخلافته، لأنه ليس لهم من الفضل ما لبني هاشم : وهذا ميراث النبي لا ينبغي أن يئول لغير أهله (٣) .

ويمكننا تصوير الروح العام لحزب الزبيريين فيما يراه عبدالله بن الزبير . من أن خلافة معاوية كانت صحيحة . ولكنه خالف تقاليد الإسلام، فخرج على نظام الشورى ، حين أراد استخلاف يزيد (٤) من بعده ، وهذا من شأنه أن يحيل إمامة المسلمين إلى ملك وراثي، في بيت واحد من بيوتات قريش . وهو البيت الأموي ، وليس الأمويون على أية حال بأحق بيوتات قريش بها . وكان عبدالله بن الزبير يرى أن يترك أمر المسلمين — بعد وفاة

---

(١) انظر فجر الإسلام : ٢٥٦ .

(٢) المصدر نفسه : ٢٥٩ .

(٣) المصدر نفسه : ٢٢٦ — ٢٢٨ فقد أورد المولف كثيراً من النصوص القديمة التي تؤرخ لمذهب الشيعة ، وتصور آراءهم .

(٤) انظر الأمالي (الذيل) : ٣/١٧٦ .

معاوية – شورى بينهم ، فيختاروا لأمامتهم من يرونــه أصلح القرشـيين بالنهوض بها (١) . وقد تطور هذا النظر – من الدعوة إلى إقرار الشورى في اختيار الخليفة على نحو ما اتبع في اختيار الخلفاء من قبل – إلى الدعوة للقضاء على سلطان يزيد أولا . واستخلاف نفسه ثانياً (٢)

وقد أنتجت هذه السياسة الملتوية نتائجها التي كان من الضروري أن تظهر في سلوك ابن الزبير وتصرفاته السياسية ، فتراه يمقت الهاشميين . وبخاصـة بعد قضاء الأمويين على الحسين – أكبر المنافسين الذين كان يخشاهـم ابن الزبير . ولا يجرؤ على الدعوة لنفسه في وجودهم – فيحبس ابن الحنفية وابن عباس ، لأنهما رفضا الإقرار ببيعته (٣) . كما نجده يسقط من خطبه ذكـر الرسول والصلاة عليه ، حتى إذا عوتب على ذلك قال كلمته المشهورة التي تنم عن مدى مقته وكرهه لهؤلاء الهاشميين : « والله ما يمنعني أني لا أذكـره علانية . من ذكره سراً ، وأصلي عليه ، ولكن رأيت هذا الحي مـن بني هاشم إذا سمعوا ذكره اشرأبت أعناقهم ، وأبغض الأشياء إلى ما يسرهم (٤) » .

ولم يكن ابن الزبير على وفاق مع الخـوارج ، ولم يتيسر له استغـلال حركتهم لصالح الدعوة لنفسه ، وقد انصرفوا عنه لما رفض اعتناق مذهبهم بشكل عملي ، حين دعوه إلى تكفير عثمان وعلي وطلحة والزبير ، وقـد فسدت الأمور بينهما فساداً دفعهم إلى حربه .

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) لم يجاهر ابن الزبير بالدعوة لنفسه إلا بعد مقتل الحسين رضي الله عنه ، فقد استغل مقتله في الدعوة لنفسه وخلع يزيد بن معاوية . انظر البداية والنهاية ٨/ ٢١٢ ، أنساب الأشراف (المطبوع) ٥/ ١٧٨ .

(٣) انظر البداية والنهاية ٨/ ٢٧٧ – ٢٧٨ .

(٤) العقد الفريد : ٤/ ٤١٣

وفي الحق ان نظرية الخوارج في الخلافة ، لم تكن لتوافق هوى ابن الزبير ، الذي كان يحرص على أن يظل هذا الأمر في قريش ، بشرط أن يسلك المسلمون إليه نفس الطريق التي سلكها الخلفاء من قبل .

وبجانب هذه الأحزاب التي تكونت بغية القضاء على حكم الأمويين وانتقاض خلافتهم ، نجد حزبا آخر نشأ في الشام ، غايته مناصرة الأمويين والدفاع عنهم ، ضد هذه القوى السياسية والعسكرية التي تألبت ضدهم ونستطيع أن نجد بذوراً لنشأة هذا الحزب في ولاية عثمان — وهو أموى — للخلافة المسلمين ، فيروى المسعودى : أن أبا سفيان قال إثر انتخاب عثمان : « يا بني أمية ! تلقفوها تلقف الكرة ، فو الذي يحلف به أبو سفيان ، مازلت أرجوها . ولتصيرن إلى صبيانكم وراثة(١) » فانتهره عثمان . وساءه ماقال .

وقد قام هذا الحزب الأموى على أساس أن عثمان — وهو خليفة أموى — قتل مظلوما ، وأن معاوية — وهو ابن عمه — ولى دمه . وأن الأمويين أصلح للحكم ، وأقوم الناس بأعبائه .

ونظرة سريعة في هذه النظريات المتباينة التي كانت تقوم عليها سياسة هذه الأحزاب توضح لنا أنها جميعا — فيما عدا الحزب الأموى — قد قامت على أسس دينية بحته ، فالخوارج قد أقاموا مذهبهم على أساس المساواة بين الناس جميعاً ، تلك المساواة التي كانت أغيظ ما غاظ قريشا من النبي : حين دعاها إلى الإسلام ، وقد عبر عنها الرسول الكريم في حديثه « لافضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى » ، وعبر عنها القرآن الكريم في مثل هذه الآية « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

---

(١) مروج الذهب : ٢/٢٥١ — ٢٥٢ .

وكان جل همّ الخوارج هو القضاء على هذه الأثرة السياسية التي تجلت في احتكار الإمامة في قريش ، فضلا عن احتكارها في بيت واحد من بيوتاتها ، وهو البيت الأموى .

وقد سلك الشيعة كذلك طريقا دينية ، إلى الدعوة لبنى هاشم . وقد حاول الزبيريون التعليل لتورثهم على الأمويين ، تعليلا دينياً أساسه إحياء الشورى في اختيار الخلفاء (١) .

ظهور العصبية القبلية وفساد بعض العمال :

وقد ظهرت نتائج هذه الحروب ، كأظهر ما يمكن أن تكون بشاعة وشناعة ونكرا ، فكانت امتحانا لهذا النظام السياسي الذى كان يظن كل من المتخاصمين ، أنه أولى بحفظه وحياطته . وامتحنت هذه الحروب — كذلك — الإسلام في أخص ما كان يحرص عليه النبي والخلفاء من بعده ، وهو محو العصبية التي حكمت السلوك العربى في العصر الجاهلى . ففى البصرة انقسم أهلها طوائف ، يناصر بعضها علياً ، ويناصر بعضها معاوية ، ويقف بعضها جهوده على نصرة أحسابه ورعايتها ، كما كانت تفعل العرب في الجاهلية(٢) .

ونستطيع أن نجد صدى لذلك كله فيما كان يقوله أنصار هؤلاء وأنصار أولئك من شعر . فقائل الأزد عمرو بن العَرَنْدَس العَوْدِيّ يفخر بأحساب

---

(١) العقد الفريد : ٤/ ٣٧١ — ٣٧٢ .

(٢) انظر أنساب الأشراف (المطبوع) ٥ /١٨٨ ، وراجع ماكتبه المستشرق فلهوزن في : كتاب الدولة العربية وسقوطها : ٣١٦ — ٣١٩ .

قومه، ويذكر مقتل ابن الحضرمى ، داعية معاوية في البصرة ، فيقول (١) :

رددنـــا زيـــاداً إلى داره وجـار تميـم دخـانا ذهب!
لحـى الله قومـاً شـووا جارهم وللشـاء بالدرهمين الشَّصَبْ ،
ينـادى الخنـاق وخمـانها وقـد سـمطوا رأسـه باللهب ،
ونحـن أنـاس لنـا عـادة نحامى عن الجـار أن يُغْتَصَبْ
حمينـاه إذ حـل أبيـاتنـا ، ولا يمنـع الجـار إلا الحسب (٢)
ولم يعـرفـوا حـرمة للجـوا ر إذ أعظم الجارَ قـومٌ نُجُبْ :
كفعلهـم قبلنـا بالزبـير عشـية إذ بَـزُّه يُسْـتَلَبْ

فانظر إلى هذا الشاعر لا يحفـل إلا بأحسابه ، ولا يهتم بعلي أو عثمـان أو معاوية . وهكذا بدأت الأمـور تسير في نفس الطريق التي سار فيهـا الجاهليون : عصبية قبلية ، لا تحفـل بدين ، ولا تستجيب لسلطان . وتاريخ الحكم الأموى ينبئنا بأن خلفاء هذه الدولة، اتخذوا من تأريث العصبية القبلية وإهاجتها وسيلة تمكن لهم من السلطان ،وتعينهم عليه ;ونحن لانكاد نمضى في تفهم هذا التاريخ ، حتى تظهر هذه العصبية بشكل واضح ، في تـلك

(١) انظر قصة مقتل ابن الحضرمى داعية معاوية وكان أرسله إلى البصرة ليفسد قبائلها على علي ابن أبي طالب ، ويدعوها إلى مبايعة معاوية وقد قتلته الأزد ، وهو في جوار تميم . الأمم والملوك ٦ /٦٣ — ٦٥ .

(٢) يريد أن الأزد حموا زياداً حين لجأ إليهم بعد نزول ابن الحضرمى البصرة ، وانتصاره بتميم (انظر الأمم والملوك ٦ /٦٣ ومابعدها) وكان ابن عباس قد استخلف زيادا هذا على البصرة عند خروجه إلى علي بالكوفة . المصدر نفسه .

الحروب التي هاجت في الجزيرة بين قيس وكلب من ناحية ، وبين قيس وتغلب من ناحية أخرى .

ويخطىء من يظن أن الأمور قد هدأت بعد مقتل الضحاك ، وهزيمة قيس في وقعة « مرْج راهط » المعروفة ، فقد تحول الصراع على إثرها ، من صراع بين الزبيريين والأمويين إلى صراع قبلي بين القيسيين والكلبيين ، وقد استمر هذا الصراع زمنا استغرق خلافة عبدالملك بأكملها . ومن المعروف أن أسباب هذا الصراع تعود إلى أن مروان بن الحكم ، قد استعان بكلب ومن لفّ لفّها من القبائل اليمنية في القضاء على ثورة الضحاك بن قيس ، حين أخذ في الدعوة لابن الزبير . وقد أصاب قيسا أذى عظيم ، وكان عليها — تبعا للتقاليد العربية المتوارثة — أن تثأر من قبيلة كلب ، ومن أعانها من تلك القبائل اليمنية .

ويحدثنا البلاذري أن عمير بن الحباب السلمي ، كان قائد قيس في هذه الحروب الطاحنة التي تردد النصر فيها بين هاتين القبيلتين ، وقد وصف البلاذري كثيرا من الوقائع التي كانت بين الفريقين ، ولا سيما ما كان بين قيس وتغلب في الجزيرة (١) .

وقد أنتج هذا الفساد السياسي نتائجه التي كان لابد أن تظهر ، فاضطربت الأمور في العراق والحجاز اضطرابا شديدا ، وطمع العمال فيما يقومون عليه من أموال المسلمين ، وقد ظهر ذلك واضحا فيما حفظته المصادر القديمة من أخبار تصور امتحان عثمان في أقاربه من بني أميه (٢) . وامتحان على في ابن

---

(١) انظر أنساب الأشراف (المطبوع) ٥ /٣٠٨ ، المصدر نفسه ٥ /٣١٣ — ٣٣١ .

(٢) انظر أنساب الأشراف (المطبوع) ٥ /٢٦ — ٥٧ ففيه أخبار كثيرة عن ولاة عثمان من أقاربه الذين كانت أعمالهم — فيما يقول المؤرخون — السبب في الثورة على عثمان ومقتله .

عمه عبدالله بن عباس. الذى يقول عنه المؤرخون (١) إنه حمل معه إلى مكة أرزاق المسلمين ، وذلك حين عزله علي – أو عزل هو نفسه – عن ولاية البصرة . وقد حاولت تميم استنقاذ هذا المال . ولكنها لم تستطع . فقد خرج ابن عباس عن البصرة في حماية أخواله من بني هلال ، ومضى آمنا بمال المسلمين إلى مكة . وقد كانت بينه وبين ابن عمه الخليفة كتب عتب فيها عليه هذا الصنيع . كما تصور هذه الأخبار . امتحان ابن الزبير في عماله عامة . وابنه حمزة خاصة . الذى يقول المؤرخون انه ولي العراق لأبيه . حتى إذا عزله عنه . احتمل معه أعطيات المسلمين وأودعها رجالا في المدينة : فذهبوا بها إلا يهوديا وفي له . وقال أبوه فيه « أبعده الله . أردت أن أباهي به بني مروان فنكص (٢) » .

ولاداعي للاستطراد في ذكر أمثلة من هؤلاء العمال الذين لم يحسنوا القيام بواجبهم كما يفرضه الدين . فهم كثيرون . وإنما نكتفي بالوقوف عند قصيدتين تصوران فساد النظام السياسي . واستبداد العمال والولاة بالرعية . إحداهما لابن همّام السلولي . يصف فيها عمالَ ابن الزبير . ويستعديه عليهم ، والأخرى لعبيد الراعي يحمل فيها إلى عبدالملك بن مروان شكاة قومه من عماله . وجباة خراجه . ويصور ما حل بهم من ظلم وافتئات على أيدى هؤلاء العمال :

فأما ابن همام السلولي فيقول لعبدالله بن الزبير (٣) :

يا ابن الزبير ، أمير المؤمنين ألم
يبلغك مافعل العمال بالعمل ؟

(١) انظر تاريخ الأمم والملوك : ٦/ ٨١ – ٨٢ – والعقد الفريد ٤/ ٣٥٤ – ٣٥٩ .

(٢) أنساب الأشراف (المطبوع) ٥/ ٢٥٧ .

(٣) المصدر نفسه : ٥/ ١٩١ – ١٩٥ .

باعوا التُّجار طعامَ الناس ، واقتسموا
صلب الخراج ، شحاحا قسمة النَّفَلِ !
وقدموا لك شيخا كاذبا خذلا ،
مهما يقل لك شيخ كاذب يَقُلِ(١)
وفيك طالب حق ذو مرانية ،
جلد القوى ليس بالواني ولا الوكل
أشدد يديك بزيد إن ظفرت به ،
واشف الأرامل من دحروجة الجُعَلِ(٢)
إنا مُنينا بضب من بني خلف(٣) ،
يرى الخيانة شرب الماء بالعسل !
خذ العصيفير فانتف ريش ناهضه ،
حتّى ينوء بشر بعد مقتبل (٤)
وما أمانة عتاب بسالمة(٥)
لاغمز فيها ولكن جمة السبل !

(١) الشيخ هو مرثد بن شراحبيل ، كان أمينا على التجار في بيع الطعام . المصدر نفسه ٥ /١٩١ .

(٢) دحروجة الجعل : هو عامر بن مسعود الذى ولى الكوفة لابن الزبير ، ثم عزله . وزيد مولى لعتاب بن ورقاء ، وكان خازن دحروجة الجعل هذا .

(٣) هو دحروجة الجعل السابق .

(٤) العصيفير : هو عبدالله بن أبي عصيفير والى المدائن .

(٥) هو عتاب بن ورقاء الرياحى الجواد المشهور .

وقيس كندة(١) قد طالت إمارته
بسرة الأرض بين السهل والجبل .

وخذ حجيرا فأتبعه محاسبة
ومن عذرت فلا تعذر بنى قفل(٢)

ما رابنى منهم إلا ارتفاعهم
إلى الخبيص عن الصحناة(٣)والبصل

وما غلام على أرض مسالمة
كمن غزا دستبى(٤)غير مجتعل :

يجبى إليه خراج الأرض متكشا .
مستهزئا بغناء القينة الفضل !

والوالبى الذى مهران أمّره
فزال مهران مذموما ولم يزل !(٥)

ودونك ابن أبى عشّ وصاحبه ،(٦)
قبل السبيع فقد أجرى على مهل .

---

(١) يريد قيس بن يزيد بن عمر بن شراحبيل الكندى .

(٢) يريد حجير بن حجار بن الحر ، كان على الروابى . وبنو قفل من تيم بن ثعلبة وكانوا على صدقات بكر .

(٣) الصحناة : طعام يتخذ من صغار السمك .

(٤) هى دستبى : كورة كبيرة في فارس بين الرى وهمذان .

(٥) الوالبى : سعيد بن حرملة بن الكاهل الوالبى ، ومهران : مولى لزياد وهو الذى جعل الو ى في عداد العمال .

(٦) كان ابن أبى عش هذا واليا على الدينور . وصاحبه : عبدالرحمن بن سعيد بن قيس الهمدانى .

لا تجعلــنّ* (مــال) بيــت المــال مأكلــة
لكــل أزرق من همـــدان مكتحــــل ،

ومنقـــذ بــن طــريف من بــنى أســـد ،
أنبئــت عاملهـــم قـــد راح ذا ثقـــل ،(١)

ومــا أخينــس جُعــفِيّ بمــانعـــه
من المتــاع ، قيــام الليــل بالطــول ؛(٢)

ومــا فــرات ، وإن قيــل امــرؤ ورع ،
إن نــال شــيئاً بــذاك الخائف الوجــل !(٣)

والحــارثيّ ســيرضى أن تقــاســـمه
إذا تجــاوزت عــن أعمـــاله (٤) الأول ،

وادع الأقـــارع فاقـــرعهـــم بداهيـــة ؛
واحمــل خيــانة مســعود عــلى جمــل(٥)

كانــوا أتــونا رجــالا ، لا ركــاب لهــم
فأصبحــوا اليــوم أهــل الخيــل والإبــل!

---

(١) يريد بعاملهم تميم بن دجاجة وكان على أسفل الفرات .

(٢) هو زحر بن قيس وقيل هو محمد بن أبى سبرة وكان على جوخى .

(٣) يريد فرات بن زحر ، قتله المختار يوم السبيع .

(٤) يريد السرى وقاص وكان على نهاوند .

(٥) مسعود هذا من بنى أسد .

لـــن يعتبـــوك ولمـــا يَعـــل هامَهـــم
ضرب السـياط وشـد بعـــد في الحجـــل

إن الســـياط إذا عضـــت غـــواربهـــم
أبـــدوا ذخـــائر من مـــال ومن حُلَـــلِ !

وكما شكا ابن همام من عمال ابن الزبير ،شكا الراعي – الشاعر المعروف – لعبدالملك بن مروان من عمـــال الصدقات وما يصبون على قومه من أسواط العذاب ، فقال(١) :

أبلـــغ أمـــير المؤمنـــين رســـالة   تشـــكو إليك مضلـــة وعـــويلا
أخليفـــة الرحمـــن ! إنا معشـــر   حنفـــاء نســـجد بكـــرة وأصيلا
عـــرب نـــرى لله في أمـــوالنـــا   حـــق الزكـــاة منـــزلا تنـــزيلا
إن الســـعاة عصوك يوم أمرتهـــم   وأتوا دواهي لو علمت وغـــولا
أخـــذوا العريف فقطعوا حيزومه   بالأصبحيـــة قائمـــا مغلـــولا(٢)
حـــتى إذا لم يتركـــوا لعظـــامه   لحمـــا ولا لفـــؤاده معقـــولا
جاءوا بصكهم وأحدب أســـأرت   منـــه الســـياط يراعة إجفيلا(٣)

---

(١) انظر جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي «طبع المطبعة الرحمانية» : ٣٥٥ ، وقد ورد فيها النص محرفا ومصحفا في كثير من المواضع وقد وردت منها أبيات في طبقات الشعراء : ٤٣٩ – ٤٤١ .

(٢) العريف : شيخ القبيلة ، الحيزوم: الوسط ، الأصبحية : السياط .

(٣) الصك : الصحيفة الخاصة بالصدقات ، الأحدب : يعني العريف ، أسأرت : أبقت . اليراعة الجبان ، وكذلك الإجفيل .

أخـــذوا حمولته وأصبح قاعـــدا لا يستطيع عن الديار حويلا ! (١)
يدعــو أمــير المؤمنــين ودونــه خَـرِقٌ تجـرُّ به الرياح ذيـولا .
أخليفــة الرحمن ! إن عشــيرتي أمسى ســوامهم عزين فلولا(٢)
قــوم على الإسلام لمــا يمنعـــوا ماعُونَـهُـمْ (٣) ويضيعوا التهليلا
قطعوا اليمامة يطردون كأنهـــم قوم أصابوا — ظالمين — قتيـــلا
يحـــدون حـــدبا مائلا أشرافُهـــا في كل مقربة يدعــن رعيلا (٤)
إن الذين أمرتهــم أن يعــدلــوا لم يفعلــوا ممــا أمــرت فتيــلا
أنت الخليفـــة ، عـــدله ونوالـــه وإذا أردت لظـــالم تنكيـــلا
فارفـــع مظـــالم عيّلت أبنـــاءنا عنـــا ، وأنقـــذ شِلْوَنا المأكولا
فنرى عطيـــة ذاك إن أعطيتـــــه ، من ربنـــا فضلا ، ومنك جزيلا .

فالراعي يستغيث بعبدالملك من هؤلاء العمال الذين يصبون العـــذاب على قومه صبا ، فهم يأخذون أموالهم بعد أن يمثلوا بهم ، دون مراعاة لحالـــة هؤلاء القوم ، وما نزل بهم من قحط عظيم يوجب العطف عليهم ، وعـــدم التشدد في جباية الصدقات منهم ، فهو إذن يصور انحراف عمال الصدقات في أيام عبدالملك ، ويطلعنا على بعض أساليبهم في تعذيب الناس . وسلـــب أموالهـــم .

(١) الحمولة : مايحمل عليه من الدواب .
(٢) السوام : الإبل ترعى ، عزين : متفرق تمن هزالها .
(٣) الماعون : الزكاة .
(٤) الحدب : الإبل . الأشراف : الأسنمة ، المقربة : الطريق في الجبل ، الرعيل : القطيع . يريد أنها من ضعفها تنقطع وهي سائرة .

(٢) الحياة الاجتماعية والأدبية

وأما الحياة الاجتماعية فقد أصابها كثير من التطور السريع الذى كان نتيجة لاصطناع العرب - ولا سيما في الحجاز - هذه الحضارات الوافدة، والأخذ منها بنصيب عظيم، مهد لنهضة واسعة في شتى مناحى هذه الحياة الاجتماعية والأدبيـــة.

وقد توزع المجتمع الإسلامى في بيئات متعددة، يهمنا منها بيئات ثلاث. هى: الشام، والحجاز، والعراق.

- ١ -

وفي تاريخ الشام ما يدل على أنه كان مبعثا لكثير من الأنبياء الذين نشروا فيه تعاليمهم الدينية، كما يدل تاريخـــه السياسى على أنه كان مركزاً للعلـــم والحضارة. وقـــد تحولت المنافسة بين الشام والحجاز في العصر الأموى الى عصبية إقليمية، كان من آثارها مساعدة الأمويين، والوقوف إلى جانبهم حتى يتحقق لهم بذلك نقل السلطان من الحجاز إلى الشام. وقد تم هذا الأمر في أيام معاوية الذى اتخذ من دمشق عاصمةً للدولة الإسلامية، ومنها وجـــه معاويةُ - والخلفاء من بعده - الجيوش الشامية لإخماد الثورات التى كانت تقوم في الحجاز والعراق، وفي غيرها من الأمصار الإسلامية الأخرى.

وكان طبيعيا - وقد صارت دمشق مركز الخلافة في عهد الدولة الأموية - ان يقصدها العلماء والشعراء. وقد نشطت فيها حركة الشعر والخطابة وسائر

الفنون الأدبية الأخرى ، بفضل ما جبل عليه الخلفاء الأمويون من تشجيع الشعراء والخطباء ، ليتخذوا منهم سلاحا فعالا يحاربون به خصومهم من الشيعة والخوارج والزبيريين . وقد التف حول البيت الأموى كثير من فحول الشعراء الذين وقفوا فنهم وأنفسهم على مديح بنى أمية ، والدفاع عن دولتهم . ومن هذه الأسماء الضخمة جرير والفرزدق والأخطل ، وغيرهم من شعراء هذا العصر . وقد سار معاوية والخلفاء من بعده على خطة مرسومة ، قوامها إيثار أهل الشام وبرهم ، وإجزال أعطياتهم ، يتألفون بذلك قلوبهم ويثيرون حماسهم إلى نصرتهم والوقوف بجانبهم .

وقد ساعد الأمويين على نجاح هذه السياسة ما كان يُصَبُّ في حُجُورِهم — بجانب ثروة الشام — من أموال ضخمة ، يحملها إليهم جباتهم في سائر الامصار الإسلامية .

ومهّد ذلك كله لنهضة واسعة تتمثل أولا في بناء الدور والقصور ، وإنشاء الحدائق . كما تتمثل ثانيا في التفاف الشعراء حول خلفاء بنى أمية ومديحهم . وكان من بين هؤلاء الشعراء من ينتمون إلى أحزاب أخرى مناوئة للأمويين ، كالشيعة والخوارج ، ولكنهم لم يجدوا مع ذلك بأسا في مديح بنى أمية ، وإعلاء شأنهم ، فقد جذبهم العطاء الجزيل الذى كان يمنحه هؤلاء الخلفاء .

وينبغى أن نلاحظ أن الشام — على الرغم من أنه ظل لفترة طويلة مهدا لديانات وحضارات مختلفة — لم يشارك كثيرا في دفع هذه الحركة العلمية العظيمة ، التى نشأت في العراق ، بفضل تلك الثقافة الوافدة ، وذلك لأن خلفاء هذه الدولة الأموية ، لم يعنوا كثيرا بتشجيع هذه الحركة العقلية (١)

---

(١) فجر الإسلام « الطبعة الخامسة » : ١٧٩ .

وإنمـــا وقفـــوا جهودهم على اجتذاب الشعراء ، واصطناعهم في الدفاع عن دولتهم ، والتمكين لأحقيتهم في السيادة والسلطان ، ولذلك فإن الحركات العلمية الأخرى - بخلاف الشعر والخطابة - أخذت تنمو من تلقاء نفسها ، وبفضل ما كانت تتطلبه حياة الشاميين في ذلك العصر .

ومن أهم تلك الحركات التي اضطرت الشاميين إلى النهوض بها ، الحركة الدينية ، فقد كان مجتمعا غريبا عن الإسلام وتعاليمه ، وقد عرضت له الحاجة إلى معرفة قواعد هذا الدين الجديد ، الذي مكّن لهم من السيادة والسلطان .

وكان بالشام نصارى كثيرون لم يدخلوا في هذا الدين الجديد ، كما كان فيه نصارى كثيرون أيضاً اعتنقـــوا الإسلام ، وكان من هـــؤلاء وأولئك مثقفون بالنصرانية . وقد اتسم الحكم الأموي في الشام بالمحافظة على حقوق النصارى ، وإتاحة الفرصة لهم لإقامة الكنائس بجانب المساجد . وقد أدى ذلك إلى « الاحتكاك بين الإسلام والنصرانية ، وكان بينهما جدال وحوار وخصومة ، يدل عليها ما أثر من كتابة يحيى الدمشقي النصراني . وقد سبب هـــذا الاحتكاك ظهور الكلام في القضاء والقدر ، أو الجبر والاختيـــار ، والكلام في صفات الله . . . (١) » .

- ٢ -

ويُعدُّ العراق من أسبق الأقاليم مدنيَّة وحضـــارة ، فقديما تعاقبت عليـــه الأمـــم المتحضرة من البابليـــين والأشوريين ، والكلدانيين . والفـــرس والرومان . وقد أنشأ هؤلاء في العراق ممالك مختلفة ، وقد عرفه العرب قديما ،

(١) المصدر نفسه .

فنزلت فيه قبائل من بكر وتغلب ، ثم كونوا فيه إمارة المناذرة في الحيرة : ثم استولى عليه العرب في عهد عمر ، وقد أنشأوا فيه البصرة والكوفة، فأسرع إليهما النمو . وتحولت إليهما كنوز المدائن وحضارة بابل والحيرة .

وقد ارتحل إلى العراق كثير من القبائل العربية، ونزلت البصرة والكوفة ؛ حاملة معها عصبياتها القديمة أيام الجاهلية . وقد كان العراق ميدانا للحروب والفتن في عهد الدولة الأموية ؛ وذلك لأنـــه كان مركز المعارضة لحكـــم الأمويين . وقد قامت فيه أحزاب سياسية تناهض بنى أمية ،وتدعو إلى القضاء على سلطانهم ؛ وهى : الشيعة ، والخوارج ، والموالى ، ولذلك ظهر ونما في هذا الإقليم الشعر السياسى الذى يعبر عن ميول هذه الأحزاب السياســية ، ويصور تعاليمهــا .

وبجانب هذا الشعر السياسى نجد لونا آخر من ألوان الشعر الجاهلى الذى استطاع الإسلام ــ بفضل تعاليمه الحاسمة ــ أن يقضى عليه زمنا ، ونعنى به الشعر القبلى ، الذى يقوم على التعصب للقبيلة ، والدعوة إلى نصرتهـــــا ، والوقوف إلى جانبها ، باعتبارها وحدة سياسية ، على نحو ما كان يفعل الشاعر الجاهلى .

ونعتقـــد أن المسئول عن إحياء هذا اللون من الشعر، هـــو ما كان يتبعه الأمويون في خصوماتهم السياسية ، من تأريث الخلاف بين القبائل، وإثارة عصبياتها الجاهلية ، ليمكنوا لسلطانهم من السيادة والبقاء . وقد شغلت العراقيين هذه الحروب والفتن . واستنفدت أموالهم ، فلم يتح لأهل العراق ما أتيح لغيرهم من الحجازيين والشاميين، من هذه الحياة اللاهية المترفة ، ولذلك فلم يظهر في شعر شعرائهم هـــذا اللون من الغزل اللاهى الذى نجده في شعـــر الحجازيين .

وقد اشتهر العراق بمدارسه اللغوية، وتنافست البصرة والكوفة في دراسة النحو واللغة بصفة خاصة. وربما كان السبب في ظهور هذا العلم وازدهاره في هاتين المدينتين، دون سائر الأمصار الإسلامية، ما عرف من أن أغلب سكان العراق كان من الموالي الذين كانوا مضطرين — تحت ضغط السيادة العربية في هذا الإقليم — إلى تعلم اللغة العربية لدينهم ودنياهم (١).

وقامت في العراق — بالإضافة إلى ذلك — حركة دينية، حمل لواءها فريق من الصحابة الذين هاجروا إلى العراق، واستقروا به، كابن مسعود الذي يعد من كبار علماء الصحابة، وكان يعلم الناس القرآن، ويفسره لهم، وكأبي موسى الأشعري، وأنس بن مالك، وغيرهم من الصحابة والتابعين.

— ٣ —

ويعتبر الحجاز من أفقر الأمصار الإسلامية، فهو يخلو من الأنهار، ويعيش أكثر أهله عيشة بدوية. تتصف بما يسميه العلم الحديث. بالانعزال الاجتماعي، فلا يكاد أهله يتصلون بالعالم الخارجي إلا في حدود ضيقة، على نحو ما كانوا يفعلون أيام الجاهلية في تجارتهم.

وكان ظهور الإسلام في الحجاز، ذا أثر كبير في اشتهار مدينتيه مكة والمدينة، وإعلاء شأنهما: فأما مكة فلأنها منبع الإسلام، ومقر البيت الحرام وبها نشأ النبي صلى الله عليه وسلم ودعا الناس إلى الدين الجديد. وأما المدينة فلأنها نصرت النبي صلى الله عليه وسلم ومكنت لدعوته، ولأنها كانت مقراً للحكم الإسلامي، من أيام النبي صلى الله عليه وسلم إلى آخر خلافة عثمان رحمه الله.

---

(١) انظر فجر الإسلام: ١٨٣ «الطبعة الخامسة».

وقد سكن مكة والمدينة كثير من صحابة النبي صلى الله عليه وسلم الذين عاصروه وسمعوا منه ، وشاركوا فيما كان يقوم به المسلمون من غزوات وفتوح ، وهم لذلك يحدثون بما سمعوا وشاهدوا . وقد مهد ذلك كله لأن تصبح مكة والمدينة مركزين من أهم مراكز الحياة العلمية والدينية في ذلك العصر . وفاقت المدينة مكة في ذلك ، لأن أشهر من أسلم من أهل مكة — ممن صحب الرسول في حياته الدينية كلها أو معظمها — هاجر مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، وأقام فيها ، كما كانت المدينة مقصد من يريد الإسلام في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وفي عهد الخلفاء من بعده .

ومهما يكن فقد نشأت في هاتين المدينتين حركة علمية دينية ، تتمثل في جمع الأحاديث وتفسير القرآن ، والتفقه في أمور الدين على أيدى المقيمين فيهما من صحابة الرسول .

وفي مكة كان يعلم ابن عباس وابن عمر ، وإليهما يرجع الفضل فيما كان لمدرسة مكة من شهرة علمية . وقد تخرج عليهما كثير من التابعين من أمثال مجاهد ، وعطاء بن أبى رباح ، وغيرهما من العلماء .

وبجانب هذه الحياة الدينية الوقور ، التى كانت تموج فيها المدينتان مَوْجاً بالعلماء الأجلاء ، والتى تصفها كتب المحدثين والفقهاء ، كانت تسود باقي الحجاز حياة أخرى ، هى حياة لهو وطرب . ونجد في كتب الأدب عامة ، وكتاب الأغاني خاصة ، أخبارا كثيرة ترويها هذه الكتب ، تشخص لنا خصائص هذه الحياة اللاهية ، التى عمت الحجاز في ذلك العصر .

وقد تضافرت على ظهور هذه الموجة من اللهو والترف ، في هذه البيئة العربية الخالصة ، عوامل عدة ترجع في مجموعها إلى أسباب سياسية ، تتصل

بما انتهت إليه الفتوح الإسلامية التي بدأت في أيام أبي بكر، وبلغت ذروتها في أيام عمر .

وقد جلبت هذه الفتوح للمسلمين عامة، وللحجازيين خاصة، كثيراً من الثروات التي حولت الحجاز من إقليم فقير، إلى إقليم يموج بالثروات الضخمة موجا . ولعل أبلغ ما يصور ذلك، ما يقوله ابن خلدون من أن « بحار الرقة زخرت لديهم حتى كان يقسم للفارس الواحد في بعض الغزوات، ثلاثون ألفا من الذهب (١) » . ويروى ابن كثير أن المسلمين لما فتحوا المدائن « كانــوا يفتحون تلك الدور فيجدون البيت ملآن إلى أعلاه من أواني الذهب والفضة، ويجدون من الكافور شيئاً كثيراً . فيحسبونه ملحا . وربما استعمله بعضهم في العجين فوجدوه مراً، حتى تبينوا أمره، فتحصل الفيء على أمر عظيم من الأموال . . . . وقسم بين القائمين فحصل كل واحد من الفرسان اثنى عشر ألفــاً (٢) » .

ويروى اليعقوبي أن الأسلاب قسمت بعد موقعة القادسية . فبلغ ســهم الفارس أربعة عشر ألفاً، وسهم الراجل سبعة آلاف ومائة (٣) .

وخطب عمر في الناس فقال : « إنه قــدم علينا مال كثير، إن شئتم أن نعده لكم عداً، وإن شئتم أن نكيله لكم كيلا (٤) » .

ولم تكن هذه الثروات، ثروات طارئة، بمعنى أنها لم تقتصر على مغانم الحرب، وإنما كان منها ما هو دائم يغل كل عام على المسلمين فيئا جديداً،

---

(١) انظر مقدمة ابن خلدون : ٢٠٤ .

(٢) البداية والنهاية : ٧/ ٩٧ .

(٣) انظر تاريخ اليعقوبي : ٢/ ١٦٥ .

(٤) انظر البلاذري في فتوح البلدان : ٤٥٣ .

فقد بلــغ خراج سواد الكوفة وحدها في عهــد عمر ، عشرين ومائة ألف ألف (١)

وأحس عمر أن هذه الأموال التي تغلها الأقطار المفتوحة ، تحتاج إلى نظام مالى يدبرها ، وينظم توزيعها على المسلمين ، فعمل على تدوين الدواوين ، وفرض العطاء ، وجعل لكل واحد من المسلمين عطاء مقرراً ، يتراوح بين ألف وخمسة آلاف في العام (٢) .

وقد عمت الحجاز — نتيجة لهذه الأموال التي تصب فيه صبا — موجة من الثراء في الثروات الخاصة . وقد عقد المسعودى(٣) فصلا ممتعاً لأصحاب هذه الثروات من الصحابة ، وإنا لندهش كثيراً لهذه المعلومات التي يرويها عن الثروات الخاصة ، التي كانت تقدر بمئات الآلاف ، بل بآلاف الآلاف من الدراهم والدنانير . فهو يروى أن يعلى بن منبه مات عن خمسمائة ألف دينار ، وديون وعقارات قيمتها ثلاثمائة ألف دينار (٤) . « ويعلى » هذا أحد الذين عادوا إلى مكة ، وأقاموا بها بعد أن هاجر منها في عهد الرسول — صلى الله عليه وسلم — وقد خلف طلحة بن عبيد الله — فيما يقول ابن عبد ربــه — ثلاثمائة بهار من ذهب وفضة (٥) ، ونستطيع أن نتبين ضخامة هذه الثروة ، إذا عرفنا أن البهار مزود من جلد بعير(٦) . ويقول ابن كثير ، إن ابن الزبير كان ذا مال جزيل ، وصدقات كثيرة ، وقد أحصيت أمــواله بعد مقتلــه

---

(١) انظر تاريخ اليعقوبي : ٢ /١٧٤ .

(٢) انظر الأمم والملوك « ط الحسينية » .

(٣) انظر مروج الذهب : ٢ /٣٤٠ ومابعدها ٥ /٢٢ ومابعدها ،

(٤) انظر مروج الذهب : ٢ /٣٤٣ .

(٥) انظر العقد الفريد « طبع دار الكتب » .

(٦) في القاموس بهر : البهار : « شيء يوزن به ، وهو ثلاثمائة رطل ، أو اربعمائة ، أو ستمائة ، أو ألف »

فبلغت جملتها تسعة وخمسين ألف ألف وثمانمائة ألف ، وكانت جميعها مما أفاء الله عليه من الجهاد ومن التجارة، وقد قيل إنه كان له ألف مملوك يؤدون إليه الخراج (١) .

وقد انتشرت على هذا النحو الثروات بين الحجازيين ، وتضخمت ، وعمت الحضارة وارتقت الأذواق ، وبنيت القصور . وزرعت الحدائق . وقد بالغ الحجازيون في العناية ببناء الدور والقصور ، حتى أصبحت تنافس دور دمشق وقصورها (٢) .

وقد أخذت معيشة القوم تتغير تحت تأثير هذا الثراء. وبفضل ما جلب إلى مكة من الرقيق والجوارى الفارسيات والروميات . وقد ساعد على وجود هذا الرقيق بها ، ما استنه عمر رضى الله عنه من تحريم توزيع الأسرى في مواطن الحروب، فكان يؤتي بهم أولا إلى المدينة . وكثير من هؤلاء الأسرى من الفرس والروم ، وكانوا من الطبقة الأرستقراطية في قومهم ، وكانوا متحضرين على النمط الذى ساد أمتهم وعصرهم . ويصف ذلك ابن خلدون فيقول (٣) : « لما ملك العرب فارس والروم ، استخدموا بناتهم وأبناءهم ، ولم يكونوا لذلك العهد في شيء من الحضارة . فقد حكى أنه قدم لهم المرقق فكانوا يحسبونه رقاعا . . . . واختاروا منهم المهرة في أمثال ذلك والقوّمة عليه ، الذين أفادوهم علاج ذلك والقيام على عمله . والتفنن فيه . مع ما حصل لهم من اتساع العيش والتفنن في أحواله . فبلغوا الغاية في ذلك . وتطوروا بطور الحضارة والترف في الأحوال . واستجادوا المطاعم والمشارب

---

(١) انظر البداية والنهاية : ٢ /٢٤٩ — ٢٥٠ .

(٢) انظر الأغانى « ط دار الكتب » : ٣ /٢٨١ ، المصدر نفسه ١ /٢١١ .

(٣) مقدمة ابن خلدون : ١٧٢ .

والملابس والمباني والأسلحة والفرش والآنية وسائر الماعون . . . فأتوا من ذلك وراء الغاية » .

وقد ساعد على انتشار هذه الموجة من الترف واللهو – بالإضافة إلى هذه الثروات الطائلة والرقيق الوافد – ما انتهت إليه أمور الحجاز من الناحية السياسية ، فقد انتقلت الحكومة من الحجاز إلى الشام ، وحيل بين شباب قريش وبين ما كان يطمح إليه من سلطان ، وأخذ خلفاء بنى أمية يرغبون هذا الشباب القرشي في المال ، ويحبسونه بأرض الحجاز ، لا يجاوزها إلا بإذن ، ولا يخرج منها إلا في حاجة ماسة . وكان لذلك آثاره السيئة ، فقد انصرف هذا الشباب إلى اليأس والحزن ، واضطرهم هذا اليأس إلى الحياة الفارغة التى كانوا يحيونها في الحجاز ، فرأينا أبناء أبى بكر وعمر وعثمان ، وزهرة الشباب الهاشمى ، مضطرين إلى أن يعيشوا في ضياعهم . فأما أكثرهم فقد انصرف إلى اللهو والمجون ، وأما أقلهم فانصرف إلى الدين والتقى ، ووقف فريق بين بين ، يحتفظ بمكانته الدينية ، ويأخذ مع ذلك بحظ من متع الحياة (١) .

وقد أنتجت هذه الحياة المترفة الفارغة ، فناً بديعاً كان ذا أثر كبير في الشعر العربى ، نعنى به فن الغناء ، الذى نما وازدهر في البيئة الحجازية ، وفي مكة والمدينة على وجه الخصوص .

وقد حمل لواء هذا الفن من الموالى الوافدين على هذه البيئة الدينية الذين كانوا يحملون ميراث أجيال متعاقبة من الرقي والتطور والحضارة المادية الرائعة ، التى لم يظفر العرب بشىء منها في حياتهم السابقة .

---

(١) انظر حديث الأربعاء : ١ : ١٨٤ ومابعدها .

ويخيل إلينا — ونحن نقرأ هذا الحشد الهائل من أخبار المغنين والمغنيات في كتاب الأغاني والعقد الفريد — أن الحياة في هذه البيئة المترفة قد تحولت إلى غناء متصل ، ولهو دائم ، فقد كثر المغنون والمغنيات — في مكة والمدينة — كثرة لامثيل لها في بيئة أخرى في العصر الأموى .

ونحن لا نكاد نتقدم في هذا العصر حتى نجد لمكة مغنين مشهورين من مثل ابن مسجح ،وابن محرز ،وابن سريج ،والغريض ، ويحيى قَيْل،والأبجر ، وغيرهم كثير ، كما نجد في المدينة أمثال جميلة ، وسلامة القس ، وعزة الميلاء ، وحبابة ،ولذة العيش ، وسعيدة الزرقاء ، والشماسية ، وغيرهن كثيرات(١)

وقد انتشرت في هاتين المدينتين الدور الكبيرة التي يقوم أصحابها على رعاية هذا الفن ، وتنظيم حفلاته (٢) ، بغية استقبال أثرياء المدينتين وأشرافهما ، للاستمتاع بما يحدثه أصحاب الأصوات الجميلة من ألحان جديدة ، وما ينظمه الشعراء من مقطوعات غنائية رقيقة ، تصور ما في هذه البيئة من عواطف الحب المتأجج .

وقد شهر من هذه الدور التي عنيت بهذا الفن ، دار الثريا (٣) في مكة وهي من شريفات القرشيات . والثريا هذه صاحبة عمر بن أبي ربيعة ، وقد

---

(١) انظر الأغانى « دار الكتب » : ٨ /٢٩٩ ومابعدها .

(٢) ومما يدل على سعة العيش في مكة ،وانتشار دور اللهو،مايروى في الأغانى من أن عبدالحكم بن عمرو بن عبدالله الجمحى قد اتخذ بيتا فجعل فيه شطرنجات وقرقات ودفاتر فيها من كل علم ، وجعل في الجدار أوتاداً فمن جاء علق ثيابه على وتد منها وجر دفتراً فقرأه ،أو بعض مايلعب به فلعب به مع بعضهم « الأغانى — ساسى » : ٤ /٥٢ .

(٣) انظر الأغانى «ساسى » : ٣ / ١١ ولها أخبار كثيرة في مواضع متفرقة من الأغانى . انظر المصدر نفسه : ١ /٧٢ — ١١٧ ، ٢ /١٢٥ — ١٣٣ ، ١٠ /٩٨ .

تخرج في دارها كثير من المغنين والمغنيـــات ، كالغريض ، ويحيى قيْل ، وسمية . ونجد من هذه الدور في المدينة ، دار عزة الميلاء (١) وجميلـــة(٢) وغير هؤلاء من المغنين والمغنيات .

ولا حاجة بنا إلى الاستطراد في وصف هذه المجالس والحفلات التى كانت تقام في مكة والمدينة ، فذلك شيء يكثر وجوده في الكتب القديمة، ولاسيما كتاب الأغاني(٣) الذى عنى بالتاريخ لفن الغنـــاء العربي في هـــذه البيئات المترفة ، وإنما يهمنا أن نشير إلى أن كثيراً من رجال الدين كانوا يحضرون هذه الحفلات، ولا يجدون بأساً في الاستماع إلى ما يغنى فيها من شعر، وما يقام فيها من رقص (٤) .

وكان هؤلاء المغنون يكثرون من الوقوف في طريق الحاجّ (٥) ، وعلى أبي قبيس(٦) وأخْشَبِ مِنى(٧) ، فيركب الحاجّ بعضهم بعضا ،ويحبسون الناس عن مناسك الحج ومشاعره .

---

(١) انظر الأغانى « طبع بولاق » : ١٩ /١٤ ولها أخبار متفرقة في الأغانى انظر المصدر نفسه « ساسى » ١ /١٤٥ ، ١٦ /١٢ — ١٩ ، ١٨ /١٧٥ .

(٢) انظر أخبارها في الأغانى « طبع دار الكتب » : ٨ /١٨٦ وما بعدها ، والمصدر نفسه«ساسى » : ٧ /١١٨ — ١٤١ .

(٣) انظـــر الأغانى « ساسى » : ٧ /١١٩ — ١٢٤ ، ٧ /١٣٥ — ١٥٨ ، ١٣٩ وصف لبعـــض تلك الحفلات التى كانت تقيمها جميلة في دارها .

(٤) روى أبو الفرج أخباراً كثيرة تؤيد ماذهب اليه . انظر بعض هذه الأخبار في الأغانى «ساسى » : ١ /٩٧ — ٩٨ ، ١ /١١٢ — ١١٣ ، ٦ /١١٢ ، ١ /١٥٧ ، ٢ /١٢٨ ، ٢ /١٤٢ ، ٥ /١١٢ ، ٦ /٢٨ ، ١٣ /١١٣ .

(٥) انظر الأغانى « ساسى » : ١ /٩٩، ٢ /١٥٢ ؛ المصدر نفسه « طبع دار الكتب » : ٢ /٢٠٨ .

(٦) انظر الأغانى « ساسى » : ١ /١٠١ ، ٢ /١٢٦ .

(٧) انظر الأغانى « دار الكتب » : ١ /٢٩٣ .

ويروى أبو الفرج في أغانيه أن ابن سريج كان عند بستان ابن عامر يغني (١) :

لمن نار بأعلى الخيـ ـف دون البسر ماتخبو
أرقت لذكر موقعها فحن لذكرها القلب
إذا ما أخمدت ألقى عليها المندل الرطب

« فجعل الحاج يركب بعضهم بعضا حتى جاء إنسان من آخر القطرات فقال : يا هذا قد قطعت على الحاج وحبستهم ، والوقت قد ضاق ، فاتق الله وقم عنهم ، فقام وسار الناس » ! ويروى كذلك (٢) أنه رفع صوته مرة يغني في موسم آخر فسمعه الركبان فجعلوا يصيحون به : يا صاحب الصوت أما تتقى الله ؟ قد حبست الناس عن مناسكهم ، فيسكت قليلا حتى إذا مضوا رفع صوته ، فيقف آخرون إلى أن مرت قطعة من الليل .

— ٤ —

وقد كان لانتشار الغناء في هذه البيئة الحجازية — على هذا النحو الذى وضحناه — أثر كبير فيما طرأ على الحياة الاجتماعية في الحجاز من تطور ورقي ، فقد ظهرت المرأة العربية ، وخرجت من بيتها ، وأخذت تشارك في الاستمتاع بهذه الحياة اللاهية ، وتهتم بهذه الفنون الجميلة من شعر وغناء ، فكانت تحضر مجالس المغنين والمغنيات (٣) ، وتشارك في تنظيمها والعناية بها ،

---

(١) الأغانى « ساسى » : ١ /٢٢٢ .

(٢) انظر الأغانى « ساسى » ١ /٩٩ .

(٣) انظر الاغانى « طبع دار الكتب » : ٦ /٢٢٧ — ٢٢٩

وتختلط بالشباب(١) ، وتتعرض للشعراء ، وتطلب إليهم أن ينسُبوا بها(٢) ، ليرفعوا من قدرها ، ويخلدوا جمالهـــا .

وكانت المرأة الشريفة في هذا العصر ترى في النسيب بها إشادة بجمالهـــا ، وتعريفا به . ولذلك فلم تكن تجد في هذا النسيب غضاضة ، بل على العكس كانت تجد فيه طرافة وإعلانا عنها ، ومن هنا كنا نقرأ دائما في أخبار الشعراء الحجازيين أشعارا وقصصا عن جميلات مكة والمدينة وغيرهن من النســاء الحواجّ من أمثال عائشة (٣) بنت طلحة ، وفاطمة (٤) بنت الأشعث الكندية ، وسكينة بنت (٥) الحسين ، وأم البنين (٦) بنت عبدالعزيز بن مروان ، إلى آخر هذه الأسماء التى كان يرددها الشعراء في غزلهم .

وكان خروج المرأة العربية واختلاطها بالرجل ، محاولة منها للتفوق على هذه المرأة الوافدة التى شغلت المجتمع الحجازى ، وغيرت من تقاليـــده ، نعنى هؤلاء الجوارى من بنات الفرس والروم ، كما كان محاولة للتمتع بمقومات هذه الحضارة الجديدة التى تتمثل فيما صب في الحجاز من أموال ، وماجلب إليه من الرقيق ، وأدوات الترف التى لم تظفر بها في حياتها السابقة .

---

(١) انظر الأغانى « ساسى » : ١ /٤٥ ، ١ /٦٦ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٠ — ٧١ والمصدر نفسه :

(٢) انظر الأغانى « دار الكتب » ١ /١٠٥ ، ١ /١٦٢ وما بعدها ، ١ /١٦٦ ١ /٢٠١ والمصدر نفسه « ساسى » ١١ /٤٦ .

(٣) راجع أخبارها في الأغانى « ساسى » : ١ /٣٦ ، ٧٦ ، ٤٧ ، ٣ /٩٧ — ١١٠ .

(٤) انظر الأغانى « ساسى » : ١ /٣٨ — ٣٩ .

(٥) راجع أخبـــارها في الأغانى « ساسى » : ٢ /١٢١ — ١٣٠ ، ١٤ /١٥٦ — ١٦٩ وغيرهـــا من المواضع .

(٦) راجع أخبارها في الأغانى « ساسى » : ٤ /١٥٦ ، ٦ /٣٢ — ٣٦ ، ١١ /٤٦ — ٤٧ .

وقد ارتقت الأذواق في ذلك العصر ، ورقت الأحاسيس ، وأخذ الناس يتمتعون بمعيشتهم ويحيون حياة كلها ترف ، ويستخدمون بنات الفرس والروم في خدمتهم .

ـ ٥ ـ

وقد أثرت هذه الحياة الجديدة ، وما شاع فيها من غناء ورقص في الشعر العربي تأثيراً كبيرا ، فظهر لون جديد من الشعر الغنائي لا نظفر به في بيئة أخرى من بيئات الشعر العربي في هذا العصر غير البيئة الحجازية ، ونريد به شعر الغزل الخالص ، الذى ينصرف الشاعر فيه إلى التعبير عن عواطفه الوجدانية ، تعبيرا صادقا ، من غير أن يخلطه بمديح أو هجاء على نحو ما نجد عند الجاهليين والإسلاميين، أو على نحو ما نجد في البيئات الأخرى ، كالبيئة الشامية أو العراقية مثلا . ولأول مرة في تاريخ الشعر العربي نجد ديوانا كاملا من الشعر، لا يتناول فيه صاحبه غير شعر الحب. يعبر فيه عن عواطفه، وعواطف الناس من حوله ، ويصف فيه المرأة العربية وصفا نفسيا وحسيا رائعا ، يصورها في معيشتها وصلاتها بالرجال ، ويصور عنايتها بملابسها ، واهتمامها بإظهار جمالها ، وشيوع اسمها على ألسنة الشعراء .

ويتمثل هذا كله في شعر عمر بن أبي ربيعة الذى وقف حياته وشعره على الغزل ، فلم يتناول غيره من موضوعات الشعر الأخرى، كما يتمثل في شعر غيره من الشعراء كابن قيس الرقيات ، الذى تكثر في شعره المقطوعات الغزلية الخالصة ، وفي شعر الأحوص ،وابن أبي عتيق، والحارث بن خالد المخزومى ،وغيرهم من شعراء الغزل المشهورين. وقد حفظ لنا كتاب الأغاني قدراً كافياً من شعرهم وأخبارهم ، كما حفظ كثيراً من شعر الحجاز في هذا العصر .

وكان لانتشار الغناء كذلك تأثير في لغة الشعر وأوزانه ، فعكف الشعراء – تحت تأثير اتصالهم بالمغنين والمغنيات – على اختيار الألفاظ السهلة الشائعة، حتى يتيسر لهذه البيئة الحجازية المختلطة فهم أشعارهم، ولهؤلاء المغنين الأجانب تلحينها وحفظها ، كما عكف الشعراء كذلك على اختيار الأوزان القصيرة ، أو مجزوءات الأوزان ، كالهزج والرجز والرمل . . . . . الخ ، ليسروا بذلك مهمة تلحينها ، وإخراجها في هذه الألحان الرائعة التي كانت تأخذ على الحاج طريقهم .

ويدل على هذا ديوان ابن أبي ربيعة وابن قيس الرقيات وغيرهما من شعراء الحجاز الذين حفظ الأغاني قدراً كافيا من أشعارهم ، ومعظمها قد نظمت في أوزان قصيرة ، وألفاظ سهلة رشيقة . ولعل هذه السهولة هي أهم مايميز الشعر الغنائي في هذا العصر ، وقد لحظ القدماء من اللغويين والرواة هذه السهولة التي يتميز بها شعر الحجازيين، فنفروا منه ، وتجنبوا الاستشهاد به ، ووصفه أبو عمرو بن العلاء بقوله (١) – حين عرض لهائية ابن قيس الرقيات التي يرثي فيها أقاربه من قتلى الحرة – « . . . . ما لنا ولهذا الشعر الرخو، إن هذه الهاء لم تدخل في شيء من الكلام إلا أرختها ! فقال له المدني – وهو الذي كان يتحدث إليه أبو عمرو – قاتلك الله ! ما أجهلك بكلام العرب ! ، قال الله تعالى في كتابه : « ما أغنى عني ماليه ، هلك عني سلطانيه » !

وبجانب هذا الغزل اللاهي الذي شهر به الحجازيون، نشأ في البادية لون من الغزل يسميه مؤرخو الأدب بالغزل العُذْرِيّ(٢) ، وهو غزل يظهر فيه

---

(١) الخصائص لابن جنى : ٣ /٢٩٣ .

(٢) وذلك نسبة إلى قبيلة بنى عذرة التى كانت تسكن الحجاز بجوار غطفان ، ومن الأماكن التى كانوا يسكنونها وادى القرى وتبوك (راجع معجم البلدان ودائرة المعارف الإسلامية) وقد نسب الغزل إليها لما شهرت به من رقة أحاسيسها .

الحب العنيف العفيف ، ويصور ما يلاقيـــه المحب من عذاب وحرمـــان، وما يعانيه من تباريح . وكان هذا الشعر يصدر عن عاطفة ملتهبة ، ويعبر عما انتاب قلب المحب الواله من آلام ، ويتحرز فيه صاحبه من المجـــون والخلاعـــة .

ويعلل النقّاد(١) لظهور هذا اللون من الغزل في البادية ،بأنه كان أثراً من آثار هذا اليأس القاتل الذى أصابهم نتيجة لهذا الفقر الذى كانوا يعيشون فيه، فقد حيل بينهم وبين حياتهم الجاهلية ، وتأثروا بالإسلام وبالقرآن خاصة ، فنشأ في نفوسهم شيء من التقوى ، فيه سذاجة بدوية . وفيه رقة إسلامية ، فانكبوا على أنفسهم ، واستخلصوا منها هذا الشعر العفيف (٢) .

---

(١) انظر كارل نليتو في كتابه (تاريخ الآداب العربية) : ١١٦ وما بعدها ، وقد تابعه في رأيه طه حسين في كتابه (حديث الأربعاء ، الجزء الأول) : ١٨٥ — ١٧٦ .

(٢) لقد تعددت آراء النقّاد حول تفسير نشأة هذا النوع من شعر الغزل — ولعل أوفى الأبحاث وأعمقها حول هذا الموضوع ما توصل إليه الدكتور عبدالقادر القط في كتابه : في الشعر الإسلامى والأموى .

(٣) ابن قيس الرقيات : حياتــه

وفي هذا الجو السياسي المضطرب، وهذه البيئة الثريه المترفة ؛ ولد وعاش ابن قيس الرقيات، شاعر قريش في الإسلام كما يسميه القدماء (١) .

ولا نعرف عن تاريخ مولده شيئاً ، فالرواة لا يحدثوننا بشيء صريح عن هذا ، وليس أشق على الباحث المحدث من أن يتعرض لتاريخ مولد شاعــر عربي ، وتوقيت وفاته .

وقد استعنا على بلوغ هذه الغاية بوسيلتين، هما كل ما نملك في هذا المقام، أما الأولى فتتصل بهذه الأخبار المتناثرة في كتب القدماء ، نحاول تفهمهـــا والتأليف بينها .

وأما الثانية ، فتتصل بما يحفظه الديوان من قصائد، قالها الشاعر في مناسبات معينة يمكن أن تلقى ضوءا على هذه الحقائق الغامضة في تاريخ مولـــده.

وسنحاول أن نؤلف من النظر في هذه الأخبار، وتلك القصائد ما يمكن أن نسميه تاريخا .

ويؤرخ الذهبي في كتابه لمولد ابن قيس تأريخاً مجملا فيقول : « عبيد الله ابن قيس الرقيات القرشي العامري الحجازي ، أحد الشعراء المجيدين، مدح مصعب بن الزبير وعبدالله بن جعفر ، وكان مولـــده أيام عمر (٢) » . ومن

---

(١) انظر خزانة الأدب البغدادي ٣ /٢٦٧ ، الأغاني « ساسي » ٤ /١٥٥ .

(٢) انظر تاريخ الإسلام للذهبي : ٣ /١٩٠ .

المعروف أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ولى إمرة المسلمين في سنة ثلاث عشرة للهجرة ، وامتدت خلافته الى سنة ثلاث وعشرين للهجرة (١)، ويدل هـذا على أن مولد ابن قيس – في رأى الذهبي – كان فيما بين سنتى ثلاث عشرة ، وثلاث وعشرين للهجرة .

ويروى أبو الفرج أن الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان ، حرم ابن قيس عطاءه بعد أن بذل له أمانه على يدى عبدالله بن جعفر ، وقال له لما مدحه الشاعر ببائيته فلم تعجبه :

« . . . . . . يا ابن قيس تمدحنى بالتاج كأني من العجم ، وتقول في مصعب :

إنما مصعب شهاب من اللّـ ـه تجلت عن وجهه الظلماء
. . . .

أما الأمان فقد سبق لك : ولكن لا تأخذ مع المسلمين عطاء أبداً . . . :
فقال ابن قيس الرقيات لعبدالله بن جعفر : ما نفعنى أماني ، تركت حيا كميت ، لا آخذ مع الناس عطاء أبداً . فقال له عبدالله بن جعفر : كم بلغت من السن ؟ قال : ستين سنة . قال : فعَمِّرْ نفسك . قال : عشرين سنة من ذى قبل ، فذلك ثمانون سنة . قال كم عطاؤك ؟ قال : ألفا درهم ، فأمر له بأربعين ألف درهم ، وقال : ذلك لك على إلى أن تموت على تعميرك نفسك . . . . . »

ورواية الأغاني تعتبر – من وجهة النظر العلمية – تفسيرا وتوضيحا لما جاء في رواية الذهبي ، فهما روايتان تؤيد كل منهما الأخرى . فمن المعروف

(١) الأغانى (طبع دار الكتب) : ٥/ ٨٠ .

أن ابن قيس – فيما تقول بعض الروايات – اختفى عاما كاملا (١) حتى استؤمن له الخليفة الأموى في سنة اثنتين وسبعين للهجرة . وهذا يدل على أن سن الشاعر ، حسب رواية الأغاني ، كانت ستين عاما في سنة اثنتين وسبعين للهجرة ، إن صح ما ذهب إليه أبو الفرج في روايته تلك ، كما يدل أيضا على أنه ولد في عام ثلاث عشرة للهجرة أو قبلها بقليل . وهذا – كما نرى – يتفق مع رواية الذهبي التي تقول إن مولده كان في أيام عمر .

– ١ –

اسمه ولقبه ونسبه وعشيرته :

وتواجه الباحث في نسب الشاعر مشكلتان تتصل إحداهما باسم الشاعر : وتتصل الأخرى بلقبه . فالرواة يضطربون بعض الاضطراب حين يعرضون لذكر اسمه ، كما يختلفون كثيرا على تفسير لقبه ، ولكنهم يتفقون آخر الأمر على أنه ابن قيس بن شريح ، أحد بنى عامر بن لُؤَىّ (٢) . أما اسم ابن قيس ، واسم أبيه ، فأشياء يختلف فيها الرواة ، فقد كان اسمه عبيدالله ، وقد كان يكنى أبا هاشم (٣) ، وقد كان اسم أبيه قيس بن شريح ، وقد كان اسمه قيس الرقيات بن شريح ، حين يضيف الرواة لقب الشاعر إليه .

ويقتضينا النظر العلمى أن نعرض لما يراه القدماء في اسمه ولقبه ، ونوازن بين هذه الآراء المتباينة موازنة منتجة . نحكم فيها عقولنا وننتهى في حكمنا عليها الى اختيار أصوبها .

---

(١) انظر الأغانى (طبع دار الكتب) : ٥ /٧٧ .

(٢) انظر الشعر والشعراء : ٥ /٥٢٣ .

(٣) انظر المزهر للسيوطى : ٢ /٤٢٥

وأما الكثرة من الرواة فيسمونه عبيد الله : فقد ذكره ابن سلام في كتابه « طبقات فحول الشعراء (١) » ، وهو أقدم نص ورد فيه ، باسم عبيد الله .

وقال عنه المصعب (٢) الزبيرى — حين عدد ولد ربيعة بن أهيب — إنه عبيد الله .

وتابعهما في ذلك في كثير من الرواة المتأخرين ، كابن قتيبة في الشعر والشعراء (٣) ، وابن حزم في جمهره الأنساب (٤) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٥) ، والمرزباني (٦) في الموشح ، والبغدادى في خزانة الأدب (٧) .

وترجم له أبو الفرج في كتاب (٨) الأغاني ترجمة مطولة تحت اسم عبيد الله ، وأجمعت نسخ الديوان المطبوعة والمخطوطة على أنه « عبيد الله ابن قيس . . . . »

ويسميه بعض الرواة باسم « عبد الله بن قيس » حين يعرضون لذكر شيء من شعره وأخباره . ومن بين هؤلاء الرواة الجاحظ في كتاب

---

(١) انظر طبقات فحول الشعراء : ٥٢٩ .

(٢) انظر نسب قريش : ٤٣٥ .

(٣) انظر الشعر والشعراء : ١ /٥٢٣ .

(٤) انظر جمهرة انساب العرب : ص ١٦٢ .

(٥) انظر تاريخ دمشق (مخطوط التيمورية) مجلد ٢٥ /٤١٤ .

(٦) انظر الموشح : ١٥٥ .

(٧) انظر خزانة الأدب للبغدادى : ٣ /٢٦٧ ، كذلك الولاة والقضاة للكندى : ٥٢ .

(٨) انظر الأغانى (طبع دار الكتب) : ٥ /٧٣ وما بعدها . وانظر الوافي بالوفيات للصفدى (مخطوط) : جـ ١٩ ورقة ١٧٩ .

الحيوان (١) ، والمبرد في كتاب الكامل (٢) ، والذهبي (٣) في تاريخ الإسلام ، والفيروزآبادى في القاموس(٤) ، وابن دريد في جمهرة اللغة (٥) .

وينبغى أن نلاحظ أن الذين يسمون الشاعر باسم عبيد الله يذكرون له أخا باسم عبدالله . وربماكان ذلك هو السبب فيما وقع فيه الرواة من خلط واضطراب .

وليس من شك في أن إشارة الرواة إلى عبدالله هذا بوصفه أخا لعبيد الله الشاعر ، لا يفيد كثيرا في الفصل فيما ثار بين هؤلاء الرواة من خلافات . وعلى العكس ، فإن ذلك يزيد المسألة تعقيدا ، إذ نجد أنفسنا أمام قضية جديدة ، ليست هى تصحيح اسم الشاعر ، وإنما هى البحث أى الأخوين هو الشاعر : عبدالله أم عبيدالله ؟

ونتساءل ما هى الوسيلة التى ينبغى الاعتماد عليها في الفصل في هذه القضية الجديدة التى جرنا إليها ما كان بين القدماء من خلافات حول اسم الشاعر ؟

ونعتقد أنه من المفيد ــ لكى نصل إلى رأى في هذه المسألة ــ أن نستعين براوية ثقة هو ابن الكلبي ، وهو فيما يقول القدماء أول من ألف في الأنساب ، وقد أخذ عنه سائر المتأخرين من الرواة(٦) . وعلى الرغم من أن كتابه «جمهرة النسب» ليس بين أيدينا ، فقد حفظ البغدادى في خزانة الأدب نصا يذكر

---

(١) انظر الحيوان للجاحظ ٧/١٥٤ .

(٢) انظر الكامل في الأدب (طبع الحلبى سنة ٩٣٦) ٢/٦٤٦ ، ٩١٦ .

(٣) انظر تاريخ الإسلام للذهبى .

(٤) انظر القاموس مادة « رقي » .

(٥) انظر جمهرة اللغة لابن دريد : ١/١٩٣ .

(٦) انظر ما كتبه احمد أمين في ضحى الإسلام عن رواة الأنساب : ٢/٣٤٥ – ٣٤٩

نسب الشاعر برواية ابن الكلبي فقال (١) : « . . . . . وابن قيس الرقيات شاعر قريش . وهذه نسبته من الجمهرة لابن الكلبي : عبيد الله الذى يقال له ابن قيس الرقيات، هو ابن قيس بن شريح بن مالك بن ربيعة بن وهيب . : . . . . وعبدالله بن قيس أخو عبيد الله الرقيات، له عقب ولاعقب لعبيدالله، وأسامة بن عبدالله ابن قيس قتل يوم الحرة . . . . » .

وهذا النص ، كما نرى ، عظيم الفائدة ، لأنه أقدم النصوص التى تروى نسب ابن قيس . وهذا يجعلنا نطمئن إليه ، كما أنه يحوى طائفة من الحقائق يمكن تلخيصها في أنــه كان لقيس بن شريح ولــدان : عبد الله وعبيد الله والشاعر منهما هو عبيد الله هذا . كما أن الرقيــات لقب لعبيد الله الشاعــر ولاصله له بأبيه قيس .

وإذا كان لنا أن نطمئن إلى ما يقولــه ابن الكلبي — بوصفه أقدم الذيــن جمعوا أنساب القبائل ودونوها — فإن هذا يؤيد مايقوله ابن عساكر، ومــا يقوله البلاذرى . والمصعب الزبيرى ، وغيرهم من الرواة ، من أن قيسا كان أبا لأخوين : أحدهما عبيد الله وهو الشاعر الذى يلقب بالرقيــات ، وثانيهما عبدالله الذى خلط الرواة بينه وبين أخيه . وقد كان لعبدالله هــذا أبناء قتلوا في وقعة الحرة، وبكاهم الشاعر بكاء مرا في شعر يقطر حزنا وألما.

ولأمر ما عمد قيس بن شريح إلى تسمية ولديــه بهذين الاسمين اللــذين لا يختلفان إلا في صيغة التصغير التى اختص بها شاعرنا، وربما كان هذا الأمر أن الشاعر أصغر سنا من أخيه ، فقد ولد في أيام عمر، وكانت سنه أيــام

---

(١) انظر خزانة الأدب للبغدادى : ٣/٢٦٧ — ٢٦٨ .

الحرة دون الخمسين بكثير ، بينما يحدثنا الرواة — حين يذكرون المهاجرين من أهل بيته بعد هذه الوقعة — بأن عبدالله هذا كان أبا وجـــدا (١) .

— ٢ —

وكما اختلفت الرواة في اسم الشاعـــر فقد اختلفـــوا في التعليل لتلقيبه بالرُّقَيّات ، وقد ساق البغدادى في خزانة الأدب طائفة من الآراء الطريفة التى راح أصحابها يفسرون بها لقب الرقيات ، الذى يضاف إلى الشاعر في رأى بعضهم ، أو إلى أبيه في رأى آخرين .

ولا داعى للإطالة في سرد هذه الآراء المتباينة ، فهى منثورة فيما وصلنا من كتب القدماء، وتآليفهم التى تصدت لذكر ابن قيس ، وإنما نكتفى بأن نعرض بعض هذ ه الآراء ، لنرى إلى أى حد يشتط الرواة ، ويخلطون حين يريدون تفســير ما يغمض عليهم من حقائق التاريخ والأنساب . وربما كان من الخير أن ندع البغدادى يقص علينا طرفا من تلك التفاسير المتباينـــة التى جمعها في كتابه ، فهو أقدر منا على عرض هذه الفلسفات المتباينة فيقول :

« . . . . . إنه إنما لقب بهذا لقوله : « رقية لا رقية أيها الرجل » . . . . . ومن الشعراء من غلبت عليهم ألقابهم بشعرهم حتى صاروا لا يعرفون إلا بها، فمنهم منبه بن سعـــد بن قيس عيلان ، وهـــو « أعصر » وإنما سمى أعصر بقولـــه :

قالت عمـــيرة ، ما لرأسك بعدما نفـــد الشـــباب أتى بلون منكر !
أعمـــير ! إن أباك غيـــَّر رأســـه مـــرُّ الليـــالى واختلافُ الأعصر !

---

(١) انظر مقدمة القصيدة رقم ٤٠ .

ومنهم شأس العبدى ، سمى الممزّق بقوله :

فإن كنت مأكولا فكن خير آكل ... وإلا فأدركني ولما أمزّق!

. . . . . ونقلت من خط الشاطبي : وافق الأصمعي ابن قتيبة على قوله : فعلى هذا يقال : عبدالله بن قيس الرقيات بالرفع على الصفة لعبدالله . وذكر ابن النحاس عن البرقي أن في أجداده ثلاث نسوة كل امرأة منهن تسمى رقية ، فعلى هذا يقال : عبدالله بن قيس الرقيات على الإضافة . . . . ، ونقلت من خط الشاطبي أيضاً : رأيت من ألف في النسب يقول . إن الذى يسمى ابن الرقيات هو قيس أبو عبيد الله وعبدالله (١) ، وفي ألقاب ابن سراقة : إن الذى يقال له الرقيات هو قيس . وقيل عبدالله ابن قيس ، وكذلك قال أبو عبيد في النسب : عبيد الله بن قيس ، سمى بالرُّقَيَّات لأنه كان يشبب بامرأتين كل منهما تسمى رُقَيَّة ، وإذا قيل ابن قيس الرقيات . فالمراد ابنه الشاعر . فإن لقيس ابنين : عبدالله ، وعبيد الله (٢) . . . . . » .

ويستطرد البغدادى فيقول : « . . . . . فأنت ترى أنّ معنى كلام هؤلاء الأئمة على أن الملقب بالرقيات إنما هو ابن قيس لاقيس ، ولا جائز أن يقال : إنه من قبيل تعدى اللقب من الأب إلى الابن ، لما نقلناه عن هؤلاء الأئمة . وعلى ما ذكرناه جرى صاحب القاموس وخطأ صاحب الصحاح ، فقال : عبدالله بن قيس الرقيات لعدة زوجات أو جدات أو حبيبات له أسماؤهن رُقَيَّة كسُمَيَّة ، ووهم الجوهرى . وهذه عبارة الصحاح : وعبدالله بن قيس الرقيات إنما أضيف قيس إليهن لأنه تزوج عدة نسوة إلى آخر الأقوال .

---

١) وفي الوافي بالوفيات : جـ١٩ لوحة ١٧٩ : « قيل لأبيه قيس الرقيات لأن له عدة جدات كلهن يسمين رقية » .

٢) خزانة الأدب للبغدادى : ٣ – ٢٦٦ – ٢٦٧ .

ونقل السيوطى في فصل معرفة الألقاب وأسبابها ، أنه كان يختار الرفع في الرقيات ، ويقول : إنه لقب لعبدالله ، لتشبيبه بثلاث نسوة أسماؤهن رقية . وقال غيره : الرقيات جدته فهو مضاف ، يعني أن عبدالله مضاف إلى الرقيات على تفسيرها بالجدات (١) ، فيكون مثل : حب رمان زيد ، فإن القصد إلى إضافة الحب المختص بكونه للرمان إلى زيد ، والملقب بالرقيات ابن قيس لاقيس ، وبهذا يوجه رواية جر الرقيات (٢) »

ويظهر الاضطراب الشديد فيما سقناه من نصوص اقتبسناها من خزانة البغدادى ، وحاولنا أن نؤلف بينهما تأليفاً يعيننا على تفهم ما يراه القدماء في تفسير هذا اللقب ، والتعليل له . وينبغى أن نلاحظ أن هذا الجدل الطويل يدور حول أصلين :

أولهما : من هو الذى يلقب بالرقيات ، ويوصف به ، أهو عبيد الله الشاعر ، أم أبوه قيس بن شريح ؟

وثانيهما : ما أصل هذا اللقب ، وماذا يدل عليه ؟

وقد انتهى القدماء كما رأينا ، الى طائفة من الآراء التى توصف أحيانا بالغرابة وبالبعد عن الحقيقة ، وهى آراء تحكمها فلسفات نظرية بحته ، وتحددها قواعد الإعراب من رفع وجر . .

وفي اعتقادنا أن المسألة ليست في حاجة إلى كل هذا الخلاف ، فمن يرجع إلى أخبار الشاعر وشعره ، يظهر له أن الرقيات لقب اختص به وأضيف إليه ،

---

(١) راجع ماكتبه البغدادى في تفسيره لكلمة(أخ) في هذا البيت ، الخزانة : ٣/ ٢٦٥ –٢٦٦ :

قُلْ لابنِ قَيْسٍ أَخِي الرُّقياتِ ما أَجْمَلَ العُرْفَ في المُصيباتِ

(٢) الخزانة : ٣ /٢٦٧ .

وربما كان السبب في ذلك أنه كان يلح في التشبيب فيمن تسمى « رقية » ، فقد حفظ ديوانه طائفة كبيرة من القصائد والمقطوعات التى وجهها أو قدم لها بالغزل في رُقَيّة هذه . وفي أخباره أيضا ما يؤيد هذه الحقيقة ، فيحدثنا الرواة (١) بأنه أحب ابنة عمه رقية بنت عبد الواحد ، وتبعها إلى الرقة ، وهام بها ، وقال فيها أجمل مقطوعاته الغزلية .

ويظهر لنا من طبيعة غزله فيها أن قومها قد عنّفوه على التشبيب بها ، وأن عشيرته طلبت إليه فراقها والسلوّ عنها فلم يقدر على (٢) ذلك . وهذا يدل — من بعض الوجوه — على أن حبه لها ، وشعره فيها قد شاع وانتشر ، فأغضب قومها على نحو ما كان يحدث لغيره من الشعراء ، وما لنا نبعد وفي تاريخ الغزل في العصر الأموى أمثلة عديدة تؤيد ما نذهب إليه ، فلدينا شعراء عرفوا بنسبتهم إلى محبوباتهم ، كجميل بثينة ، وكثير عزة ، وليس ابن قيس بدعا من شعراء الغزل . وقد كان واحدا من هؤلاء الذين حملوا قيثارة شعر الحب في هذا العصر ، فأخرجوا لنا أبدع الألحان وأعذبها . ورقية هذه التى يتردد ذكرها في هذا الغزل على هذا النحو ، لايمكن أن تكون إلا رقية واحدة أحبها الشاعر ، وفتن بها ، وهى من غير شك ابنة عمه رقية بنت عبدالواحد ، فيحدث الرواة بأنه لقيها في الحج (٣) ، وتبعها إلى الرقة(٤) ، ونسبو إليها إحدى مقطوعاته الغزلية التى يذكر فيها اسم رقية (٥) ، كما نسبوا

(١) انظر الأغانى (طبع دار الكتب) : ٥ /٧٤ ، وانظر المصدر : نفسه ٥ /٩٦ ، وانظر مقدمة القصيدة رقم ٤٠ وغير هذا من المصادر التى ورد فيها ذكره .

(٢) راجع المقطوعات أرقام : ٢٥ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٧٣ .

(٣) الأغانى (دار الكتب) : ٥ /٧٤ .

(٤) انظر مقدمة القصيدة رقم ٤٠ .

(٥) الأغانى (ساسى) : ٤ /١٦٤ وهى المقطوعة رقم ٧٤ ومطلعها :

سائلا فنداً خليلي كيف أردان رقية

إليه شعراً لم يصرح فيه ابن قيس باسم واحدة من النساء (١) .

وينبغى أن نلاحظ أنا لم نعثر ، فيما لدينا من المصادر ، على رواية واحدة تنسب إحدى هذه المقطوعات الغزلية للشاعر في رقية أخرى غير ابنة عبد الواحد بن أبي سعيد (٢) .

— ٣ —

ويقول الرواة (٣) إنه عبيد الله بن قيس الرقيات بن شريح بن مالك بن ربيعة بن أهيب بن ضباب بن حجر بن عبد بن معيص بن عامر بن لؤى بن غالب بن فهر بن النضر . فهو قرشي من جهة أبيه ، وسنرى أنه قرشي أيضاً من جهة أمه .

ويقول البكرى إن عامر بن لؤى — وهم قوم الشاعر — من قريش الظواهر الذين كانوا يسكنون خارج مكة (٤) ، وهذا يدل على أن عشيرة الشاعر لم تكن من العشائر الثرية التى كانت ذات شأن عظيم في أمور مكة أثناء العصر الجاهلى ، على نحو ما كان لقريش البطاح .

---

(١) الأغانى (ساسى) : ٤ /١٦٤ ، ٣ /١٦٥ وقد جاء ذلك في موضعين : الأول المقدمة الغزلية لقائية الشاعر في مديح ابن جعفر (القصيدة رقم ١٢) ومطلعها :

من عذيرى ممن يضن بمبذو ل لغيرى على يوم الطواف

. والثانى : المقطوعه الغزلية (رقم ٦٧) ومطلعها :

حبذا الدلال والغنج والتى في طرفها دعج

(٢) في جمهرة النسب لابن الكلبى (تحقيق محمود فردوس العظم) ١ /١٦٤ — الذى صدر مؤخرا « انه كان يشبب برقية هذه وبابنة عم لها تسمى رقية أيضا » لكنه لم يروله شعرا في هذه الاخيرة

(٣) الأغانى : (طبع دار الكتب) : ٥ /٧٣ وما بعدها ، وتاريخ دمشق (مخطوط التيمورية) : ٢٥ /٤١٣ ومابعدها ، أنساب الأشراف (المخطوط) : ١٠ /٤٩ ، نسب قريش : ٤٣٥ .

(٤) معجم البكرى (طبع سنة ١٩٤٥) : ١ /٢٥٧ — ٢٥٨ .

ويروى أبو الفرج ، في كتاب الأغاني ، ما يدل على اشتهار بني عامر بن لؤى بالقوة والبأس فيقول : « كان يقال لبني معيص بن عامر بن لـؤى ، وبني محارب بن فهر ، الأجربان من أهل تهامة ، وكانا متحالفين ، وإنمـا قيل لهما الأجربان من شدة بأسهما ، وعرّهما ، كما يعر الجرب (١) .

ويسمي رواة الأنساب عشيرة عبيد الله باسم جـده الثامن ، فيقولـون : « بنو معيص بن عامر بن لؤى (٢) » . وينسبها الشاعر في قصائده إلى جـده السابع فيقول : « بنو عبد (٣) » ،وإلى ربيعة – وهو جده الثالث – الملقـب بالنويعم (٤) فيقول :

رجـال النويعـم لـم ينكلـوا جـلادا عن الفئـة الظـالمـه

وكان ابن قيس يعتد بعشيرته ، كما كان يعتد بقرشيته ، ويكثر من الفخر بهما في قصائده فيقول :

نحـن الصـريح إذا قـريـ ـش قـام منهـا الناسـبُ

مـن سـرهـا ، وأرومهـا إذ لـلأروم مـراتـب

وهو كذلك شديد الاعتزاز بأبناء عمومته ، ينتصر بهم ويشيد بقوتهم ، فهو يذكر أبناء مالك بن حِسْلِ بن عامر (٥) ،ويذكر بني جابر بن وهب بن

---

(١) الأغاني (دار الكتب) : ٥/ ٧٢ .

(٢) نسب قريش : ٤٣٣ ، والأغاني (دار الكتب) : ٥/ ٧٣ .

(٣) القصيدة رقم ٤٠ بيت رقم ٨ وقد ظن الأستاذ النجدى ناصف ، أنه يريد بني عبدالله بن قيس أخيه ، وهذا خطأ . (انظر كتابه : ابن قيس الرقيات شاعر السياسة والغزل : ٩) .

(٤) القصيدة رقم ٤١ بيت ١٢ وهذا يخالف ماجاء في نسب قريش من أن الملقب بالنويعم هو : « نعيم بن زياد بن الأصم بن رواحة بن عبد بن معيص » نسب قريش : ٤٣٧ .

(٥) راجع القصيدة : ٤٦ بيت ٣٧ – ٤٠ وشرح البيت رقم ٨ .

ضباب ، وبنى شبل بن عبيد بن منقذ بن عمرو بن معيص (١) . وهو شديد الاعتزاز بهم جميعاً ، كما يظهر ذلك من شعره الذى ذكرهم فيه .

ويتفق الرواة على أن أم عبيد الله ، قتيلة بنت وهب بن عبدالله بن ربيعة من بنى سعد بن ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة (٢) .

وقد رأينا – فيما حكاه الرواة – أنه كان لأخيه عبدالله (٣) ، أبناء مختلفون ، منهم أسامة وسعد (٤) ، وقد قتلا في وقعة الحرة مع طائفة من عشيرتهما ، ذكر الشاعر منهم حسينا وأبا مالك ، حين رثى القتلى جميعاً هذا الرثاء الحار (٥) .

ويظهر – مما يرويه جامع الديوان – أن عبدالله هذا قد فارق الحياة قبل وقعة الحرة التى قتل فيها ولداه ، سعد وأسامة ، فقد لجأت أثيلة بنت مسافع ، زوجة أسامة بعد أن آمت في وقعة الحرة ، ومعها أولادها قيس وعقبة ومحمد ، إلى الجزيرة حيث يقيم عمهم عبيد الله فأبقتهم بها . ولو كان عبدالله هذا موجودا لكان من المرجح أن تلجأ إليه زوج ابنه أسامة ولا تلجأ إلى أخيه عبيد الله . وتكاد تتفق المصادر القديمة على أن الشاعر لم يعقب أولادا . وتتردد هذه العبارة في أقوال كثير من الرواة : « وعبدالله بن قيس أخو عبيد الله الرقيات ، له عقب ولا عقب لعبيد الله (٦) » . وليس لدينا ما يكشف عن هذه المسألة ، سوى نص واحد في كتاب الأغاني ، يمكننا أن نضيف إليه

---

(١) القصيدة رقم ٤٠ بيت رقم ٨ (الشرح) ، والقصيدة رقم ٤٦ بيت رقم ٣٨ .

(٢) انظر المصادر المذكورة في ص ٦٣ وحواشيها .

(٣) نسب قريش : ٤٣٦ ، خزانة الأدب البغدادى: ٣/٢٦٧ – ٢٦٨ ، تاريخ دمشق (مخطوط التيمورية) : مجلد ٢٥ /٤١٤ ، وجمهرة أنساب العرب : ١٦٢ .

(٤) راجع مقدمة القصيدة رقم ٤٠ ، وجمهرة أنساب العرب : ١٦٢ .

(٥) راجع قصيدته رقم ٤٠ ، ٤١ وانظر ما كتبناه عنهما ص ١٦٥ من هذا البحث .

(٦) خزانة الأدب البغدادى : ٣ /٢٦٨–

مقطوعته الميمية التى يعهد فيها بوصيته إلى شخصين ذكرهما باسميهما :

وأما هذا النص فهو ما يرويه الأغاني من أن « عبيد الله بن قيس الرقيات استأذن على حمزة بن عبدالله بن الزبير ، فقالت له الجارية ، ليس عليه إذن الآن ، فقال : أما أنه لو علم بمكاني ما احتجب عنى ! قال : فدخلت الجارية على حمزة فأخبرته ، فقال : ينبغى أن يكون هذا ابن قيس الرقيات ، ائذني له ، فأذنت له . فقال : مرحباً بك يا ابن قيس ، هل من حاجة نزعت بك ؟ قال : نعم ، زوجت بنين لى ثلاثة ببنات أخ لى ثلاث ، وزوجت ثلاثة من بنى أخ لى بثلاث بنات لى . قال : فلبنيك الثلاثة أربعمائة دينار ، ولبنى أخيك الثلاثة أربعمائة دينار ، ولبناتك الثلاث ثلاثمائة دينار ، ولبنات أخيك الثلاث ثلاثمائة دينار ، هل بقيت لك من حاجة يا ابن قيس ؟ قال : لا والله إلا مئونة السفر ، فأمر له بما يصلحه لسفره حتى رقاع أخفاف الإبل»(١) .

وأما مقطوعته الميمية فقد أوصى فيها إلى شخصين يظهر أنهما من أولاده، فقال :

أوصى شريحا إن هلكت ومحصنا ،
بعون على الجلى وترك المحارم !
وذبٍّ عن الجار الملبِّس حبله
بحبليهما ، وبالحليف المقاسم
وإن حارب المولى فحارب بحربه ،
وإن سالم المولى عليك فسالم
فإنك بين البيض من آل جابر ،
وبين بنى شبل ، وبين العلاقم
وقد نلت فرعا من لؤىّ بن غالب
دعائم كانت من خيار الدعائم

---

(١) الأغانى (طبع دار الكتب) : ٥ /٩٣ — ٩٤ .

ويذكر في إحدى قصائده أن له أولاداً كبروا حتى علاهم الشيب ، فهو لذلك يستحي منهم أن يمضي على سنته من المغازلة واللهو ، فيقول :

كبرت فلست من شرط الغواني
وفارقت الصبا غير الخفاء
وشاب بنوك فاستحييت منهم
وأبت إلى العفافة والحياء

ويشير في بائيته التي قالها وهو في طريقه إلى فلسطين بعد ارتحاله عن الجزيرة ، إلى عبث زوجه به حين رأت الشيب يسبق إلى رأسه ، فيقول :

هزئت أن رأت بي الشيب عرسي !
لا تلومي ذؤابتي أن تشيبا
فاظعني فالحقي بقومك ، إني
لا أرى أن أقيم فيكم غريباً
فانزلي في بني كنانة تلقي
فيهم العز إن دعوت قريبا

وهذا كله يدل على أن عبيد الله بن قيس تزوج وأنجب ، وإن كنا لا نعرف من أزواجه غير هذه الكنانية . وليس في شعره ولا في أخباره ما يكشف عن شخصية هذه الزوجة إلا ما جاء في هذه الأبيات .

(٤) مذهبه السياسي

ـ ١ ـ

هل كان ابن قيس زُبَيرِىَّ الهَوى كما يقول القدماء (١) ؟ وهل كانت هذه السيرة التى سارها حين اتصل بالزبيريين ، واجتهد في أن يمدح مصعبا ، ويرفع من شأنه ، ملائمة لما كان يسلكه شعراء السياسة حين يريدون إلى نصرة الأحزاب ، والترويج لمبادئها ؟ وهل كان قادرا ــ بهذا الشعر الذى قاله في مصعب ــ على أن يؤثر في الناس ، فيرقى بهم إلى فهم قضية الزبيريين ، والانضواء تحت لوائها ؟

إن أول ما ينبغى أن نتبينه لنستطيع الإجابة عن هذا السؤال ، هو طبيعة هذه الدعوة التى كان يتزعمها عبدالله بن الزبير ، وطبيعة هذا الشعر الذى كان يقوله ابن قيس في مصعب ، منذ أن اتصل به إلى أن قتل في سنة اثنتين وسبعين للهجرة .

وقد رأينا فيما مضى (٢) ، أن المسلمين قد تركوا صفين وهم أحزاب ثلاثة : شيعة لعلي في الحجاز والعراق ، وأنصار لمعاوية في الشام ، وخوارج يبغضون علياً ومعاوية ، ويرون في اختلاف قريش خطراً على الدين ، وخطراً على المسلمين .

وقد تم الأمر ــ كما رأينا ــ للأمويين بعد أن دبر الخوارج مقتل علي ، وسار معاوية وابنه يزيد من بعده في المسلمين سيرة لم تكن في جملتها مرضية

---

(١) الأغاني (طبع دار الكتب) : ٥ / ٢٦ .

(٢) انظر ص ١١ من هذا البحث .

لكثير من المسلمين . وتكونت في الحجاز والعراق – تحت تأثير هذا السخط على الأمويين وسياستهم – أحزاب ثلاثة ، كلها تقاوم بنى أمية وتدعو للثورة عليهم والقضاء على دولتهم ، متخذة في سبيل هذه الغاية وسائل دينية أهمها: أن بيعة معاوية لم تكن صحيحة من الوجهة الدينية ، وأن أمور المسلمين ينبغى أن ترد إليهم لينتخبوا إماما جديداً يرتضونه لأنفسهم ، ولم يكن من الضرورى – في رأى الخوارج – أن يكون هذا الإمام قرشياً . ويهمنا من هذه الأحزاب التى تكونت لمعارضة الحكم الأموى في العراق والحجاز حزب الزبيريين ، ونعنى بهم أتباع عبدالله بن الزبير . وينبغى أن نلاحظ أن هذا الحزب يعد من أقصر الأحزاب السياسية عمراً ، فقد ظهر مع دعوة ابن الزبير لنفسه بالخلافة ، إثر مقتل الحسين في أيام يزيد بن معاوية ،وانتهى أمره بقضاء الأمويين على مؤسسة عبدالله بن الزبير في سنة اثنتين وسبعين للهجرة . وهذه الحياة القصيرة التى عاشتها دعوة الزبيريين، لم تكن كافية لتكوين حزب سياسى ، يمارس نشاطه على أساس نظرية سياسية واضحة المعالم ، على عكس ما نجد عند الشيعة والخوارج . ولذلك لم يترك الزبيريون دعاة يقومون بإقرار دعوتهم ، والنهوض بها كما فعلت الأحزاب الأخرى .

ومن هنا لا ينبغى أن ندهش لقلة الشعراء الزبيريين ، وقلة ما يصلنا من أشعارهم في مصعب بن الزبير وأخيه عبدالله . وهل كان لعبدالله بن الزبير وأخيه مصعب فلسفة سياسية محددة ، يفسران بها الأحداث الدامية التى وقعت منذ أن قتل الثائرون عثمان إلى أن ولى معاوية فيزيد ، حتى يقول الشعراء فيها شعرا ؟ !

أليست هذه الفلسفة السياسية أن معاوية قد خالف على المسلمين تقاليد دينهم ، حين بايع لابنه يزيد من بعده ، فأحال إمامة المسلمين إلى ملك وراثي

أموى ، وأن معاوية قد نقض العهد الذى قيل انه أخذه على نفسه في أن يكون أمر المسلمين شورى بينهم من بعده ؟

لقد تحول عبدالله بن الزبير من الدعوة إلى الشورى – حين عارض إمامة يزيد – إلى الدعوة لنفسه ، فأخذ يحرض الناس على خلع يزيد بن معاوية والثورة عليه ، كما أخذ يضطهد الهاشميين عامة ، وأبناء علي خاصة ، لأنه كان يرى فيهم منافسين خطيرين ، يحولون بينه وبين الدعوة لنفسه . وقد تجلى ذلك كله فيما أشرنا إليه فيما مضى ، من تحريضه للحسين على الخروج إلى العراق ، ومن حبسه محمد بن الحنفية ، وتركه ذكر النبي والصلاة عليه في خطبه .

ونخلص إلى القول ، بأنه لم تكن للزبيريين فلسفة سياسية معينة ولا قضية دينية محددة ، ينافحون عنها . ويحاربون من أجلها ، وإنما كانت لعبدالله بن الزبير أطماع سياسية . فمعاوية – وقد ولى أمور المسلمين – لا يمتاز عنه بشيء فأبوه الزبير حوارى رسول الله . وخالته عائشة أكثر أزواج النبي حبا له ، وأقربهم مودة إليه ، وأمه أسماء بنت أبي بكر ذات النطاقين ، وهو قرشى من جهة أبيه وأمه ، ويزيد بن معاوية أصغر سنا وأخف إسلاما ، وأمه كلبية ولا فضل ليزيد كفضل عبدالله في الإسلام (١) .

ويفهم من سلوك عبدالله بن الزبير ، أنه لم يكن يحرص على أن يتألف الشعراء ويترضاهم ، ويستعين بهم على إذاعة دعوته والدفاع عنها ، كما كان يفعل خصومه من الأمويين . فقد شهر بالبخل الشديد (٢) الذى كان من أهم

---

(١) انظر جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة : ٢/١١٣ ، ٣/١٥٠ ومابعدها فقد أورد فيها المؤلف كثيراً من خطب ابن الزبير .

(٢) أنساب الأشراف (المطبوع) : ٥/٣٦١ ، ٣٦٣ ، ١٩٧ – ١٩٩ ففيه أخبار عن بخل ابن الزبير ، وقد هجاه الشعراء لذلك . وانظر كذلك البداية والنهاية لابن كثير : ٨/٣٣٩ .

الأسباب التي رغبت بالشعراء عنه ، وقد كان ابن قيس الرقيات واحدا من هؤلاء الشعراء الذين رغبوا عن عبدالله بن الزبير ، وآثروا أخاه مصعبا بحبهم وفنهم . فأخذوا في مديحه وإذاعة مناقبه .

وحين نعرض لهذا الشعر الذى قاله في مصعب ، لا نجد فيه شيئاً عن قضية الزبيريين بوصفها قضية سياسية دينية ، ولا دفاعا عن دعوتهم من أنهم أحق بالخلافة من دون بنى أمية وبنى هاشم (١) جميعا . وحتى حين يأخذالشاعر في هجاء بنى أمية وإثارتهم ، لانجده يعرض لشيء مما شاع في الحجاز والعراق ، لدى الشيعة والخوارج والزبيريين أيضاً ، من أنهم غاصبون للخلافة ، وكل ما يمتاز به هذا الشعر السياسى الذى مدح به مصعبا وهجا فيه بنى أمية ، أن فيه لوما للأمويين ، ونقداً لسياستهم التى كانت السبب في القضاء على وحدة قريش، وفصم عراها ، بما أثاروه من حروب بين القرشيين، تتمثل في وقعة الحرة (٢) ، التى قتل فيها كثير من أهل بيته ، والتى أوقع فيها يزيد بالأنصار والقرشيين عموما ، ووقعة الطف التى قتل فيها الحسين(٣) ، ونفر من أهل بيته ، ومرج راهط (٤) التى أعانت فيها اليمنية — ولا سيما كلب — مروان ابن الحكم على الضحاك بن قيس ، والتى كانت مقدمة لحروب شديدة ، ووقعات متصلة بين القيسيين والكلبيين ، ثم بين القيسيين والتغلبيين في أيام عبدالملك .

ومن الغريب حقا ، أن يخلو شعر هذا الشاعر ، الذى يصفه القدماء بأنه كان زبيرى الهوى ، من الدعوة للزبيريين والدفاع عن قضيتهم ، وذلك على

---

(١) انظر مديحه لمصعب في القصيدة ٣٦ ، ٥٠ من الديوان .

(٢) انظر القصيدة رقم ٥٠ بيت ٧ ، وفي القصيدة رقم ٤٠ نراه يرثى قتلى الحرة من أقاربه ، ويتوعد بنى أمية .

(٣) انظرالقصيدة رقم ٣٩ بيت ٦٠ .

(٤) انظرالقصيدة رقم ٥٠ الأبيات من ١٢ — ١٦ .

الرغم من أنه اتصل بهم زمنا ، وقال في مصعب من المدائح ما لم يقل مثله في غيره من الممدوحين ، من حيث صدقه وإخلاصه وجودته .

— ٢ —

وقد شغلت قريش ووحدتها جانبا كبيرا من هذا الشعر ، بحيث نلاحظ أن مدائحه لمصعب ، ورثاءه لقتلى الحرَّة من أقاربه ، كان يسبقها دائما بكاء قريش ، ووصف لما أصاب وحدتها من ضعف وتمزق على أيدى الأمويين ، معدداً ما أثاروه من حروب أهلية . وهذا كله يدل على أنه كان قرشياخالصاً في آماله وآلامه جميعا ، فالخلافة ينبغى أن تكون في قريش ومعها المضرية ، وعلى قريش أن تعيد سياستها الأولى ، وتجتمع حول هذه الخلافة تحوطها وترعاها ، معرضة عن هذه الخلافات التى قسمتها شيعاً وأحزاباً يسطو بعضها على بعض .

وحين نمضى في قراءة هذا الشعر على اختلاف موضوعاته ، نجد هذا الحرص الشديد على وحدة قريش ، وهذا التأسى على ماضيها القديم . وربما كانت همزيته الطويلة — التى يمدح بها مصعبا — هى القصيدة التى تمثل رأيه السياسي ، فنجده — حين يمدح مصعب بن الزبير — يذكر قريشا ووحدتها فيقول :

حَبّذا العَيشُ حينَ قومى جَميعٌ

لم تُفَرِّقْ أمُورَها الأهواءُ

قبلَ أن تَطْمَعَ القبائلُ في مُلْـ

ـكِ قريشٍ ، وتَشْمَتَ الأعداءُ .

أيُّهـــا المُشْتَهِــى فَنــــاءَ قُــرَيْشٍ
بيَــدِ اللهِ عُمْـــرُهـــا والفَنـــــاءُ !

ويتضح هذا الجانب من انتصاره لقريش ، في الفخر برجالاتها في الجاهلية والإسلام ، لا يفرق بين بيوتاتها المختنفة ، فيذكر الزبيريين ، كما يذكر الأمويين والهاشميين ، لا يفرق بين هؤلاء وأولئك ، وإنما يذكرهم جميعاً بوصفهم قرشيين ، فيقول :

لــو بكَــتْ هـــذه الســـماء على قَـــوْ
مٍ كـــرامٍ ، بكـت علينـــا الســـماءُ
نحــن منـــا النــبيُّ الأمــيُّ ، والصِّـــدِّيــ
ــقُ ، منـــا التـــقيُّ ، والخُلَفـــاءُ
وقتيــلُ الأحــزابِ ، حَمْـــزَةُ ، منـــا
أسَـــدُ اللهِ والسَّـــناءُ ســـــناءُ
وعــليٌّ ، وجعفـــــرٌ ذُو الجنـــاحَيــ
ــنِ هُنـــاكَ الــوصــيُّ والشـــهداءُ
والــزُّبَيــرُ الــذى أجــابَ رسـولَ اللهِ
في الكَـــرْبِ ، والبـــلاءُ بَـــلاءُ
. . . .
. . . .
منهـمُ ذُو النَّـدَى سُــهَيْلُ بن عَمْـرٍو
عصمــةُ الجــارِ ، حــين حُــبَّ الوَفــاءُ

ورجـــال مـــن الأحـــابيـــش ، كـــانـــت
لهـــم في الـــذيـــن حـــاط دمـــــاء
والـــذى أشربـــت قـــــريش لـــه الحـــــ
ـــب ، عليـــــه ممـــــا يُحَسبُّ رداء
وأبـــو الفضـــل وابنـــه الحـــبر ، عبـــد الـــ
ـــله ، إن عـــىَّ بالـــسُّرتِى الفقهـــــاء

ولعل في قرشية ابن قيس ، ما يفسر لنا كرهه لبنى أمية وتغيره عليهم ، فقد أيقن أنهم لم يعودوا صالحين لولاية المسلمين ، وقد أوشكوا — بما أثاروا من حروب بين القرشيين — أن يذهبوا بقريش ويقضوا على وحدتهـــا ، ويمكنوا لغيرها من القبائل المنافسة التى ظلت تحسد قريشا ، وتتطلـــع إلى سلطانها في الجاهلية والإسلام . وقد تركت هذه الحروب في نفس الشاعر القرشى حقدا شديدا على بنى أمية . فقد أخذوا يصطنعون كلبا ومن لـــف لفها من القبائل اليمنية ، وينتصرون بها في قتالهم لأبناء عمومتهم من الهاشميين وغيرهم ، ممن خالف على سلطانهم في الحجاز والعراق . وهـــم بذلك ينتصرون باليمنية على المضرية ، وبأهل الشام على أهل الحجاز . ولست بحاجة إلى بيان ما في هذه السياسة من خطـــر شديد على مركـــز قريش السياسى والدينى ، فقد أوشكت هذه السياسة فعلا أن تنقل السلطـــان من قريش إلى كلب . كما نقلت السلطان المركزى من الحجاز إلى الشام عندما اتخذ معاوية دمشق عاصمة لدولته. فليس غريبا إذن أن تُغضب سياسة الأمويين ابـــن قيس ، وتُحفظه وتثيره ، وتدفعه إلى الوقوف في صف خصومهم مـــن الزبيريين ، فهو شاعر وهب حب قبيلته ووطنه ، لا يعدل بهما شيئا آخر .

وفي هذه الأبيات التي تصور ما جلبته سياسة الأمويين من خطر على مستقبل قريش أو ملكها – كما يسميه – يشير إلى خطر اليمنية وقتالها لقريش في أيام يزيد ومروان فيقول :

عين فابكي على قريش ، وهل يُر
جع ما فات ، إن بكيت ، البكاء ؟
معشر حتفهم سيوف بني العلا
ت ، يخشون أن يضيع اللواء
ترك الرأس كالثغامة مني ،
نكبات تسرى بها الأنباء
مثل وقع القدوم حل بنا ، فالنـ
ـاس مما أصابنا أخلاء .
ليس لله حرمة مثل بيت
نحن حجّابه عليه الملاء
خصه الله بالكرامة ، فالبا
دون ، والعاكفون فيه سواء
حرّقته رجال لخم ، وعكٌ
وجذام ، وحمير ، وصداء
فبنيناه بعدما حرّقوه
فاستوى السمك واستقل البناء
. . . .
أنا عنكم بني أمية مزْ
ورٌّ . وأنتم في نفسي الأعداء !

إن قتلي بالطَّفّ قد أوجعتني
كان منكم لئن قتلتم شفاء

ويتردد صدى الشعور بخطر اليمنية في قصائده الأخرى ، فيقول في إحدى مدائحه لمصعب :

فهل من طبيب بالعراق لعله
يداوى كريما ، هالكا ، متهالكا
فلولا جيوش الشام كان شفاؤه
قريبا ، ولكنى أخاف النيازكا
أخاف الردى من دونها أن أرومها
وأرهب كلبا دونها والسكاسكا
رجال هم الأقتال من يوم راهط
أجازوا الغوار بيننا والتسافكا !

ويقول في إحدى قصائده — مشيرا إلى ما ثار بين قريش من حروب —

إن يَشِب مفرقى فإن قريشا جعلت بينها الحروب حروبا

فابن قيس — كما رأينا — قرشي يتلخص مذهبه : في أن قريشا أحق بالسيادة والسلطان ، لما تملكه من ميراث تاريخى دينى ، يرتفع بمكانتها عن القبائل الأخرى ، وأن سلوك بنى أمية السياسى ، لايفيد قريشا بل يضرُّ بها .

— ٣ —

وقد اتصل ابن قيس بالأمويين إثر مقتل مصعب بن الزبير ، ومدحهم بالكثير الجيد من شعره ، واتصل بعبد العزيز بن مروان ، وآثره على أخيه عبدالملك ، وانتصر له في قضية الولاية ، التى ثارت بينهما في سنة أربع وثمانين

للهجرة . ويرى بعض النقاد المحدثين (١) في اتصال ابن قيس ببني أمية ، خيانة لأصدقائه من آل الزبير ، ويستنتجون من ذلك أنه لم يكن صاحب رأي سياسي يعتد به ويدافع عنه ، فقد اتصل بالزبيريين ومدحهم ، ثم اتصل بالأمويين ومدحهم ، فهو واحد من هؤلاء الشعراء الذين يجذبهم العطاء ، ويخيفهم السلطان . وفي اعتقادنا أن هؤلاء النقاد قد أسرفوا على الشاعر . فلم يكن ابن قيس داعية للزبيريين ، ولا داعية للأمويين ، وإنما كان داعية لقريش ، ويبدو أن اتصال الشاعر بالزبيريين في شخص مصعب بن الزبير ، لم يكن مقصوداً به الدعوة لقضية الخلافة على نحو ما كان يفهمها عبدالله بن الزبير ، وإنما كان محاولة لنقد الأمويين ، والكيد لهم ، يريد من ذلك أن يحملهم على طريق من العدل والحرية ، لا يشقّى فيها القرشيون لضعف أو تفرق ، ولا يسود فيها الشاميون واليمنيون بفضل انتصارهم لبني أمية . ونظن كذلك أن الظروف التي أحاطت بابن قيس — إثر مقتل مصعب — قد أعانته أو اضطرته الى سياسته تلك ، في الاتصال ببني أمية ومديحهم ، ولست بذلك أحاول الحكم للشاعر أو الحكم عليه ، وإنما أحاول أن أتعرف على حقائق موقفه ، ومن هذه الحقائق ، حقيقة لا ينبغي إهمالها أو الشك فيها ، وهي أن الشاعر لم يمدح من آل الزبير حين اتصل بهم سوى مصعب ، ونلاحظ خلو ديوانه وأخباره من مديح عبدالله ، وكان خليقا به لو أنه آمن بدعوته أن يمدحه ، ويدعو له على نحو ما كان يفعل شعراء الأحزاب السياسية في ذلك الحين . وإذا كان لنا أن نعدل فيما يقوله بعض القدماء ، بحيث يطابق ما انتهى إلينا من أخبار الشاعر وأشعاره فإنا نصفه ، بالإضافة إلى قرشيته ، بأنه كان « مصعبي الهوى » ، فقد أحب مصعباً ، وأعجب بشجاعته ، ورأى فيه فتى قرشياً كريما ، ينتصر لقريش ، ويثأر لها من أعدائها . وإن كان ابن قيس قد وصف مصعبا بالملك في هذا البيت :

---

(١) انظر مقدمة الديوان المطبوع في فينا .

ملك يطعم الطعام ويسقى   لبن البخت في قصاع الخلنج

فإن هذا لايدل على إيمانه بالزبيريين وقضيتهم في السيادة والسلطان ، اللهم إلا إذا عد مديحه جميعاً لمصعب ، انتصاراً لآل الزبير ، وإيماناً بمذهبهم السياسي . وينبغي أن نلاحظ أنه في مديحه لبشر بن مروان . قد وصفه بالملك أيضاً فقال :

ملك وجهه طليق إلينا   حين نأتيه والعطاء جزيل

وفي مديح ابن قيس لعبدالملك . ظاهرة تحتاج إلى شيء من التفسير ، ونريد بها موقفه من الزبيريين ، بعد سقوط مصعب وانصاله بعبد الملك (١) ، وتتلخص هذه الظاهرة : في أن ابن قيس يحاول أن ينتزع نفسه من الزبيريين انتزاعا ، فيشير إلى قتال عبدالملك لهم وقضائه عليهم فيقول :

أحفظهم قومهم بباطلهم   حتى إذا حاربوهم حربوا
تجردوا يضربون باطلهم   بالحق حتى تبين الكذب

ويقول أيضاً من قصيدة أخرى :

لما رأوا بغي قومهم لهم   إذ قطعوا من شوابك الرحم
كانت حصونا لهم سيوفهم   وكل حامي الحفاظ مستلم

فهو يصف دعوة الزبيريين بالباطل ، ويبرر لقضاء عبد الملك عليهم . وقد يفهم من هذا أنه تغير على الزبيريين وخانهم ، ولكنا إذا اعتبرنا ما أحاط بالشاعر من ظروف سياسية قاسية ، كادت تودي بحياته . وكذلك ما استقر

(١) في الأغاني مايدل على أن صلته بالزبيريين بعد القضاء على عبدالله بن الزبير ظلت طيبة ، فقد روى أبوالفرج أن الشاعر لجأ إلى حمزة بن عبدالله ابن الزبير يسأله أن يعينه على تزويج بنين له ببنات أخيه، وقد رحب به حمزة وأجزل له في العطاء . انظر الأغاني (دار الكتب) : ٥/ ٩٣ - ١٤ .

في نفسه من الانتصار لقريش والدعوة لها ، أمكننا فهم مدائحه في الأمويين والتعليل لها ، فلم يكن بد لابن قيس – حين اتصل بالأمويين – من أن يمدحهم ، فقد استقر السلطان فيهم – وهم بيت من قريش – وانتهت تلك الحروب التي فرقت القرشيين شيعاً وأحزاباً . واستقرار السلطان في قريش ، هو ما كان يدعو الشاعر إليه ويتمناه . ونستطيع أن نضيف إلى ذلك أن الشاعر – فيما قاله في الدعوة لقريش ووحدتها – لم ينتصر لبيت من بيوتها ، وإنما كان أوسع أفقا من الزبيريين والأمويين والهاشميين : فكل منهم كان يتعصب لبيت من بيوتات قريش ، أما هو فيتعصب لقريش على العرب جميعا ويراها أحق القبائل بالسيادة والسلطان . وتظهر هذه النزعة القرشية في شعر ابن قيس في الأبيات التالية ، التي يرى فيها أن سيادة قريش لازمة لسلامة المسلمين ورعاية أمورهم :

إن تودّع من البلاد قريش ... لا يكن بعدهم لحيٍّ بقاءُ
لو تُقَفَّى وتترك الناس كانوا ... غنم الذئب غاب عنها الرِّعاء !

ونخلص من ذلك كله إلى القول : بأن ابن قيس الرقيات لم يكن شاعرا للزبيريين ، ولا شاعرا للأمويين ، على الرغم من اتصاله بهؤلاء وأولئك ، وإنما كان شاعرا لقريش كما يظهر ذلك في شعره ، وكما يقول به فريق من القدماء (١) .

---

(١) انظر الأغاني (ساسي) : ٣/٩٨ ، ٤/١٥٥ .

الفصل الثاني

شعر ابن قيس الرقيات
روايته وتوقيت قصائده

(١) روايـة شـعره

ليس في النسخ التى بين أيدينا من ديوان ابن قيس الرقيات إشارة إلى اسم راويها أو ناسخها (١) ، والإشارات التى ترد أحيانا ، والتى يمكن حملها على أبى عمرو الشيباني وابن الأعرابى — مما قد يوحى بأن هذه النسخة برواية السكرى عن أستاذه محمد بن حبيب البصرى — من الغموض بحيث لايصح الاعتماد عليها في استجلاء هذا الأمر ، وقد لاحظنا في هذه النسخة كثيرا من الخطأ والنقص ، سواء في رواية القصائد أو في نسبتها إلى أصحابها من الممدوحين ، مما يحمل على الشك في أنها — بصورتها تلك — من رواية السكرى عن محمد بن حبيب البصرى .

— ١ —

والقصائد الناقصة تحكمها ظاهرة معينة ، تتمثل في أنها جميعاً — إلا في حالات قليلة — غزل من هذا النوع الذى يمهد به الشعراء عادة لموضوعات قصائدهم ، بحيث لا يخلو الشاعر في هذه القصائد للغرض الأصيل الذى بنيت له القصيدة ، إلا في بيتين أو ثلاثة أبيات ، فقصيدته البائية (٢) في مديح مصعب ابن الزبير ، تتألف من ستة وعشرين بيتاً ، لم يستغرق فيها مديحه لمصعب سوى خمسة أبيات ، وأبياتها الأخرى غزل من هذا النوع القصصى . الذى كان يتخذه الشاعر وسيلة سياسية إلى نقد الأمويين وهجائهم . وكذلك لاميته (٣) في مديح بشر بن مروان ، تتألف من تسعة أبيات ، كلها غزل

(١) راجع وصف هذه النسخ في القسم الثانى من هذا الكتاب الذى يخلص لتحقيق شعره .

(٢) راجع القصيدة رقم ٤٨ من الديوان .

(٣) راجع القصيدة رقم ٥٧ من الديوان .

فيمن تسمى « سعدى » ، وقد مهد الشاعر بهذا الغزل لمديح بشر بن مروان في بيتين ، جاءا في ختام قصيدته .

ويحفظ ديوان الشاعر قصيدة له في مديح عبدالله بن جعفر ، ابتدأها بالغزل في « رقية » في ثمانية أبيات ، حتى إذا أخذ في مديح ابن جعفر لم يستغرق ذلك منه سوى بيتين ، يختم بهما قصيدته تلك ، فيقول(١) :

وابن أسماء خير من مسح الركـ ـن فعالا ، وخيرهم بنيانا
وإذا قيل: من هِجان(٢)قريش ، كنت أنت الفتى وأنت الهجانا !

وفي الديوان كثير من هذه القصائد الناقصة ، التى يطغى فيها الغزل على موضوع القصيدة ، وفيه كذلك كثير من المقطوعات التى ينصرف فيها الشاعر إلى الغزل الخالص ، والتى توحى قراءتها بأن عددا منها كان في الأصل مقدمات لقصائد كاملة ، لم يرو منها الديوان غير هذه الأبيات . وربما كان السبب في عناية القدماء برواية المقدمات الغزلية ، دون سائر أجزاء القصيدة ، تلك الرقة والعذوبة اللتين يمتاز بهما غزل ابن قيس الرقيات ، مما يجعل هذا الجزء من قصائده أحب إلى الناس من سائر الفنون الأخرى .

ومهما يكن ، فشيوع المقطوعات الغزلية الخالصة في هذا الديوان ظاهرة تسترعى النظر ، وعلى الأخص إذا اعتبرنا ما يقوله « ابن سلام » من أن ابن قيس كان يشبب ولا يصرخ ، ولم يكن له معقود شعر وغزل كغزل عمر بن أبى ربيعة (٣) .

---

(١) راجع القصيدة رقم ٦٢ من الديوان .

(٢) الهجان من كل شيء: خياره وخالصه

(٣) طبقات فحول الشعراء (تحقيق الأستاذ محمود شاكر) : ٥٣٠ .

ومعنى هذا أن التعليل لكثرة المقطوعات الغزلية الخالصة في شعره في ضوء مايقوله ابن سلام ، أن بعضها على الأقل . كان في الأصل مقدمات لقصائد في المديح ، أو في الهجاء ، أو غيرهما من فنون الشعر التي طرقها ابن قيس الرقيات .

وملاحظة ابن سلام في حد ذاتها خطيرة ، لأنها تضع أمامنا مشكلة غاية في الأهمية : يمكن تلخيصها في سؤال يحتاج إلى إجابة واضحة دقيقة ، كيف صدر صاحب الطبقات في حكمه على شعر ابن قيس الرقيات ؟ أكان ذلك نتيجة لنظر شامل متمعن في مجموع شعره ؟

الواقع أن الإجابة عن هذا السؤال - في ضوء ما يحتويه ديوان الشاعر الذى بين أيدينا - ليست في صالح ما يقوله ابن سلام ، فالديوان يحفل - إلى جانب شعر المديح والهجاء - بالمقطوعات الغزلية التى عقد بناؤها على الغزل وحده ، من غير أن يخلطها الشاعر بمديح أو هجاء . ومن ثم ، فلا تكون ملاحظة ابن سلام موضوعية بالنسبة لما وصل إلينا من شعر الشاعر .

وخطورة هذه الملاحظة ليست في أنها لا تصدق على ما في الديوان من شعر ، وإنما تتمثل خطورتها في : أن صاحب الطبقات ألف كتابه فيما بين سنة ١٣٩ وسنة ٢٣١ للهجرة(١) وديوان الشاعر الذى وصلنا - من مخطوطات القرن الخامس الهجرى برواية « أبى سعيد الحسن بن الحسين السكرى المتوفي سنة ٢٧٥ هـ ، - عن أبى جعفر محمد بن حبيب البصرى المتوفي سنة ٢٤٥هـ » ومعنى ذلك أن صاحب الطبقات ، وجامع الديوان كانا متعاصرين . وعلى الرغم من أنا لا نملك من الوثائق التاريخية ما يدل على اتصال أحدهما

(١) نفسه المقدمة : ١١

بالآخر (١) ، فإن نشأتهما متعاصرين ، واشتغالهما في ميدان واحد ، يجعلنا نعتقد — من الوجهة النظرية البحتة — أن ماوصل أحدهما من شعر ابن قيس الرقيات قد عرفه الآخر ، ولا سيما أن كليهما من العلماء المشهود لهم بالعناية بجمع النصوص وتدوينها . وربما كان صاحب الطبقات أسعد حظا في الاطلاع على شعر الشاعر ، فقد ولد في وقت مبكر يجعله أقرب عهداً بوفاة ابن قيس الذى يظهر أنه مات فيما بين ٨٤ ، ٨٧ للهجرة .

ومهما يكن ، فإنا نتحرج كثيراً في اتهام ابن سلام — هذا العالم الجليل — بالغفلة وعدم الدقة في الرواية ، ولا نستطيع التعليل لملاحظته إلا في ضوء مانعتقده من أن ديوان الشاعر الذى بين أيدينا لا يمثل كل ما كان معروفا — أيام ابن سلام — من شعره ، ومن هنا يصح أن تكون ملاحظة ابن سلام حكما صادقا على ما كان موجودا فعلا من شعر ابن قيس . ونظن ابن سلام في ملاحظته لا يعنى خلو الديوان من قصائد الغزل الخالص خلوا تاما ، فلم يكن ابن سلام ضيق الأفق إلى هذا الحد ، الذى تضيق فيه نظرته إلى شعر الشاعر ، فلا يرى فيه ما هو شائع معروف لدى الشعراء الحجازيين جميعا ، من نظم قصائد كاملة في الغزل الخالص . وإنما نعتقد أنه يريد أن يقرر شيئاً يشبه من قريب جداً ما قاله نوفل بن مساحق لسعيد بن المسيب حين أخذا يوازنان — في مسجد الرسول — بين غزل ابن قيس الرقيات وابن أبى ربيعة فقال(٢) : « صاحبنا (يعنى ابن أبى ربيعة) أشهر بالقول في الغزل . وصاحبكم (يعنى ابن قيس الرقيات) أكثر أفانين شعر » .

---

(١) عثرنا في طبقات فحول الشعراء على رواية واحدة نقلها ابن سلام عن محمد بن حبيب البصرى ، انظر الطبقات : ١٠٤

(٢) الأغانى (طبع دار الكتب : ١١٣/١ ، ٥ /٩٢ - ٩٣ ، وانظر كذلك : خزانه الأدب للبغدادى : ٤ /٤٨٧ ، فقد جاء فيها : « وسئل بعضهم في التميز بينه (ابن قيس) وبين عمر ابن أبى ربيعة ، فأجاب بأن ابن أبى ربيعة أشهر بالغزل وابن قيس أكثر أفانين شعر

ونتهى من هذا كله إلى الإقرار : بأن ما يلفتنا في غزل الشاعر ، ليس غزلا خالصا غير مخلوط بمديح أو هجاء ، وإنما يلفتنا فيه كثرة مقطوعاته ، وما يظهر على هذه المقطوعات الغزلية من نقص واضطراب ، يتمثل بوضوح في قلة ما تحتوى عليه من أبيات .

وفي الديوان — كما قلنا — أمثلة كثيرة تؤيد ما نذهب إليه : نذكر منها : مقطوعته التى يقول فيها :

إن النســـــاء إذا ينهـــــين عــن خلـــق
فكـــل ماقيـــل لاتفعلـــن مفعـــول

. . . .
. . . .

وليلـــة من جمــــادى قــد سريت بنـــا
والـــزق بيـــنى وبـــين الســرج معـــدول

وكذلك مقطوعته التى مطلعها :

لا تخــــافي أن تهجـــرى مـــابقينـــا
أنــت بـــالــود والكـــرامـــة أحـــرى

. . . .
. . . .

ونخلص من ذلك إلى القول : بأن طبيعة هذه المقطوعات الغزلية ، وكثرة عددها وقلة أبياتها ، توحى إلينا بأن الكثير منها كان في الأصل مقدمات لقصائد في المديح ، أو الهجاء أو غيرهما من فنون الشعر التى كان يطرقها ابن قيس الرقيات .

— ٢ —

ونقف وقفة جديدة عند طائفة أخرى من القصائد ، ليست أقل خطرا من سابقتها في تصوير ما أصاب الديوان من نقص وضياع ، ونريد بها هذه القصائد التي تبدأ بدءا يوحي بأنه ليس هو المطلع الأصيل الذى استهل به الشاعر قصيدته .

ولعل أهم ما يصور ما في هذه المطالع من غرابة ، قصيدته التي يمدح بها عبدالله بن جعفر ، ويبدؤها الديوان بقوله :

أتينــاك نثــنى بالـذى أنـت أهلــه
عليـك ، كمـا أثـنى على الروض جـارُهـا

تَقَـدَّتْ بى الشـهباءُ نحـو ابـنِ جعفـر
سـواءٌ عليهـا ليلهـا ونهـارُهـا

وكذلك قصيدته التي يمدح بها الخليفة الأموى عبدالملك بن مروان ، فالديوان يبتدىء روايتها بهذه الأبيات :

نت ابن مُعْتَلِجِ البطـا ... حِ كُـدَيِّهـا فكَدَائِهـا (١)
فـالبيـتِ ذى الأركـانِ فالْـ ... ـمُسْتَنِّ مـن بَطْحـائِهـا

ويروى الديوان للشاعر قصيدة يمدح بها عبدالعزيز بن مروان ، ويصف خروجه إلى الإسكندرية ورجوعه منها فيقول :

---

(١) انظر الديوان ١١٧

تَحَـــيٌّ مـــن أميـــَّـةَ لَيْـــــــــس في أخـــلاقهــم رَنَـــق

يكـــون لخـــابــط المعــــــــرو ف فـــــى واديهـــــــم ورق

ولست بحاجة إلى بيان ما في هذه المطالع من غرابة ، تتمثل في أنها تخلو من ذلك الغزل الذى تعود الشاعر أن يمهد به لموضوعات قصائده . وفي ديوانــه طائفة من القصائد التي يبدؤها بالغزل الخالص بدءا يطول في بعض الأحيان فيكاد يطغى على موضوع قصيدته (١) .

وليس لدينا في الحقيقة تعليل دقيق ينهض بتفسير هذا التباين الذى يظهر في استخدام الشاعر للغزل في قصائده ، غير ما أشرنا إليه من أن روايـــة الديوان لشعر الشاعر لم تكن تامة في كثير من الأحيان ، وآية ذلك أنا عثرنا – فيما رجعنا إليه من المصادر القديمة – على طائفة من شعره لم يذكرهـــا الديوان فيما رواه من شعر ، ومن بين هذه المجموعة قصائد كاملة تزيد في روايتها عما جاء في رواية الديوان ، ومن أمثلة ذلك قصيدته الرائية التي يمدح بها عبدالله بن جعفر ، والتي رواها الديوان في ثمانية أبيات ، ورواهـــا ابن عساكر في أحد عشر بيتا ، على خلاف في رواية الأبيات وترتيبهـــا (٢) . ويؤيد ما نذهب إليه أيضا قصيدته الهمزية – التي يمدح بها الخليفة الأمـــوى عبدالملك ابن مروان – والتي استهلها الديوان بقول الشاعر :

أنت ابـــن مُعْتَلِـــجِ البِطـــــا ح كُـــدَيِّهـــــا فكَـــدائِها

---

(١) انظر القصائد : ١٢ ، ٤٨ ، ٥٠ .

(٢) انظر تاريخ دمشق (مخطوط التمورية) : مجلد ٢٥ /٤٢٠ – ٤٢١ .

وقد عثرنا على مقدمتها الغزلية في كتاب الأغاني ، مروية في ثمانية أبيات(١) . ، وقد أضفناها إلى القصيدة فصار مطلعها :

أصحوت عن أم البنين وذكرها وعنائها

. . . .

وفي الديوان — بالإضافة إلى ذلك — طائفة من المقطوعات الشعرية ، التى تتألف من أبيات مفردة أحيانا ، أو من بيتين أو ثلاثة أبيات إلى خمسة أبيات أحيانا أخرى ، وهذه المقطوعات القصيرة ليست غزلا خالصا ، وليست مقدمات غزلية لقصائد ، ولكن يبدو أنها بقية من قصائد مفقودة ، فهى أبيات لا تستقيم معانيها . إلا مع صلة تتعلق بها ، وتعتمد عليها ، ومن أمثلة ذلك (٢) قوله للمختار الثقفي :

مصعب كان منك أمضى بعيدا حين يغشى القبائل الأنهارا

لو شددنا من ناظريه قليلا لبنينا من الرءوس منارا

وقوله :

وقومك لا تجهل عليهم ولا تكن

بهم هرشا ، تغتابهم وتقاتل

. . . .

وقوله :

ألا أبلغا عني الأصمَّ رسالةً

فإنكَ وابنَ القَرْمِ مُختلفانِ

---

(١) انظر الأغانى (ساسى) : ١١ /٤٧ – ٤٨ .

(٢) وراجع المقطوعات : ١٨ ، ٥٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٩ ، ٧١ ، . . . الخ

فـديتَ الكَسِـيرَ العَبشَمِيَّ من الـردى

ومـن عـاهَـةِ الأدواء والحَـدَثـانِ

ولا نحب أن نلح في التعليل لهذه الظاهرة . فليس من شك في أنها أثر من آثار النقص في رواية شعره ، ولكنا نذكر هذه الأبيات ، لنرى إلى أي مدى لا تستقيم معانيها إلا مع غيرهـا :

ألا أيهـا الضيـف الـذي يطلـب القِـرَى

وبيتـًا ، تحمـل ليس في داره عمـرُو !

وكـان أبـو أوفى إذا الضـيفُ نـابَـه ،

تُشَـبُّ لـه نـارٌ وتُنْضى لـه قِـدْرُ

فيمسى ويضحى الضيفُ شـبعان . والقـرى

حميـد ، ويبقـى بعـدها الحمـدُ والذكـرُ

— ٣ —

مظاهر الخطأ والشك فى نسبة قصائده :

وحين ندع هذه الملاحظات التي لخصنا فيها ما تتصف به قصائد الديوان ومقطوعاته من نقص واضطراب ، لا نتجاوز في الواقع ما نريد إلى إيضاحه والتدليل على وجوده وهو فساد الرواية ، والتواؤها في كثير من الأحيان ، ففى الديوان طائفة من الأخطاء التي وقع فيها جامع الديوان ، وهذه الأخطاء يمكن تقسيمها إلى قسمين :

أما الأولى ، فتتلخص فيما وقع فيه جامع الديوان ، من شك وخلط في نسبة بعض القصائد إلى الشاعر أحيانا ، وإلى غيره من الشعراء أحياناً أخرى .

وأما الأخرى ، فتتلخص فيما وقع فيه جامع الديوان أيضا ، من تخليط في نسبة بعض القصائد إلى أصحابها من الممدوحين ، الذين اتصل بهم ابن قيس ومدحهم .

وهذه ثلاثة نصوص ، قصيدة ومقطوعتان ، يشك السكرى في نسبتها إلى الشاعر ، وينسبها لغيره من الشعراء ، أما الأولى فقد رواها في ستة أبيات ، ونسبها لأبى العباس الأعمى :

ليت شعرى أفاح رائحةُ المسـ ... ـك ، وما إن إخال بالخَيْفِ أُنْسِي !
يوم غابت بنو أمية عنى ، ... والبهاليل من بنى عبد شمسِ
حلماء إذا الحلوم استخفت ... بوجوه مثل الدنانير مُلْسِ
خطباء على المنابر ، فرسا ... ن عليها ، وقالة غير خُرْسِ
لا يعابون صامتين ، وإن قا ... لوا أصابوا ، ولم يقولوا بلَبْسِ
ليلهم والنهار بذل إذا ما ... قحط القطر عن شتاء ويَبْسِ

وقد وردت هذه الأبيات في الأغاني (١) ونسبها – في قصة طريفة – إلى أبى العباس الأعمى ، في مديح مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية . وكان رحل لمديحه من مكة إلى الشام ، كما رواها الجاحظ في البيان والتبيين (٢) ونسبها كذلك إلى أبى العباس الأعمى في « بنى عبد شمس » . والأبيات – فيما نظن – ليست سوى جزء من قصيدة في مديح بنى أمية ، ومن المعروف أن أبا العباس الأعمى كان من شعراء الأمويين وشيعتهم ، وقد مدحهم كثيرا ، وهجا خصومهم من الزبيريين والهاشميين (٣) ، ومعروف أيضا أن ابن قيس الرقيات قد اتصل بالأمويين بعد القضاء على مصعب بن

(١) انظر الأغانى (ساسى) : ١٥ /٥٧

(٢) انظر البيان والتبيين : ١ /٢٣٢ .

(٣) انظر الأغانى (ساسى) : ١٥ /٥٧ – ٦١ ، الخزانة .

الزبير ، ومدحهم بالكثير الجيد من شعره ، وهذا كله يوقعنا في حيرة شديدة ، إذ كيف نعلل لنسبتها إلى أى من الشاعرين وكلاهما كان يمدح الأمويين ، وكلاهما عاصر ظروفا سياسية متشابهة ؟ وطبيعة الأبيات من الناحية الفنية ، ربما لا تسعفنا بشىء ، فهى مديح للأمويين بما نجده شائعا في شعر ابن قيس الرقيات ، وأبى العباس الأعمى وفي شعر غيرهم من شعراء الحزب الأموى ، من وصفهم بالحلم والفصاحة وطيب الرائحة ونضارة الوجه ، إلى آخر هذه الأوصاف ، التى شاع استخدامها في مديح الشعراء لبنى أمية .

ويكثر في ديوان ابن قيس أمثال هذه الأبيات ، التى يصف فيها الأمويين بالحلم والفصاحة ، كقوله لعبدالملك بن مروان (١) .

ما نَقِمُوا من بنى أمية إلاّ ... أنهم يحلمون إن غضبوا
وأنهم معدِنُ الملوكِ فما ... تَصْلُحُ إلا عليهم العَرَبُ
إن جلسوا لم تضق مجالسهم ... ولا يُعابون إن هم خَطَبُوا

ونجدما يشابهها من قريب جدا ، فيما وصلنا من شعر أبى العباس الأعمى في مديح الأمويين كقوله (٢) :

أبنى أمية لا أرى لكم ... شبها إذا ما التفت الشِّيَعُ :
سعة وأحلاما إذا نزعت ... أهل الحلوم فضرها النَّزَعُ ،
وحفيظة في كل نائبة ... شهباء لا يُنْهَى لها الرُّبَعُ
الله أعطاكم وإن رَغِمَتْ ... من ذاك أنف معاشرٍ رُفِعُوا

. . . .

(١) راجع قصائده التى قالها في عبدالملك وأخويه عبدالعزيز وبشر .

(٢) الأغانى (ساسى) : ١٥ /٥٨ — ٥٩

وننتهى من ذلك إلى تقرير حقيقة هامة : هى أن اشتراك المعاني بين هذه المقطوعة ، وما وصلنا من شعر ابن قيس الرقيات ، لا ينهض لتعليل نسبتها إليه . فالمعاني مشاعة بين الشعراء جميعا ، وبخاصة إذا كانت مديحا ، فالمديح باب واسع من أبواب الشعر التقليدى ، الذى فتحه شعراء العصر الجاهلى : من أمثال زهير والنابغة والحطيئة ، ونماه شعراء العصر الإسلامى من أمثـــال جرير والفرزدق والأخطل ، وقد درج الشعراء على استخدام معان بعينها ، من الممكن أن تجدها في قصائد المديح لدى مختلف الشعراء ، وهذه المعـــاني تدور في غالب الأحيان – حول الشجاعة والكرم والنجدة وطيب العنـــصر وعراقة الاصل . وأهم ما اختلف فيه الشعراء المادحون . هو أسلوب تناولهم لهذه المعاني ، وصياغتهم لها ، ومن ثم فلا نستطيع أن نفرق بين قصيدةوأخرى من شعر المديح ، إلا بما يسميه النقاد بالمذهب الشعرى للشاعر ، وهو مجموعة من الخصائص يتميزُ بها الشاعر في طريقة تناوله للمعاني ، وعرضه لهـــا .

وليس لدينا نصوص وافيه من شعر أبى العباس الأعمى في مديح الأمويين ، أو في غيرهم حتّى نقارنها بما وصلنا من شعر ابن قيس الرقيات ، لنحدد إلى أى مدى يختلف الشاعران في التعبير عن المعاني المشتركة وصياغتها ، كما أن هذه المقطوعة ، التى يشك جامع الديوان في نسبتها إلى ابن قيس ، وتنسبهـــا المصادر القديمة إلى أبى العباس الأعمى – لا تصلح وحدها لأن نقيم عـــلى أساس درسها ، والنظر فيها حكما فاصلا . لأنها قصيرة من جهة . وتظهر فيها خصائص شعر المديح لدى كل من الشاعرين من جهة أخرى . ولكنـــا نلاحظ أن هذه المقطوعة تمتاز بتنغيم موسيقى خاص ، لانجد شبها كبيرا لـــه فيما وصلنا من شعر ابن قيس . إذ تظهر فيها العنـــاية بالموسيقى الداخلية ، ونعنى بها ما تمتاز به الأبيات من مشاكلة صوتية بين الألفاظ بعضها وبعض من ناحية . وبين الألفاظ ومعانيها من ناحية أخرى . وإذن فإن ما يلفتنا في هذه المقطوعة . إنما يستقر في المادة والجسم ، وما به من سبك وخفة ورشاقـــة . وهذا الجانب الصوتي الداخلى لا يمكن قياسه بالعروض ، فالعروض إنمـــا

يستخدم لقياس الموسيقى الخارجية للشعر ، أما الموسيقى الداخلية ، فإنه يفشل في قياسها ، لأنها قيم صوتية داخلية يقصر في ضبطها ، وهى قيم لا تتكـــرر مقاطعها .

وهذه الموسيقى الداخلية التى تشيع أنغامها في هذه الأبيات يحكمها جانبان مهمان ، هما اختيار الكلمات وترتيبها ، ثم محاولة المشاكلة بين أصوات هذه الكلمات ومعانيها التى تدل عليها . وقد تحقق الجانب الأول — وهو اختيار الكلمات وترتيبها — في هذه الأبيات على نحو لا نجد له شبيها إلا في شعـــر شاعر ، شهر بالبراعة في تصوير هذا الجانب الموسيقى في شعره ، ونعنى به البحـــترى .

ويحس القارئ لهذه الأبيات بالاختيار والمهارة التى بذلها صاحبها في انتهاء الألفاظ ، وترتيبها بحيث تستوفي النغم الموسيقى ، وتنساب معه انسيابا ، لتقع في الآذان موقعا حسنا ، فألفاظها عذبة جميلة . وفي هذين البيتين ، تظهـــر براعته في اختيار الألفاظ الرشيقة ، ذوات الأصوات الجميلة ، والألـــوان الزاهيـــة :

ليت شـــعرى أفاح رائحة المســـك وما إن إخالُ بالخَيْفِ أُنْسِي ؟
يـــوم غابت بنـــو أُمَيّـــةَ عنى والبهَاليلُ من بنى عَبْدِ شَمْسِ

فأنت لا تستطيع أن تقرأهما إلا في مهل ، وتقطيع موسيقى ، كأنك تتذوق معانيهما تذوقا ماديا .

وقد استوفي الشاعر في مقطوعته المشاكلة بين اللفظ والمعنى ، وارتفـــع

بهما ارتفاعا غريبا عن شعر العصر الإسلامي : واقرأ هذه الأبيات التي جاءت في هذه المقطوعة :

حلمـــاء إذا الحلـــوم اســتخفت … بوجـــوه مثـــل الدنانـــير ملـــس
خطبـــاء على المنـــابر فرســـــا … ن عليهـــا ، وقالة غير خـــرس
لا يعابون صـــامتين ، وإن قالـــوا … أصـــابوا ، ولم يقـــولـــوا بلبس
ليلهـــم والنهـــار بذل إذا مـــــا … قحـــط القطـــر عن شتاء ويبس

فإنك تشعر أن الألفاظ تكاد تعبر بأنغامها عن معانيها ، وقد عرف الشاعر كيف يختارها ويلائم بينها ، حتى جعلنا نحس بهذا التنغيم الموسيقى الداخلى ، الذى كان من أهم ميزاته : أحكام القافية ، وربطها ربطا وثيقا بألفـــاظ البيت وكلماته .

وينبغي أن نلاحظ أن هذا اللون من الترف الموسيقى ، قد نما وازدهر في العصر العباسى ، وحمل لواءه البحترى ، ويظهر بوضوح في سينيته التى تشهه موسيقاها — إلى حد كبير — موسيقى هذه المقطوعة فيقول :

صُنْتُ نفسى عما يدنس نفســـى ، … وترفعت عن جـــدا كل جِبْسِ
بُلَغٌ من صبابة العيش عنـــدى : … طفَّفَتهـــا الأيام تطفيف بَخْسِ
وبعيـــد مابـــين وارد رفــــه ، … علـــل شربـــه ، ووارد خِمْسِ
حضرت رحـــلى الهموم فوجهـــ … ـــت إلى أبيض المـــدائن عَنْسِي
أتســـلى عن الحظـــوظ وآسى … لمحـــل من آل ساســـان درسِ !

ولم نعهد في شعره أو في شعر غيره في هذا العصر ، مثل هذا التنغيم الموسيقى على نحو ما تيسر للبحترى الشاعر العباسى ، وليس معنى ذلك أن شعر ابـــن

قيس يخلو من هذه الرقة والعذوبة ، التي تظهر في العناية باختيار ألفاظ هذه الأبيات ، وإنما نريد أن نقول : إن موسيقاها أكثر رقيا من موسيقى شعر ابن قيس الرقيات ، فإذا لاحظنا أن جميع المصادر تنسبها لأبي العباس الأعمى ، كان هذا داعيا للاطمئنان إلى هذه النسبة ، فعلى الرغم من أنه لم يصلنا من شعره مايعيننا على تفهم خصائصه الموسيقية ، إلا أن امتداد الحياة به إلى آخر الدولة العباسية (١) يجعلنا نعتقد بنسبتها إليه ، فما نشك في أنه قد استفاد كثيراً بالحضارات الوافدة .

— ٥ —

وأما المقطوعة الأولى فهي :

إن النساءَ إذا يُنْهَيْنَ عن خُلُقٍ ، فكلُّ ماقيلَ لاتَفْعَلْنَ مَفْعُولُ
وما وَعَدْنَكَ من شَرٍّ وَفَيْنَ به ، وما وَعَدْنَ منَ الخَيْرات تَضْليلُ !
إنَّ النسَاء كأشجارٍ نَبَتْنَ معـًا فيهن مُرٌّ ، وبعضُ النبتِ مأكولُ

وقد رواها الديوان ، ونسبها إلى ابن قيس ، ثم قال : « وهي تروى ليزيد بن الحكم طويلة » ، وقد بحثنا فيما لدينا من المصادر القديمة فلم نعثر على شيء من هذه الأبيات فيما نسب ليزيد من شعر ، ولكنا وجدنا بيتا واحدا يشبه من قريب جدا البيت الأول ، رواه العقد(٢) منسوبا إلى طفيل الغنوى ، وهو :

---

(١) انظر قصة هذه الأبيات في الأغاني « ساسى » : ١٥ /٥٨ ومابعدها .

(٢) العقد الفريد « دار الكتب » ٦ /١٢٧ ، وهو طفيل بن كعب الغنوى المشهور بطفيل الخيل ، شاعر جاهلي من الفحول المعدودين ويكنى أبا قران ، يقال إنه من أقدم شعراء قيس . الأغاني « ساسى » : ١٤ /٨٥ — ٨٧ .

إن النساء متى يُنْهَيْنَ عن خلق   فإنه واقع لابد مَفْعُول

وقد ورد هذا البيت كذلك ، وبيت آخر من هذه المقطوعة هو :

إن النساء كأشجار نَبَتْنَ معًا   منها المُرارُ وبعضُ النبتِ مأكولُ

ضمن أبيات نسبها ابن قتيبة لطفيل هذا . وهى (١) :

إنى وإن قل مالى ، لايفارقُنى
مثلُ النعامة في أوصالها طولُ
أو قارحٌ في الغُرابيّاتِ ذو نَسَبٍ ،
وفي الجِراء مسحُّ الشد إجْفِيلُ
إن النساء كأشجار نَبَتْنَ معًا ،
منها المُرارُ وبعضُ النبتِ مأكُولُ
إن النساء إذا ينهين عن خلق ،
فإنه واجبٌ لابدَّ مفعولُ

وينتهى بنا النظر في هذه المقطوعة ، إلى ملاحظة طائفة من الخصائص الفنية تميزها من غزل ابن قيس الرقيات ، فمن الواضح أن الأبيات غناء ، يصور فيه الشاعر حزنه وألمه ، كما يصور فيه هذا الفشل الذى فرض عليه في علاقته بالنساء ، وهذا اليأس الذى جاهده في علاقته الغرامية بهن .

وقد استأثر هذا الغناء الحزين بهذه المقطوعة ، فصور نفسا يائسة ، ساخطة ، يشعر صاحبها شعورا قويا مؤذيا بأن كرامته قد أهينت ، وبأنه قد ترك من أحب مغاضبا لها ساخطا عليها . وهذه الأزمة النفسية التى يعيش فيها صاحب الأبيات ، ليست سوى أزمة غرامية ، مردها إلى ما أصابه من فشل في الحب .

---

(١) الشعر والشعراء : ٢ / ٤٢٢ — ٤٢٣ وديوان طفيل ٥٧ — ٦١

أحال حياته إلى هذه الظلمة القائمة ، وانتهى به إلى السخط على النساء جميعا ، والثورة عليهن ، فهو يشكو النساء ، ويذكر مكرهن به ، وتنكرهن لـه ، وتألبهن عليه ، في شعر تظهر فيه الثورة والغضب . ولا تستطيع أن تجـد في كل ما قاله ابن قيس الرقيات من غزل — استسلم فيه للشكوى — شيئاً يقارب هذا اللون الساخط اليائس ، فابن قيس هادىء الطبع ، لين العريكـة ، وإذا غضب فهو لا يصطنع لغـة الغضب ، وإنما يصطنع لغة الشكوى في رقـة وعذوبة .

وقد شكا ابن قيس من النساء كثيراً ، ونَفَّسَ بالدعاء عليهن ، ولكنـا لانجد فيما قاله حقدا أو سخطا ، وانما نجد عتابا رقيقا ، يمتزج في أحيـان كثيرة بالدعاء عليهن ، بما يشبه أن يكون إقرارا بالعجز ، والظلم ورضـا بهما ، فهو يقول للنساء — وقد أنكرن شيب رأسه وكبر سنه — :

لا بـارَكَ اللهُ في الغـوانِـي فمـا
يُصْبِحْـنَ إلا لهُـنَّ مُطَّلَـبُ
أبصَـرْنَ شـيبـاً عـلا الـذُّؤا
بَـةَ في الـرأسِ حـديثـاً كأنـه العَطَـبُ
فهـن يُنكـرنَ مـا رأيـنَ ، ولا
يُعْـرَفُ لى في لِـداتِـيَ اللّعِـبُ
مـا ضَـرَّهـا لـو غـدا بحـاجَتِنـا
غـادٍ كـريمٌ أو زائِـرٌ جُنُـبُ ؟ !

. . . .

أرأيت أجمل من هذا العتاب ، وأبرع من هذا التصوير ، وأنفذ من هذه المعاني إلى ضمائر النساء وقلوبهن ، في ألفاظ حلوة لينة ، جزلة رصينة ، وهى لذلك ترضى غرور النساء ، ولا تؤذى شعورهن ؛ ولنستمع إليه يقول في « رقية » وقد هجرته :

رُقَــيّ بعمــــركـــم لا تهجـــرينـــــا ،
ومنينــــــا المــــنى ثـــم امطلينــــــــا
عــــدينـــــا في غـــد ماشـــــئت . إنــــا
نحـــب و لـــــو مطلـــــت الــواعــدينــــا !
فـــإمـــا تنجـــــزى عــــدتى ، وإمــــــا
تفـــين بمـــــا نؤمِّـــــل منـــك حينـــا

فهذا كلام سائغ اللفظ ، قريب المعنى ، ملائم أشد الملاءمة لأهواء النساء وعواطفهن ، وهو تصوير صادق ، لما يعتلج في قلوب المحبين من أهــواء، وما يضطرب في نفوسهم من عواطف — فابن قيس يطلب من رقية أن تعده ما شاءت ، ثم لا يطلب إليها أن تفي بما وعدت ، فكفاه أن يعيش على أمل الوفاء به حينا ، فيسعد ويفرح . ونحن لا نتصفح ديوان ابن قيس حتى نحس إحساسا عميقا بأن غزله في جملته من أرق الغزل في الشعر العربى القــديم ، وأنصعه لفظا ، وأعذبه موسيقى . وأعفه معنى ، وهو في جملته أيضاً ،يمتاز بروح هادئه ، ونفس كريمة ، يملؤها الحب والحنان ، ولعل في هذا ما يلفتنا إلى أن هذه الأبيات ، التى يشك الديوان في نسبتها إلى ابن قيس الرقيــات ، لا يمكن أن تنسب إليه فليس فيها — كما رأينا — شيء يشبه من قريب أو من بعيد ما ألفناه من تلك الروح السمحة الكريمــة ، التى تحكم غزل ابن قيس الرقيات جميعه ، فتحيله إلى مجموعة من العواطف تقطر رقة وعذوبة .

* * *

وفي الديوان مقطوعة من ثلاثة أبيات ، يشك جامعه في نسبتها لابن قيس ، وينسبها لابن هرمة ، وهى :

وقومك لا تجهل عليهم ولا تكن
بهم هرشا ، تغتابهم وتقاتل
فإن امرءاً في معشر غير قومه ،
ضعيف الكلام شخصه متضائل
إذا شاء لم يبسط لسانا ولا يدا ،
ولم تنب عن ذى صفحتيك المعابل

وعلى الرغم من أن تلك الأبيات الثلاثة لا تصلح لأن نقيم على أساس درسها ، والنظر فيها حكما فاصلا ، لأنها بقية من قصيدة ضائعة ، فإن ما تعبر عنه من دعوة إلى رعاية العشيرة ، والانتصار بها ، وعدم الخروج عليها ، يجعل من الممكن ترجيح نسبتها إلى ابن قيس ، ففى شعره ما يدل على حرصه على قومه ، وتعلقه بهم ، ونستطيع أن نجد في شعره مايشبه هذه الدعوة من قريب جداً في مثل قوله :

تقول سلمى : ألا تنام إذا ... نمنا ، فقلت : الهموم والأرق
تمنعنى ، وادكار نصر بنى ... عمى إذ حل جارى الرهق
يا سلم ! نأى الديار عن بلد الـ ... ـوالد ذل ورحبها ضيق
لو كان حولى بنو النويعم لم ... ينطق رجال أراهم نطقوا
. . . .
قد كنت في معشر أعزبهم ... في حلق من ورائهم حلق

ويقول وقد ارتحل عن فلسطين ، بعد أن نجا من أسر عمير بن الحباب السلمى :

إن قوم الفتى هم الكنز في دنـ ... ـياه والحال تسرع التقليبا

— ٦ —

وحين نمضى في درس هذا الشعر ، وتخريج نصوصه فيما لدينا من الكتب العربية القديمة ، سواء منها المخطوط والمطبوع ، نلحظ ظاهرة واضحة تمتد في رواية بعض هذا الشعر ، وتسيطر عليها ، وهى ظاهرة خطيرة حقـــا ، لأنها تلقى على دراستنا للديوان عبئا ثقيلا ، وتضع أمامنا طائفة من المشـاكل تحتاج إلى حلول مقنعة . وتتلخص هذه الظاهرة : في أن أصحاب هذه الكتب يشكون في نسبة بعض القصائد إلى ابن قيس ، ويضطربون في نسبتها إلى غيره من شعراء العصر الأموى ، وهذا الشك يعطل ما نريد إليه من توثيق نصوص هذا الديوان ، من حيث نسبتها إلى الشاعر — عن طريق تخريجها في هـــذه الكتب التى عنيت بروايتها .

وكانت بعض هذه المصادر القديمة تذكر المقطوعة الشعرية ، وتنسبهـا قولا واحدا إلى شاعر أو آخر من شعراء العصر الأموى ، من غير أن تشير إلى أنها قد تروى لابن قيس الرقيات ، في الوقت الذى تروى فيه هذه المقطوعة في ديوان الشاعر منسوبة إليه . وقد حاولنا — قدر ما أسعفتنا به المراجع القديمة التى بين أيدينا — أن نتتبع هذا الشعر ، الذى يروى لغيره من الشعراء في مظانة من الكتب والمجاميع الشعرية ، وأن نناقش هذه الروايات المتباينـــة ، التى تشك في نسبة هذا الشعر إليه .

وهذه مقطوعة من الغزل الخالص — رواها الديوان في تسعة أبيـــات — ومطلعهـــا :

ظعـن الأمـير بأحسن الخَلْقِ   وغـدا بلبـك مطلـع الشَّرْقِ

ومن يرجع إلى المصادر القديمة التى جاءت فيها هـــذه الأبيات ، يجـد اضطرابا شديداً في نسبتها إلى شاعر بعينه ، فقد رواها أبو الفرج في مواضع

متفرقة في كتاب الأغاني . ونسبها إلى الحارث بن خالد المخزومى في عائشة بنت طلحة ، لما تزوجها مصعب بن الزبير ورحل بها إلى العراق (١) . ثم عاد فذكر – في رواية أخرى – أنها تنسب للحارث بن خالد في « حبابة » لما أخذها يزيد بن عبدالملك ورحل بها إلى الشام (٢) .

وروى صاحب « المردفات من قريش » أنها « لابن قيس الرقيات في سكينة بنت الحسين لما تزوجها مصعب بن الزبير . . . (وتنسب) للحارث بن خالد المخزومى حين خرج مصعب بعائشة بنت طلحة . . . ولرجل من ثقيف قالها في امرأة من ثقيف (٣) » .

ونحن مضطرون إزاء هذا الخلط في النسبة والرواية ، إلى أن نعتمد على وسائل فنية في تحقيق نسبتها ، فالعناية بالسند لا تسعفنا في تصحيح ما يصل إلينا من طريقه ، ولابد لنا من أن نتجاوز هذا النقد الخارجي إلى نقد داخلى ، يتناول النص الشعرى في لفظه ومعناه وعروضه وخصائصه الفنية .

والقصيدة كما رويت في الديوان وفي المصادر المذكورة ، تشخص – إلى حد بعيد – خصائص أسلوب الغزل في شعر ابن قيس الرقيات . فالشاعر ينسب صاحبته إلى قريش ، ويتخذ هذا النسب وسيلة إلى مديحها . وإعلان شأنها ، فيقول :

في البيت ذى الحسب الرفيع ومن
أهل التقى والبر والصدق
قرشية عبق العبير بها
عبق العبير بعاجة الحُقّ

---

(١) انظر الأغانى « ساسى » : ٣ /١٠٠ ، ٦ /٢٨ – ٣٠ ، ١٠ /٥٨ .

(٢) انظر الأغانى « ساسى » : ١٣ /١٤٥ – ١٥٠ .

(٣) المردفات من قريش « من مجموعة نوادر المخطوطات نشر عبدالسلام هارون » : ٦٥ – ٦٧

ونسبة صواحبه الى قبائلهن – وغالبا ما يكن قرشيات – ظاهرة شائعة فيما وصلنا من غزل ابن قيس ، ويكاد لا يخلو الغزل في معظم قصائده من امرأة يحرص على التعريف بها ، ويكون هذا التعريف بنسبتها إلى قبيلتها أو إلى أبيها أو إلى بلدها في بعض الأحيان ، وفي ديوانه أمثلة كثيرة تؤيد ما نذهب إليه من مثل قوله :

« كوفية نازح محلتها » . . . . ، « كثيرة أخت بنى الخزرج » . . . « بنت الحوارى مريما » ، « حسان مثل الدمى عبشميات . . . » ، « أعاتك بنت العبشمية عاتكا » ، « زيدية حلت الغرابة » ، « يا ابنة المالكى عزعلينا ».

وهذا الجانب من حرص ابن قيس على التعريف بصواحبه . لا يتوافر فيما وصلنا – على الأقل – من شعر الحارث المخزومى ، وبخاصة ما وصلنا من شعره في عائشة بنت طلحة ، فهو يكتفي بالتعبير عن حبه لها وشوقه إليها ، في عبارات قوية أخاذة ، من غير أن يسميها أو يضمن شيئا يدل عليها ، فهو مثلا يقول فيها (١) :

زعموا بأن البين بعد غد ، فالقلب مما أحدثوا يجف
والعين ، منذ أجد بينهم ، مثل الجمان دموعها تكف
ومثالها ودموعها سجم ، أقليلُ حنينك حين تنصرف
تشكو ونشكو ما أشتَّ بنا كل بوشك البين معترف !

وليس في هذه الأبيات كما ترى غير عبارات الحب والغرام ، وهى تتميز

(١) الأغانى « ساسى » ٣/١٠١ .

ـ من حيث أسلوبها في التعبير عما تناولته من معان وأفكار ـ من شعر ابن قيس الذى يصف فيه المرأة وصفا حسياً رائعاً ، يخلد فيه جمالها ، ويرسم فيه لون بشرتها وغالبا ما تكون بيضاء أو تشوب الصفرة بياضها ، وهى عظيمة العجيزة يفوح العطر من أردانها ، وهى تشبه القمر إذا كانت بيضاء ،وتشبه الشمس إذا خالط بياضها شيء من صفرة ، وهى امرأة مترفة تلبس خز العراق ، وتفوق أقرانها جمالا وتعلوهم حسباً وخلقا . وأنت واجد ذلك كله في سائر غزله . وفي قصيدته التى بين أيدينا ، فهى من حيث معانيها الغزلية لا تختلف في شيء عما نجده في غيرها من قصائده التى صحت نسبتها إليه ، فهو يصف صاحبته في هذه المقطوعة بقوله :

شَـبَّ البيـاض أمام صفرتهـا　　　في رقـة الديبـاج والعتـق

ويتردد هذا المعنى في شعره حين يريد الى وصف المرأة بالجمال ،أووصف ممدوحيه من الرجال ، بكرم الأصل وطيب العنصر ، فيستخدم لفظ البياض في التعبير عما يريد إليه من مثل قوله :

أمُّك بيضاءُ من قُضاعةَ في البَيْـ　　　ـتِ الذى يُسْتَظَلُّ في طُنُبِهْ

. . . .

يَخْلُفُكَ البيضُ من بَنيكَ كما　　　يَخْلُفُ عودُ النُّضار في شُعَبِهْ

وقـوله :

شَبَّتْ أمـامَ لِداتِهـا　　　بيضـاء سـابغـة الغَـديرَهْ

وقـوله :

فتاتان بَيْضاوان بالحسن راقَتَـا　　　على ساكن الدنيا بَنانـًا ومَبْسَمَا

وهو يصفها بطيب الرائحة في قوله :

قُرَشية عَبِقَ العبيرُ بها   عَبَقَ العبيرِ بعاجَةِ الحُقِّ

ويكثر ورود هذا المعنى في غزله من مثل قوله :

أوقدتْها بالمسك والعنبر الرطـ   ـب فتاة قد ضاق عنها الإزار

وقوله :

مغدودن جمعت ذوائبها ،   بالمسك حُقَّ مجيدة الجمع

* * *

أقبلت أمشي إلى رحالهم   في نفحة من ريحها الأرج

* * *

جنية خرجت لتقتلنا   مطلية الأقراب بالمسك

ونعود فنلاحظ من طرف آخر ، أن ابن قيس كان يحتفل في شعره باستخدام ألفاظ بعينها ، وهذه الألفاظ على الرغم من أنها قد تشخص بعض خصائص شعره من حيث طرائقه في التعبير عن المعاني ، وبعبارة أوضح قد تعطينا صورة واضحة عن طريقته في بناء جمله الشعرية . إلا أن عنايته بهذه الألفاظ . ورعايته لها لم يكن عملا مقصوداً ، وإنما الأمر لا يعدو ما يعبر عنه النقاد المحدثون « بمعجم ألفاظ الشاعر » ، ويريدون به ما يختص به الشاعر لغته من تداول ألفاظ بعينها ، لوضوح معانيها وتحددها في ذهنه ، ولانستطيع أن نعلل لذلك ، فلكل شاعر طريقته الخاصة في انتقاء ألفاظه . سواء أكان ذلك عن قصد أو غير قصد . ولا نحب أن نستطرد في درس هذه الظاهرة الفنية والتعليل لها ، وإنما نخلص إلى أن من بين الألفاظ التي ظفرت برعاية الشاعر فكثر ورودها في شعره ، كلمة «العبق» يعبر بها عن طيب تلك الرائحة

التي كانت تفوح دائما من أردان صواحبه ، فهو يقول في هذه المقطوعة التي بين أيدينا :

قرشـيـة عَبِـق العبـيرُ بهـا عَبَـقَ العبيرِ بعاجـةِ الحُقِّ

ويقول في غيرها من القصائد :

فـوقَ الجلـودِ يفـوحُ من أردانهـا عَبَـقُ الذَّريـرَهْ

* * *

منهـم سـليمى وجارتـان لهـا والمسكُ من جَيْبِ دِرْعِها عَبِقُ

* * *

إن يَلْبَسُوا مِلْ حَدِيدِ تَحْسَبُهم جُرْباً بهـا من هِنائها عَبَـقُ

* * *

وَحِـلاً في اللَّحْمِ مِئْزَرُه ، عَبِقـاً بالطيـبِ مُخْتَلَقـا

وكلمة « برازق » التي وردت في هذا البيت .

مَرَّتْ على قَـرْنٍ يُقادُ بهـا جمـلٌ أمـامَ بَـرازِقٍ زُرْقَ

من الكلمات التي تردد في شعره من مثل قوله :

برازِيقـاً تَمُـرُّ مُسَوَّماتٍ ، وأَلْوِيَةً تَنُـول إلى لِـواءِ

* *

كأنَّ مُجَفَّفاتِ الخيـلِ فيـه إذا مَرَّتْ ، بَرازِيقـاً فُيُـولُ

وفي القصيدة ظاهرة نحوية يكثر وجودها في شعر الشاعر ، ويمكن اعتبارها — من وجهة النظر النقدية — من خصائص لغته التي تتميز بها ،ونعني بها ما يدخله على الهمزة من حذف وتسهيل وقطع ، مخالفا بذلك ما تقتضيه قواعد النحو في بعض الأحيان ، فهو يقول من هذه القصيدة :

وتنـــو فتثقلهـــا عجيزتهـــا نهـــض الضعيف ينـــوء بالوســـق

وليس تخفيف همزة « تنوء » في هذا البيت عملا عارضا ، وإنما هو كثير شائع الوقوع في شعره كما قلنا ، ويمكننا أن نجد في شعره أمثال هـــــذه التعبيرات : « كالاقحوان مراته» ، « حيِّ لاختيْن قد أحمّ الفراق» ، « إن الخليط قد ازمعوا تركى » ،« لوانا نستطيع لزاركم » .«وكل حامى الحفاظ مستلم » ، « وقد اوروا بها عودا » .

وما عرضنا لوصفه من تلك الخصائص المشتركة بين هذه القصيدة ومـــا وصلنا من شعره ، يحملنا على ترجيح نسبتها إليه . وبخاصة أن خصـــــائص أسلوب الغزل في شعر الحارث المخزومى مخالفة أشد المخالفة لما عرضنا له ، ولما تمتاز به هذه القصيدة من طرائق التعبير . واستخدام ألفاظ وعبـــارات للتعبير عن معان بعينها ، يكثر وجودها في شعر ابن قيس . ونكاد لانجد لهـــا نظيرا في شعر الحارث هذا .

ولا أحب أن أطيل فأعرض نماذج من شعر الحـــارث ، وإنمـــا نكتفى بالمقطوعة التى سبق أن عرضنا لها ، والتى ثبت أنه وجهها في عائشة بنت طلحة وقد رأينا إلى أى مدى تخالف في أسلوبها وعباراتها وألفاظها وموسيقاهـــا ، ما ألفناه من هذه القصيدة التى نسبت إليه . ولعل ما وصلنا من أخبار الحارث هذا ، وحبه لعائشة بنت طلحة يعلل ما وقع فيه الرواة من خلط في نسبة هذه القصيدة إليه ، فمن المعروف أن الحارث كان يهوى عائشة ويشبب بها في شعره ، ولكنا نعرف أنه لم يكن زبيرى الهوى ، وإنما كان مشايعاً لبـــنى أمية (١) ، ومن غير المعقول أن ينسب بعائشة في قصيدة يسمى فيها مصعبا بالأمير !

---

(١) انظر الأغانى « ساسى » : ٣/٩٩ ، خزانة الأدب للبغدادى : ١/٢١٧ .

وننتهى من ذلك كله إلى ترجيح نسبتها لابن قيس في سكينة بنت الحسين لما تزوجها مصعب بن الزبير (١) .

— ٧ —

وفي الديوان مقطوعة أخرى رواها لابن قيس في ستة أبيات ، وانصرف فيها الشاعر إلى الغزل الخالص ، وهى التى مطلعها :

هــل بادّكــارِ الحبيــب من حَــــرَجِ ،
أم هــل لهــمِّ الفُــــؤادِ من فَــرَجِ ؟ !

وقد اضطربت المصادر القديمة في نسبة هذه الأبيات لقائلها، فقد روى(٢) أبو الفرج الأصبهاني الأبيات الأربعــة الأولى ، ونسبها لجعفر بن الزبــير ابن العوام، ولكنه عاد فأشار – في موضع آخر – إلى الخلاف في نسبتهــا إليه ، أو لعمر بن أبى ربيعة ،أو للأحوص ، أو للعرجى ، فقال :

« ولجعفر شعر كثير قد نحل عمر بن أبي ربيعة بعضه ودخل في شعره ، فالأبيات التى ذكر فيها الغناء فمن الناس من يرويها لعمر بن أبي ربيعــة ، ومنهم من يرويها للأحوص أو للعرجى ، وقد أنشدنيها جماعة من أصحابنا لجعفر بن الزبير . . . . » (٣) . ثم ذكر أبو الفرج ،أن جعفرا اقالها في خزاعية كان تزوجها (٤) ، وكأنه بذلك يرجح نسبتها إليه . وقد رواها

---

(١) انظر المردفات من قريش « من مجموعة نوادر المخطوطات » : ٦٥ – ٦٦ .

(٢) انظر الأغانى « ساسى » ١٣ / ١٠٠ .

(٣) المصدر نفسه : ١٣ /١٠٢ .

(٤) المصدر نفسه : ١٣ /١٠٢ .

ياقوت في معجم البلدان (١) منسوبة لجعفر بن الزبير ، « وقيل عبد الله بن قيس الرقيات » ، كما رواها ابن قتيبة (٢) ونسبها للعرجى ، « ويقال هو لجعفر ابن الزبير » .

وليس لدينا ما نرجح به إحدى هذه الروايات ، فالأبيات غزل خالص ، والذين نسبت إليهم شعراء غَزِلون حجازيون ، كانوا جميعا يخضعون لمؤثرات حضارية واجتماعية متشابهة ، وقد نشأوا في ظروف سياسية واقتصادية معينة ، وقد كانت من غير شك — لكل من هؤلاء الشعراء الحجازيين شخصيته الغزلية ، التي تجعل لشعره طابعا معينا يتميز به عن بقية الشعراء ، ولكن هذه الأبيات تكاد لا تصور — فيما نعتقد — مذهبا من هذه المذاهب ، ولذلك نجد من الصعب أن نجزم بنسبتها لشاعر بعينه — وكل ما نلاحظه أنها لا تلتئم — من حيث معانيها — مع طبيعة شعر العرجي أو الأحوص ، فكلاهما شاعر غَزِل ، كان يذكر في غزله من المعاني والأخبار ، ما يؤذى النفس الكريمة في كثير من الأحيان .

والذين يقرؤون هذه الأبيات ، يلاحظون أنها تمتاز برقة وعذوبة تشبه ما ألفناه من شعر ابن قيس ، كما يظهر لهم هذا الخيال المادى الذى يعتمد على الحس ، حين يأخذ الشاعر في وصف صاحبته ، والتعبير عن جمالها وطيب رائحتها ، فيقول :

أقبلت أمشي إلى رحالهم ... في نفحة نحو ريحها الأرِجِ
تَهْوِى يداها بشَفّ زينتِها ... يُصمِّتُنِي صوتُ حَلْيِها الهَزِجِ

(١) انظر معجم البلدان « طبع ليبزج » : ١ /٣٠ .

(٢) الشعر والشعراء « تحقيق أحمد شاكر » : ٢ /٥٥٨ .

تَشِفُّ عن واضحٍ إذا سَفَرَتْ   ليسَ بذي آمَةٍ ولا سَمِجِ

ولا نحب أن نلح في بيان ما في هذه المقطوعة من أوصاف ومعان قريبة الشبه بما نجده في غزل ابن قيس، من لقاء صاحبته في الحج ووصفها بطيب الرائحة وجمال الوجه، فسوف نجد أنفسنا مضطرين – تحت تأثير هذه العناصر المشتركة – إلى ترجيح نسبتها إليه، ولكنا نحب أن نذكر أن سند الرواية(١) التى استقى منها أبو الفرج هذه الأبيات منسوبة لجعفر بن الزبير، هو نفسه المصدر الذى استقى منه روايته التى ألحت في نسبة المقطوعة التى درسناها فيما سبق إلى الحارث المخزومى، وقد رأينا مقدار فساد هذه الرواية، وتخليطها. ومهما يكن فإننا لا نستطيع أن نقلل من أهمية هذه العناصر المشتركة، التى يتردد صداها في هذه المقطوعة، كما يتردد في غيرها من المقطوعات الأخرى التى صحت نسبتها إليه، ولذلك فإنا نفترض نسبتها لابن قيس الرقيات، على أساس ما جاء في رواية الديوان منسوبة إليه، وما تمتاز به من عناصر فنية تقربها من شعره، وتعد – من وجهة النظر النقدية – وسيلة من وسائل تحقيق النصوص، وتصحيح نسبتها إلى قائليها.

– ٨ –

وهناك مقطوعة أخرى يرويها الديوان في تسعة أبيات، ويتغزل فيها الشاعر فيمن تسمى كثيرة، وهى امرأة يتردد ذكرها في شعره بما يوحى بأنها ترتبط

(١) كان حبيب بن نصر أحد الذين حدثوا أبا الفرج بهذه الأبيات منسوبة لجعفر هذا (الأغانى «ساسى» : ١٣ / ١٠٢)، وكان كذلك أحد من حدثوه بنسبة الأبيات التى قيلت في عائشة بنت طلحة إلى الحارث المخزومى (الأغانى «ساسى» : ٣ / ١٠٠).

معه برباط قوى من الصداقة ، وله معها قصة طريفة رواها أبو الفــــرج في كتاب الأغاني (١) ، وهذه المقطوعة هى التى يقول فيها :

شـــب بالعـــال من كثيرة نـــار   شـــوقتنا وأين منـــا المـــزار
أوقدتهـــا بالمســـك والعنبر الرطـــ   ـــب ، فتاة قد ضاق عنها الإزار
. . . .

وقد روى أبو الفرج في الأغاني بيتين من هذه المقطوعة هما :

لاح بالـــدير من أمامـــة نـــار   لمحـــب لـــه بيـــثرب دار
قد تراها ، ولو تشاء ، من القـــر   ب لأغنـــاك عن نـــداها السرار

ثم قال : « الشعر للأحوص ويقال إنـــه لعبد الرحمن بن حســـان بن ثابت (٢) » .

وواضح أن صاحب الأغاني قد خلط في روايته للبيت الأول بين شطرين لبيتين من هذه المقطوعة هما :

شـــب بالعـــال من كثيرة نـــار   شـــوقتنا وأين منـــا المـــزار
. . . .
تـــلك نـــار لهـــا أضـــاء سناهـــا   لمحـــب لـــه بيـــثرب دار

مع تغيير في شطر البيت الأول .

وفي نسبة هذه الأبيات للأحوص ، أو لعبدالرحمن بن حسان بن ثابت خلط واضطراب ، فلا نعرف لواحد من هذين الشاعرين غزلا في كثيرة ،

---

(١) انظر الأغانى « دار الكتب » : ٥ /٧٦ — ٧٧ ، ٨٤ — ٨٥ .

(٢) المصدر نفسه « ساسى » : ٤ /١٧٢ .

أو في امرأة تسمى باسمها، فضلا عن أن المقطوعة – كما وردت في الديوان – تمثل – بصورة واضحة – مذهب ابن قيس في الغزل، ذلك المذهب الذى أشرنا إليه، والذى من أهم خصائصه : أن الخيال فيه يخضع للحس، ويستعير منه عناصر بناء الصور الشعرية وتأليفها .

ولن نكرر ما سبق أن سقناه في وصف هذا المذهب، كما يتمثل في هذه المقطوعة الغزلية، لنتدلل على صحة ما نذهب إليه، بل نكتفى بالنظر في هذه الأبيات التى يقول فيها – واصفا صاحبته – :

أوقدَتْها بالمسك والعنبرِ الرَّطْـ ـبِ فتاة قد ضاق عنها الإزارُ

ويقيها الحريرُ من وَهَجِ الشمـ ـسِ وخزُّ العراقِ والأَسْتارُ(١)

أطْلِقِيِ إذ مَلَكْتِنِي ثم فُكِّـي عن أسيرٍ عانٍ براه الإِسارُ

ففيها صورة واضحة المعالم لصاحبة الشاعر، كما تظهر في هذه المقطوعة، وفي سائر غزله، من وصفها بطيب الرائحة والرفاهة والغنى، ومن التذلل لها، والإلحاح في طلب نوالها، وهذا يجعلنا نشكّ فيما يقوله أبو الفرج، في نسبة هذه الأبيات إلى غير ابن قيس .

– ٩ –

ونعرض الآن لأخطاء وقع فيها جامع الديوان، في نسبته بعض القصائد إلى غير أصحابها من الممدوحين . ونلاحظ أن هذه الأخطاء ليست من هذا النوع الذى يقع فيه النساخ، والذى يمكن اعتباره من تصحيفاتهم، وإنما هى أخطاء علمية – إن صح ما نذهب إليه – وهى في الواقع من صنع الرواة وتخليطهم .

وهذه الأخطاء ذات أهمية كبرى، لأنها تضع أمامنا مشكلة غاية في

(١) في الديوان ٢٣ «تقي بالحرير» وعليه تكون القافيه مكسورة، فيقع الإقواء . وماأثبتناه عن حاشية في أصل الديوان قال : «وهو أجود» .

الخطورة ، تتصل بقيمة ما عرف من أن الديوان برواية « أبى سعيد السكرى عن أبى جعفر محمد بن حبيب البصرى » . مما سوف نعرض لمناقشـته في الصفحات التالية .

وأما القصيدة الأولى التى يضطرب جامع الديوان في نسبتها إلى صاحبها من الممدوحين فهى الميمية ، التى وجهها في مديح عبدالملك بن مروان . وقد عنون لها جامع الديوان بقوله (١) : « وقال ابن قيس يمدح عبد العزيز بن مروان » . والدراسة الفنية لهذه القصيدة تنتهى بنا إلى طائفة من الملاحظات تعتبر ذات أهمية كبيرة في تصحيح هذا الخطأ الذى وقع فيه جامع الدايون ، فيتضح من سياق المعاني في القصيدة جميعها أنها تنصرف إلى مديح خلفاء بنى الحكم في دمشق (٢) فيقول :

أحـلّك الله والخليفـة بالغـو ... طـة ، دارا بهـا بنـو الحكـم
المـانعو الجـار أن يضـام فمـا ... جـار دعـا فيهـم بمهتضـم
والوارثو منـبر الخـلافة والـ ... ـموفون عند العهـود بالذمـم

وقد تخير الشاعر من هؤلاء الخلفاء واحدا . وصفه بأنه « إمام الهـدى » وصاحب الأيادى العظيمة عليه ،ولعله يريد بذلك ما أصاب من عفو عبدالملك ابن مروان على يدى عبدالله بن جعفر ، فقال :

منهم إمـام الهـدى لـه نعـم ... عنـدى وأيـد تصوب بالديّم
خليفـة يقتـدى بسـنته ... في إرث مجـد الـثراء والكـرم
. . . .

---

(١) انظر القصيدة رقم ٢ من الديوان .

(٢) الأبيات من ٨ – ١٦ من نفس القصيدة .

ونلاحظ أن الشاعر حين يأخذ في مديح الخليفة ، يصفه بأنه أخمد تلك الفتن التي أثارها فريق من قومه ، وقطّعوا فيها من « شوابك الرحم(١) » وهو يعني تلك الحروب التي هاجت بين الزبيريين والأمويين ، والتي استطاع عبدالملك أن يقضي فيها على معارضيه من آل الزبير في وقعتين شهيرتين ، الأولى : وقعة « دير الجاثليق » التي قتل فيها مصعبا ، والأخرى : حصاره لمكة ، وقتله عبدالله بن الزبير ، فيقول :

لمّا رأوا بغي قومهم لهم إذ قطّعوا من شوابك الرحم

كانت حصونا لهم سيوفهم وكل حامي الحفاظ مستلم

ويستطرد الشاعر فيكرر مديحه لهذا الخليفة وأسرته ، ويكرر الثناء على سماحته وكرمه (٢) ، ثم يختم قصيدته بهذا البيت :

وأنت للصيد من ملوكهم البـ ـانين للمجد ثابت الدعم

وهذا كله فيما نرى لا يقال لعبدالعزيز بن مروان ، فلم يكن خليفة ،وإنما يقال للخليفة الأموى عبدالملك بن مروان .

وربما كان البيت الخامس والعشرون أهم دليل نعلل به لهذا الرأى ، فالشاعر يمدح الخليفة الأموى بقوله :

بيتا معدٍّ تكنّفاك إلى ذروة مجد مشرف سنم

وهذا يدل على أن القصيدة في مديح عبدالملك ، فأمه عائشة بنت معاوية ابن المغيرة(٣) من بني أمية ، وأما عبدالعزيز بن مروان فأمه ليلى بنت زبّان

---

(١) الأبيات من ٢١ — ٢٣ من القصيدة .

(٢) راجع الأبيات من ٢٦ — ٣٣ .

(٣) انظر نسب قريش : ١٦٠ ، جمهرة أنساب العرب لابن حزم : ٨٧ .

ابن الأصبغ ، وهي قضاعية من كلب من عرب الجنوب (١) .

— ١٠ —

وقد عنون جامع الديوان لقصيدته الهمزية بقوله : « وقال ابن قيس وخرج إلى عبدالله بن الزبير رحمه الله (٢) وافداً » ، ومطلعها :

أنت ابن معتلج البطاح كُدَيِّها فكَدائِها

ومن الطريف أن العنوان لا يؤيده ما جاء في القصيدة ، فهو مديح لعبدالملك (٣) بن مروان ، وليست في عبدالله بن الزبير ، ذلك أن الشاعر ينسب ممدوحه إلى الشرفاء من قريش ، الذين كانوا يسكنون وادى مكة الداخلي حيث توجد الكعبة ، فهو إذن ينتسب من جهة أبيه وأمه إلى صفوة قريش ، فتجتمع فيه خير صفات القبيلة فيقول :

أو في قريش بالعلا
في حكمها وقضائها
وأشدها آخية
في عزها وثرائها
وأمدها عند العلا
كفا بحبل رشائها

---

(١) انظر المصدر نفسه

(٢) القصيدة رقم ٤٧ .

(٣) وانظر البلاذرى في أنساب الأشراف « المطبوع » : ١١ /١٥٢ ، العقد الفريد « دار الكتب » : ٤ /٣٩٩ ، الأغاني « ساسى » : ١١ /٤٨ ، الموشح للمرزباني : ١٨٦ ، نسب قريش : ١٧٣ ، وتاريخ الأمم والملوك « التجارية » : ٥ /٢١١ فقد رووا جميعا بعض أبيات القصيدة ونسبوها لابن قيس الرقيات في الخليفة الأموى عبدالملك بن مروان .

وحين يأخذ الشاعر في التدليل على عراقة نسب هذا الممدوح ، لايجد بُدّاً من أن يتناول أمــه فيذكرها ، ويذكر نسبها ، كمـا يفعل في قصائـده الأخرى (١) ، فيقول :

ولــدتــك عــائشـــة الــتي
فضـــلت أزوم نســـائهـــا
متعطـــف الأعيـــاص حــو
ل سريـــرهـــا وفنـــائهـــا

وواضح أنه يريد عائشة بنت معاوية بن أمية ، وهي (٢) أم عبدالملك ابن مروان الخليفة الأموي . وأما عبدالله بن الزبير فأمه أسماء بنت أبي بكر ، ويريد الشاعر بالأعياص المتعطفين حول سريرها ، أربعة من أجدادهــا من أبناء أمية الأكبر بن عبد شمس ، وهم : العاصي وأبو العاصي والعيــص والعويص (٣) .

وروى الديوان هذه القصيدة من غير أن يذكر مقدمتها الغزلية ، وقــد عثرنا في الأغاني (٤) على هذه المقدمة ، مروية في ثمانية أبيات وهي :

---

(١) راجع مدائحه في عبدالملك وأخويه عبدالعزيز وبشر .

(٢) انظر نسب قريش : ١٧٣ ، أنساب الأشراف « المطبوع » : ١١ /١٥٢ ، الأغاني «ساسي» : ١١ /٤٨ .

(٣) انظر الأغاني « ساسي » : ١ /٨ ، ونسب قريش : ٩٨ – ٩٩ . وراجع الديوان فقــد نقل ناسخ الديوان في حاشية الأصل المخطوط تعليقا على هذا البيت هو : « حاشية خ : الأعياص من قريش : أولاد أمية بن عبد شمس الاكبر ، وهم : العاص ، وأبـو العاص ، والعيص ، وأبو العيص .

(٤) انظر الأغاني « ساسي » : ١١ /٤٧ – ٤٨ .

أصحوت عن أم البنين وذكرها وعنائها
وهجرتها هجر امرئ لم يقل صفو صفائها
قرشية كالشمس أشرق نورها ببهائها
زادت على البيض الحسا ن بحسنها ونقائها
لما اسبكرت للشبا ب وقنّعت بردائها
لم تلتفت للداتها ومضت على غلوائها
لولا هوى أم البنين وحاجتي للقائها
قد قربت لي بغلة محبوسة لنجائها

والشاعر في هذه الأبيات ينسب بأم البنين زوج الوليد بن عبد الملك ،وهي – من حيث موقعها من القصيدة – لا تكون إلا مطلعاً لها ، فالشاعر لم يخرج على النمط التقليدي المتوارث ، وهو التقديم لقصائد المديح بأبيات من الغزل ، كانت تطول أحياناً فتكاد تطغى على موضوع القصيدة ، وتفوق أبياتها عدداً . وهذا اللون من الغزل لم يكن ليغضب الخليفة أو يثير الوليد ، فهو غزل يراد به إلى مديح المرأة بذكر فتنتها وبهائها ، وقد شهر عن الشاعر ولعه بالغزل في نساء ممدوحيه ، وكانوا يتقبلون ذلك منه (١) .

– ١١ –

وقد عنون جامع الديوان لإحدى قصائده في مديح مصعب بن الزبير بقوله : « وقال عبدالله يمدح مصعباً ، ويقال لبشر بن مروان » وهي قصيدته التي مطلعها :

ألا هزئت بنا قرشية يهتز موكبها

(١) الموشح : ١٨٦ .

ويفهم من ذلك أن جامع الديوان لا يعرف – على وجه دقيق – فيمن قيلت هذه القصيدة ، ولكنا على ضوء ما جاء في الغزل الذى قدم به لمديحه ، من أفكار نرجح بأن ابن قيس يوجهها في مديح مصعب بن الزبير (١) ، فالشاعر يمهد لمديحه بالغزل في أم البنين بنت عبدالعزيز بن مروان ، وزوج الوليد بن عبدالملك ، وليس من شك في أنه لوكان بشر هو ممدوح الشاعر في هذه القصيدة حقاً ، لكان من الممكن أن نقول إن أم البنين التى عمد الشاعر الى الغزل فيها على هذا النحو ليست بنت عبدالعزيز بن مروان ، ذلك أنه يقدم للغزل فيها بمقدمة غزلية ساخرة ، يرسم لزوجها صورة مزرية ، فيها سخرية وابتذال فيقول :

ومثلك قد لهوت بها تمام الحسن أعيَبُها
لها بعل غيور قا عد بالباب يحجبها
يراني هكذا أمشي فيوعدها ويضربها

ثم يقص – في عبث ظاهر – قصة لقائه بأم البنين ، واستجابتها له ، واتصاله بها ، على نحو خليق أن يؤذي أهلها من الأمويين ويغيظهم ، ومن المعروف أن الشاعر كان – في عهد ملازمته لمصعب – يختص نساء الأمويين بهذا اللون من الغزل الهجائي ، ويتخذه وسيلة سياسية لنقد الخليفة والنيل (٢) منه :

شربت بريقها حتى نهلت وبت أشربها
وبت ضجيعها جذلا ن تعجبني وأعجبها

---

(١) انظر الموشح للمرزباني : ١٥٠ ، ١٨٦ فقد روى منها أبياتا وذكر أنها في مديح مصعب بن الزبير .

(٢) سوف نعرض لذلك بالتفصيل في دراستنا لغزله

أعـالجهـا فتصـرعـنى فـأرضيهـا وأغضبهـا

ومهما يكن ، فإنه من غير المعقول أن يمدح ابن قيس الرقيات بشر بن مروان ، بقصيدة يهجو فيها ابنة أخيه ، ويتغزل فيها على هذا النحو المقذع .

- ١٢ -

وهذه قصيدة أخرى يمدح بها الشاعر صديقه عبدالله بن جعفر بـن أبي طالب (١) ، وقد أخطأ جامع الديوان فظن أن الشاعر يوجهها في مديح عبدالله ابن الزبير ، ومطلعها :

زودتْنَـا رقيَّـةُ الأحـزانا يـوم حـازت حمـولها سكرانا
رائحـات عشـية عن قُـدَيد واردات مـع الضحى عُسْفانـا

ويظهر أن جامع الديوان قد انخدع بما جاء في البيت التاسع من دعوة الشاعر لممدوحه بأمه أسماء في قوله :

وابـن أسـماء خـير من مسح الركن فعـالا وخـيرهم بنيـانا

ومن المعروف أن عبدالله بن جعفر ابن أسماء أيضاً ، فأمه أسماء بنت عميس بن معبد بن تيم (٢) . . . . وقد اختلط بذلك الأمر على جامع الديوان .

ونعتمد في تصحيحنا لهذا الخطأ على ملاحظتين هامتين : الأولى أن الشاعر لم يكن وثيق الصلة بعبدالله بن الزبير ، فلم يشر القدماء — فيما اطلعنا عليه

---

(١) جاء في إحدى حواشي الأصل المخطوط لديوان الشاعر : « ابن أسماء يعني عبدالله بن جعفر بن أبي طالب وأمه أسماء بنت عميس » .

(٢) انظر نسب قريش : ٨٠ .

من تآليفهم – إلى أنه مدح ابن الزبير ، في الوقت الذى نجدهم فيه يهتمون برواية كثير مما قاله في أخيه مصعب من المدائح والمراثي ، وقد رأينا فيما سبق (١) مقدار الزيف في نسبة هذه القصيدة التى ظن جامع الديوان أنه قالها في مديح عبدالعزيز بن مروان .

والملاحظة الأخرى أن ما قاله الشاعر في رقية إنما كان قبل اتصاله بالزبيريين ، وقبل رحيله إلى فلسطين ، فالعراق حيث مصعب ،وحيث شغل عن رقية ، والغزل فيها بالغزل السياسى في نساء الأمويين بعد ذلك في الشام .

ويؤيد ذلك ما نلاحظه من خلو قصائده التى ثبت أنه قالها في مديح الزبيريين أو الأمويين ، من الغزل في رقية والنسيب بها (٢) ، ومن المعروف أن صلة الشاعر بعبد الله بن جعفر أقدم بكثير من صلته بعبد الله بن الزبير وأخيه مصعب ، وقد دعاه بأمه أسماء في قصيدته العينية فقال :

ابن أسماء لا أبالك تعني إنه غير هالك نفّاعُ

وتظهر سمات النقص بوضوح في هذه القصيدة ، فقد تخير راويها المقدمة الغزلية واعتنى بها ، ولم يرو من المديح إلا بيتين اثنين جاءا في ختامها .

تحقيق رواية الديوان :

حاولنا في الصفحات السابقة أن نرسم للديوان صورة واضحة المعالم ، لما

---

(١) راجع ص ١١٤ من هذا البحث فقد عرضنا لهذا الخطأ الذى وقع فيه جامع الديوان وأثبتنا أن القصيدة في مديح عبدالملك بن مروان .

(٢) راجع القصائد ١ ، ٢ ، ٣ ، ٣٢ ، ٣٩ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٠ الخ وكذلك ما كتبناه عن صلته برقية هذه في هذا البحث ، وسوف نعرض لهذه الظاهرة بشيء من التفصيل عندما نتحدث عن غزله ، كما أننا سنعتمد عليها في توثيق قصائده التى قالها قبل اتصاله بالسياسة .

أصابه على أيدى الرواة من نقص في الرواية، وخلط في نسبة بعض النصوص إلى الشاعر ، أو إلى أصحابها من الممدوحين . وهذه الصورة المضطربة لما وصلنا من شعر ابن قيس الرقيات ، تضع أمامنا مشكلة هامة ، تتلخص في سؤال بسيط تتصل الإجابة عنه بما قدمناه من حديث : أحق أن الديوان برواية أبي سعيد السكرى عن ابن حبيب البصرى ، وبعبارة أدق أن هذا الديوان بصورته تلك هو نفس الديوان الذى رواه السكرى عن ابن حبيب، إن صح أنه جمع شعر ابن قيس ورواد ؟

ونحن ــ في ضوء ما قدمناه من ملاحظات على رواية هذا الديوان ، وما أخذناه على جامعه من أخطاء ــ لا نستطيع أن نقول بذلك ، بل نشك في أن تكون هذه النسخة التى بين أيدينا من ديوان ابن قيس ، برواية أبي سعيد السكرى عن أستاذه محمد بن حبيب. وليس معنى ذلك أنا نشك في أن يكون للشاعر ديوان برواية السكرى ، فقد ذكر ذلك صاحب الفهرست (١) حين عدد ما رواه السكرى من دواوين الشعراء، ولكن طبيعة هذه الأخطاء التى وقع فيها جامع الديوان، لا سيما ما يتصل منها بنسبة القصائد إلى غير أصحابها من الممدوحين ، تشككنا كثيرا في أن يكون صاحبها السكرى ، فمن المعروف أنه من العلماء الذين شهروا بمعرفتهم الوثيقة بأخبار العرب،وأنسابها وأيامها ، وقد استفاد كثيرا من هذه الثقافة التاريخية في تحقيق الشعروروايته، كما استفاد بها كثير ممن جاء بعده من الرواة الذين أخذوا عنه .

ومما لا يمكن أن نتصوره،أن السكرى ــ إذا صح أنه جامع الديوان ــ قد أخطأ في القصيدة الهائية التى مدح بها الشاعر الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان . فنسبها إلى ممدوحه عبدالله بن الزبير ، ولست أدرى كيف يسوغ لنا القول بأن هذا العالم الجليل، صاحب المعرفة الوثيقة بأنساب العرب

(١) انظر الفهرست « نشر المكتبة التجارية » : ٢٢٤ .

وأيامها (١) ، لم يكن يعرف أن عائشة التى جاء ذكرها في هذه القصيدةليست أم عبدالله بن الزبير فأمه أسماء ، وإنما هى أم الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان ؟

ونضيف إلى ذلك أنا عثرنا على طائفة من المقطوعات الشعرية ، لم ترد في ديوان الشاعر ، ويربو عدد أبياتها على مائتى بيت ، ومن المعروف أن السكرى من الرواة الذين كانوا يتتبعون أخبار الشعراء ويستقصون آثارهم ، وهو بحق كما وصفه ياقوت في معجمه فقال (٢) : « كان ثقة يُقْرِئ القُرْآن ، وانتشر عنه من كتب الأدب مالم ينتشر عن أحد من نُظَرائه ، وكان إذا جمع جمعاً فهو الغاية في الاستيعاب والكثرة » . ولست أدرى كيف نعلل لهذه الكثرة من النصوص التى عثرنا عليها في كتب القدماء ، ومن بينها مقطوعات طويلة لم يرومنها الديوان شيئا ، إلا أن يكون هذا الديوان من عمل راوٍ آخر غير السكرى ، الذى يصفه ياقوت بالاستيعاب والكثرة في جمع النصوص وتدوينها . ومن بين هذه الأدلة ما نلاحظه من خلاف بين نسخة الديوان التى بين أيدينا والنسخة التى أشار البغدادى (٣) إلى أنه أخذ منها ما في خزانته من شعر ابن قيس الرقيات ، فقد ساق البغدادى — في مجال دراساته النحوية — طائفة من شعر الشاعر لم يرد بعضها في ديوانه الذى بين أيدينا ، ولا فيما اطلعنا عليه من الكتب القديمة التى اهتم أصحابها بشعر ابن قيس وأخباره .

(١) انظر إنباه الرواة على أنباه النحاة « الطبعة الأولى » : ١ /٢٩٢ . وانظر ترجمته في معجم الأدباء « نشر وطبع الحلبى » : ٨ /٩٤ ، وتاريخ بغداد : ٢ /٢٩٦ ، والفهرست : ٧٨ ، ١٥٧ وغير ذلك من المصادر .

(٢) معجم الأدباء : ٨ /١٤ — ٩٥ .

(٣) انظر مقدمة خزانة الأدب للبغدادى : ١ /١٠ .

ونحب ـ قبل أن نأخذ في بيان هذه النصوص التى انفرد البغدادى بذكرها في خزانته ـ أن ننبه إلى أنها أبيات مفردة ، وهى من غير شك أبيات من قصائد لم تصلنا ، ومن هذه النصوص قوله (١) :

ليتنى ألقى رُقَيَّةَ في خلوة من غير مايَأس
كى لتقضينى رقية ما وعدتنى غير مُختَلَس

وهذان البيتان من قصيدته السينية التى لم يرومنها ديوانه سوى هذا البيت :

ياَلقوم عادني نكسى من عِداتِ البُدَّن الشُّمْس

وقوله (٢) :

والطير إن سار سارت فوق موكبه ، عوارفا أنه يسطو فيقريها

وقوله (٣) :

« رقية لا رقية أيها الرَّجُلُ »

وليست لهذه الأبيات قيمة فنية ، وإنما تتمثل قيمتها فيما تدل عليه من أن صاحب الخزانة ، قد استقاها من ديوان الشاعر الذى كان موجوداً لديه عندما ألف كتابه هذا .

---

(١) خزانة الأدب : ٣/ ٥٨٧ .
(٢) المصدر نفسه : ١/ ١٩٧ .
(٣) انظر خزانة الأدب : ٣/ ٢٦٦ .

وما دمنا في مجال التدليل على وجود هذا الخلاف بين نسختي الديوان ، ونعني بهما النسخة التي بين أيدينا ، والنسخة التي أخذ عنها البغدادي ، فإننا نذكر أن البغدادي قد روى(١) البيت الأول من القصيدة الثانية التي رثي بها الشاعر طلحة الطلحات وهو :

نَضَّرَ اللهُ أعظماً دَفَنوها بِسِجِسْتانَ ، طَلْحةِ الطَّلَحاتِ

ثم قال (٢) : والبيت أول قصيدة عدتها أربعة عشر بيتا لابن قيس الرقيات ، رثي بها طلحة الطلحات . وبالرجوع إلى نسخة الديوان التي بين أيدينا ، وجدنا أن عدة هذه القصيدة ستة عشر بيتاً . ويدل هذا على أن النسخة التي بين أيدينا لا تماثل تلك التي أخذ عنها البغدادي ، فمظاهر الاختلاف بين النسختين واضحة فيما ذكرناه من نصوص .

– ١٣ –

وتدل الطريقة التي استخدمها جامع الديوان على أنه استقى هذه النصوص من مصادر مختلفة ، ليس من بينها على أية حال أبو جعفر محمد بن حبيب البصري ، فلم يرد اسمه ضمن الرواة الذين كان يشار إليهم أحيانا عند شرح النصوص أو التقديم لها ، وذلك على الرغم مما جاء في صحيفة العنوان من أن هذه النسخة برواية السكري عن أستاذه ابن حبيب هذا . وقد عنون جامع الديوان لقصيدة الشاعر الرائية ، ومطلعها :

إن عهدي بهم غداة استقلوا

من فلسطين والدموع غزار !

---

(١) المصدر نفسه ٢ : ٣٩٥.

(٢) المصدر نفسه ٢ : ٣٩٥.

بقوله : «وقال عن أبى عمرو وحده» ، ولعله يريد أبا عمر الشيباني(١) ، وكان راوية واسع العلم باللغة ، وأخذ عنه — فيما يقول ابن النديم — دواوين أشعار القبائل كلها، وعنه كان يروى محمد بن حبيب . ولا ينصرف هذا العنوان إلى أبي عمرو بن العلاء، فقد كان قليل الثقة بشعراء العصر الإسلامى ، وكان لايعد الشعر إلا للمتقدمين من الجاهليين ، ويقول الأصمعى إنه جلس إليه عشر حجج فما سمعه يحتج ببيت إسلامى (٢) . وقد أخذ جامع الديوان عن أبى عمرو هذا كثيراً — سواء في رواية القصائد ، أو في شروحها الموجزة التى تتخلل أبياتها (٣) — وهو في كل ما أخذه عنه لم يحاول أن يشير إلى سند الرواية التى وصلته عن طريقها هذه النصوص ، ومن المعروف أن السكرى لم يلق أبا عمرو الشيباني ولم يأخذ عنه . فقد توفي أبو عمرو في سنة ٢٠٦ للهجرة (٤) ، وولد السكرى في سنة ٢١٢ للهجرة (٥) .

ويقدم جامع الديوان كذلك لهمزيته التى مطلعها :

ذَهَبْتَ ولم تزر أهل الشفاء .

ومالك في الزيارة من جداء !

بمقدمة يلخص فيها مناسبة إنشادها ويختمها بقوله :

---

(١) انظر ترجمته فى الفهرست لابن النديم : ١٠١ — ١٠٢ .

(٢) راجع مقدمة خزانة الأدب للبغدادى ١ : ٤ و ما بعدها .

(٣) راجع مقدمة القصيدة رقم ٣٥ ، وشرح البيت ١٣ من القصيدة ٣٨ ، والقصيدة رقم ٣٢ بيت ١٩ ، والقصيدة رقم ٧ بيت ١ .

(٤) انظر الفهرست : ١٠٢ .

(٥) انظر إنباه الرواة على أنباه النحاة ١ : ٢٩٣ ، معجم الأدباء ٨ : ٩٤ — ٩٥ .

« وأنشأ يقول ولم يروها أبو عبدالله (١) » ولعل أبا عبدالله هذا ، هو أبو عبدالله الزبير بن أبى بكر بن عبدالله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله ابن الزبير بن العوام ، وكان من أهل المدينة ، وكان راوية ونسابة ثقة ، وقد شهر برواية أخبار الشعراء الغزلين ، وله من الكتب فيما يقول ابن النديم (٢) : أخبار حسان بن ثابت وأخبار عمر بن أبى ربيعة ، وأخبار ابن قيس الرقيات . وهذا يجعلنا نعتقد أن جامع الديوان قد نقل عنه فيمن نقل عنهم من الرواة ، فقد ذكره كما رأينا بما يفيد أنه كان يراجع عليه أو على كتابه الذى ذكره ابن النديم (٣) .

ويقول صاحب الفهرست (٤) إن أبا عبدالله هذا قد توفي بمكة وهو قاض بها سنة ست وخمسين ومائتين ، وقد توفي ابن حبيب قبله بإحدى عشرة سنة ، إذ مات في سنة خمس وأربعين ومائتين (٥) ، وهذا يدل على أن الذى روى عن أبى عبدالله هذا ، أو راجع على كتابه ليس محمد بن حبيب فقد مات قبله ، وإنما هو راوٍ متأخر يجوز أن يكون السكرى ، فقد توفي في سنة خمس وأربعين ومائتين (٦) ، ويجوز أن يكون راوية آخر غيره .

ونريد أن ننتهى من ذلك كله إلى تقرير حقيقة هامة ، هى أن الطريقة التى اتبعها جامع الديوان في رواية النصوص ، ومراجعتها على أصحابها من الرواة ،

---

(١) مقدمة القصيدة رقم ٤٢ .

(٢) انظر الفهرست لابن النديم : ١٦٠ — ١٦١ .

(٣) قد تكون الإشارة هنا إلى ابن الأعرابى ، وهو أحد العلماء الثقات الذين أكثر من الرواية عنهم محمد بن حبيب البصرى .

(٤) الفهرست : ١٦٠

(٥) انظر تاريخ بغداد ١٨ : ١١٣ .

(٦) انظر إنباه الرواة على أنباه النحاة ١ : ٢٩٣ .

تدل على أنه جمعها من مصادر عديدة ، كما تدل أيضاً على فساد ما عرف من أن هذه هي النسخة التي رواها السكري عن محمد بن حبيب البصري، فقد تضافرت الأدلة — كما رأينا — على رفض هذا الزعم وتجريحه ، وقد لاحظنا — فيما سبق من حديث — طائفة من الأخطاء التي نبرىء السكري ونبرىء أستاذه محمد بن حبيب من الوقوع فيها .

ولا نحب أن نلح في التعليل لما هو واضح جلي ، فنسخة الديوان التي بين أيدينا ليست — بصورتها تلك — هي النسخة التي جمعها السكري ، وإنما هي مختارات من شعر ابن قيس الرقيات ، جمعها واحد من رواة القرن الخامس الهجري ، ونسبها للسكري ، ليضمن بذلك ذيوعها ورواجها . وليس فيما نقوله شيء من الغرابة ، فقد ذاعت تلك الطريقة — طريقة تزييف المخطوطات — بين القدماء، وحُمل على العلماء كثير من التآليف لم يكتبوها. ولكنا مع ذلك لا نحرص على هذه النتيجة التي انتهينا إليها، فلا يعدو ماقلناه أن يكون فرضا ، حاولنا التدليل على صحته بما استقر لدينا من حقائق الأمور ، وقد نعثر نحن ، وقد يعثر غيرنا على معلومات جديدة ، تغير من رأينا هذا الذي انتهينا إليه .

وإذا كنا قد شككنا في الطريقة التي وصل إلينا بها هذا الديوان ، والأشخاص الذين قيل إنهم رواته ، فليس معنى ذلك أننا نشك في شعر الشاعر ، ففرق كبير جدا بين أن نشك في سند الرواية ، وأن نشك في مضمونها ، وقد حرصنا على توثيق هذا الشعر — من حيث نسبته الى الشاعر — عن طريق تخريجه فيما لدينا من الكتب القديمة ، سواء منها المخطوط والمطبوع ، وقد انتهينا في سبيل تحقيق هذه الغاية إلى نتائج ما نشك في أنها كانت ذات قيمة كبيرة من ناحية توثيق النصوص وتحقيقها .

(٢) توقيت قصائد الديوان

ونعرض الآن لمحاولة توقيت القصائد التي يضمها ديوان الشاعر وترتيبها، فقد نثرت هذه القصائد في ديوانه ، على نحو يؤدى إلى كثير من التعمية والتضليل ، فهناك قصائد مقدمة في الديوان ، قالها الشاعر في وقت متأخر ، وهناك قصائد متأخرة في الديوان ، قالها الشاعر في وقت متقدم . ويقتضينا توقيت هذه القصائد أن نقسم شعر الشاعر إلى أطوار ثلاثة : تبعا لحياته التي كان يعيشها ، وما تتابع على هذه الحياة من أحداث وخطوب .

ويشتمل القسم الأول على هذا الشعر الذى كان يقوله في أول الصبا ، وصدر الشباب ، وقبل أن يتصل بالحياة السياسية ، فيتصل بالزبيريين ، ثم بالأمويين من بعدهم ، ويقول في هؤلاء وأولئك من الشعر ما سوف نعرض له بالدرس والتحليل .

وأما القسم الثاني من شعره ، فنريد به ما كان يقوله بعد وقعه الحرة من قصائد ومقطوعات ، يرثي بها من قتل في هذه الوقعة من أهل بيته . ويصف فيها ما نزل به في الجزيرة من أحداث وخطوب ، وكذلك ما كان يقوله في مصعب بن الزبير — حين اتصل به — من مديح ورثاء .

ويشتمل القسم الثالث على هذا الشعر الذى كان يقوله ، بعد اتصاله بالأمويين . سواء في ذلك ما كان يقوله في مديحهم ، أو في مديح غيرهم : كعبدالله بن جعفر الذى قيل إنه أخذ للشاعر أمانا من عبدالملك بن مروان .

— ١ —

شعره قبل اتصاله بالسياسة :

وما قاله ابن قيس من شعر قبل اتصاله بالسياسة منثور في ديوانه ، ويخيل إلينا أن توقيت هذا الشعر ممكن ، وقد استعنا على هذا التوقيت بوسيلتين : تتصل الأولى بنفس الشاعر وطبيعة فنه ، وتتصل الأخرى بطريق الشاعر ، حين خرج من مكة إلى المدينة ، فالجزيرة ومنها إلى الرقّة ، حيث استقر بها زمنا ، شهد فيه كثيراً من الأحداث الهامة .

ويمتاز شعره في هذا الطور : بأنه يدور حول حياته الخاصة في كثير من الأحيان ، وقد كانت حياته تلك — في بعض جوانبها — حياة لاهية ، فهو يتبع المغنين والمغنيات ، ويتصل بهم ، ولذلك تكثر في هذا الشعر المقطوعات الغزلية الخالصة ، التي تصور صلته بالمرأة وفتنته بها .

وتظهر في غزله في هذا الطور خصلتان : إحداهما أن معظمه في رقيّة ، وأقله في سلمة والثريا وسعدى ، وفي غيرهن من المغنيات من أمثال سلامة . وقد ذهب ابن قيس يملأ برقية وذكرها ، أركان مكة والمدينة ونواديها ، ثم تبعها بعد ذلك إلى الرقة حيث بقي إلى جوارها زمنا .

والأخرى ، أن مقطوعاته الغزلية ، سواء ما كان يقوله في رقية أو في غيرها من النساء ، تمتاز بصدق وحرارة الوجدان ، ورقة المشاعر . وتخلو هذه المقطوعات من الغزل في نساء الزبيريين ، من أمثال عائشة بنت طلحة ، وسُكَينة بنت الحسين ، ومن الغزل في نساء الأمويين من أمثال أم البنين وعاتكة بنت يزيد ، وذلك على خلاف ما نجده في شعره في المرحلتين الأخريين فلم يعرض لرجالها بمديح أو هجاء .

والتماس هذه الخصائص فيما يحويه ديوانه من شعر . سوف ينتهى بنا إلى تعيين طائفة من القصائد والمقطوعات ، التى نرجح أنها قيلت في هذا الطور . وسوف نعتمد في توقيتنا لهذه القصائد ، على الطريق التى سلكها الشاعر حين خرج من مكة إلى المدينة ، فاستقر بها زمنا ، ثم إلى غيرهما من الامصـــار ، وما وقع له في أثناء ذلك من أحداث .

وقد قال ابن قيس في هـــذا الطور — إن صـــح ما ذهبنـــا إليه — خمسا وعشرين قصيدة ومقطوعة ، وقد استأثر الغزل الخالص في رقية وسلمة بأكثر هذا الشعر . ونحن مضطرون إلى التجاوز عن هذا الغزل الذى قاله في هذا الطور ، فليس في هذه المقطوعات الغزلية الخالصة ما يشير إلى تاريخ إنشائها ، ولكنا نستطيع فقط — على ضوء ما تناولته من معان وأفكار — أن نرتبها في ذاتها ، ترتيبا زمنيا بصرف النظر عن تاريخها . وذلك إذا لاحظنا أن الشاعر فيما قاله من غزل في هذا الطور يحكى علاقته برقية ، وتطور هذه العلاقة ، منذ أن رحل إلى الرقة ، إلى أن غادر الجزيرة إلى فلسطين فالعراق ، حيث مصعب ، وحيث شغل عن رقية بالسياسة والغزل في نساء الزبيريين والأمويين .

وفي شعره ما يدل على أنه كان ينزل المدينة في أواخر زمن معاوية ، فقد وصلت إلينا مقطوعتان ، إحداهما بيتان يقول فيهما :

فلـــن أجيب بليـــل داعيـــا أبـــــدا : أخشى الغـــرور كمـــا غُـــر ابن هبّـــار !

باتـــوا يجـــرونه في الحـــش منعفـــرا ، بئس الهـــدية لابـــن العـــم والجـــار !

وهو يشير إلى مقتل اسماعيل بن هبّار ، وقد اتهم بقتله مصعب بن عبدالرحمن بن عوف في زمن معاوية (١) . وهذه أول مقطوعة تلقى ضوءا تاريخيا على شعره في هذا الطور ، فهى ترتبط بحادثة من حوادث المدينة في خلافة معاوية ، وسوف نرى أن شعره في هذا الطور يرتبط بالتاريخ ارتباطا وثيقا ، بحيث نستطيع توقيت هذا الشعر إذا استطعنا تفسير ما يحتويه من إشارات تاريخية .

أما المقطوعة الأخرى فقد قالها كذلك في المدينة ، في أواخر خلافة معاوية وفي أيام واليها مروان بن الحكم ، وهى التى يقول فيها :

. . . .

حال دون الهوى ودو
ن سرى الليل مصعب ،
وسياط على أكفْ
فِ رجال تُقَلَّب

والشاعر كما نرى يشير إلى ما فعله مصعب بن عبدالرحمن بن عوف بأهل المدينة ، لماولى شرطتها لمروان بن الحكم ، وكان أهلها هرجوا يقتل بعضهم بعضا ، فشد بهم مصعب ، وجلدهم ، وهدم الدور (٢) .

---

(١) انظر نسب قريش : ٢٢٠ ، وأنساب الأشراف (المخطوطات) ٩ : ٦٢ - ٦٤ .

(٢) انظر نسب قريش : ٢٦٨ . وكان ذلك فيما بين سنة ٥٩ ، ٦٠ هـ وذلك لأن معاوية مات بالمدينة فى سنة ٦٠ هـ ودفن بها سنة ٦١ هـ . (انظر تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ٦٠) .

ويظهر أن ابن قيس لم يمكث طويلا في المدينة . وإنما غادرها – فيما يفهم من شعره – إلى الشام . فنحن نجده في سنة ٦١ هـ أو بعدها بقليل يرحل من الشام إلى سجستان ، ليرثي صديقه طلحة الطلحات (١) ، ويمدح ابنه عبدالله (٢) . وقد قال فيه قصيدتين إحداهما التائية التي مطلعها :

نضر الله أعظما دفنوها ... بسجستان ، طلحة الطلحات

وهي تخلص لرثاء طلحة دون مديح ابنه ، ويظهر أنها قيلت بعد وفاة طلحة بوقت غير قصير ، فقد جاء فيها قول الشاعر :

لعن الله من نعاك إلينا ... إذ لقينا هبيرة بن فرات

ظل لي عند ذاك يوم طويل ... غائب الصبر شاهد الحسرات

. . . .

لم أجد بعدك الأخلاء إلا ... كثماد منزوحة وقِلاتِ

غير أني رجوت أولادك البيـ ... ـضَ لكي يخلفوك بعد الممات

فوجدنا الذى رجونا ، وكانوا ... خلفيين طيبي الحجزات

فقد اتصل بأولاده كما يقول ، ونال من جودهم مثلما كان ينال من جود أبيهم .

وأما الأخرى فقسمها بين رثاء طلحة ومديح ابنه عبيد الله ، وهى الرائية التى مطلعها :

إنما كان طلحة الخير بحرا ... شُقَّ للمعتفين منه بحورُ

---

(١) توفي طلحة بسجستان ودفن بها في سنة ٦١ هـ . انظر الكامل في التاريخ ٣/٣٠٥ .

(٢) انظر معجم البلدان (طبع وستنفيلد سنة ١٨٦٦) ٣ : ٧٤٨ .

ومما يدل على انه كان في الشام ، حين سعى لرثاء طلحة هذا ومديح ابنه ، ما جاء في قصيدته تلك :

وسرت بغلـتي إليـك من الشـ ـأم ، وحوران دونهـا والعوير

وسـواء ، والقريتان ، وعين التمـ ـر ، خسرق يكل فيه البعـير !

وقد قال في هذا الطور كذلك ، فائيته التي يمدح بها عبدالله بن جعفر ، ذلك أنه قدم لمديحه بالغزل في رقية ، وقد لاحظ ذلك أبو الفرج (١) . وذكر أن هذا الغزل الذي قدم به الشاعر لمديحه . هو أول ما قاله ابن قيس في رقية . بعد أن رآها لأول مرة أثناء حجها . ومطلع القصيدة :

من عذيرى ممـن يضـن بمبـذو ل لغيرى ، عليّ ، يوم الطـواف

— ٢ —

شعره بعد اتصاله بالسياسة :

(١) في سنة ثلاث وستين للهجرة ، ألمت الكارثة في وقعة الحـرة بأقارب الشاعر ، وأهل بيته ، فقد قتل فيها ناس من بينهم أسامه وسعد ابنـا أخيه عبدالله (٢) بن قيس ، ويظهر أن الشاعر لم يكن موجودا بالمدينة عندما وقعت هذه الواقعة ، فقد وصلته أنباؤها وهو بالرقة (٣) ، وقد هزه النبأ المحزن ، فرثى القتلى من أقاربه في قصيدتين ، يرجع تاريخ إنشائهما إلى سنة ثـلاث

---

(١) انظر الأغانى (دار الكتب) ٥ : ٩٦ – ٩٧ .

(٢) أنظر مقدمة القصيدة رقم ٤٠ .

(٣) المصدر نفسه .

وستين . وقد كانت هذه الوقعة ذات أثر كبير في التمهيد لتحوله من الأمويين إلى الزبيريين (١) .

ومما يلاحظ أن مرارة الكارثة لم تفارق الشاعر طوال حياته السياسية ، فقد ظل يذكر قتلاها فيما توجه به من مدائح في مصعب بن الزبير .

وقال يائيته التي مطلعها :

ذهب الصبا وتركت غَيَّتِيَهْ ورأى الغواني شيب لِمَّتِيَهْ

بعد أن وصلته أنباء الكارثة فيما يقول جامع الديوان (٢) .

ويظهر أنه أنشد ميميته التي يقول فيها :

قالت كثيرة لي : قد كبرت وما بك أليوم من داهمه

. . . .

بعد سنة ثلاث وستين بوقت قصير . ونكاد نعتقد أنه قالها في المدينة ، بعد أن رحل إليها ليرى ما حل بأهل بيته وأبناء عشيرته ، وربما كانت كثيرة التي قابلته عقب وصوله إلى المدينة — ، كما يفهم من هذين البيتين — :

قالت كثيرة لي : قد كبرت وما بكَ أليومَ من داهِمَهْ

رأت رجلا شاحبا لونه أخا سَفَرٍ أنْزَعَ القادِمَهْ

(١) روى البلاذرى بيتين نسبها لابن قيس الرقيات تعرض فيها الشاعر لما فعله ابن الزبير بالأمويين في المدينة من حصرهم وطردهم ويفهم من البيتين أن الشاعر يلوم ابن الزبير على عمله ، ويتحسر على أيام بنى أمية بالمدينة ، وإن صح أنهما لابن قيس الرقيات كما روى البلاذرى ، فإن هذا يدل على أنه كان — قبل اتصاله بمصعب بعد وقعة الحرة — مشايعا بنى أمية واقفا في جانبهم . انظر أنساب الأشراف المطبوع (٤ : ٣٨) .

(٢) انظر مقدمة القصيدة رقم ٤٠ .

هي المفتاح الذى يوضح لنا ذلك ، فمن المعروف أن كثيرة التى يذكرها ابن قيس في شعره ، كانت زوج علي بن عبدالله بن عباس (١) ، وكان علي هذا يقيم في المدينة ، وشهد بها وقعة الحرة ، وكاد يقتله مسلم بن عقبة (٢). ولعل مما يقوى هذا الظن أيضا أن الشاعر في قصيدته اليائية ، لم يذكر من القتلى كل من ذكرهم في قصيدته الثانية من الذين لم يذكرهم في قصيدته الأولى ، فهو يذكر أبا عاصم ، وأبا مالك وحسينا ، ولم يرد لهؤلاء ذكر في يائيته التى قالها في الرقة . وقد ارتحل الشاعر بأبناء أخيه وأهل بيته إلى الجزيرة، فأبقاهم بها، وأقام إلى جانبهم .

(٢) ونحن لانصل إلى سنة سبع وستين للهجرة حتى يصبح ابن قيس الرقيات مصعبي الهوى ، ويظهر أن الذى أملى عليه هذا الاتجاه هو سعيد بن المسيب ، فقد كان مخاصما للأمويين ، وكاد يقتل في وقعة الحرة على يدى مسلم بن عقبة (٣) . ونظن أن الشاعر قد ذهب إلى العراق ، حيث ولى مصعب البصرة لأخيه عبدالله ، فلزمه منذ ولايته وشهد حربه مع المختار الثقفى . وفي سنة سبع وستين للهجرة أو بعدها بقليل مدحه بقصيدتين ، أشار فيهما إلى حروبه مع المختار ، وقتله إياه . أما الأولى فرائيته التى لم يحفظ منها الديوان إلا هذين البيتين (٤) :

مصعب كان منك أمضى بعيدا

حين يغشى القبائل الأنهارا

---

(١) تاريخ الإسلام للذهبى ٤ : ٢٠ ، شرح شواهد المغنى : ٢١٢ .

(٢) مروج الذهب ٣ : ٨٠ .

(٣) البداية والنهاية لا بن كثير ٨ : ٢٢١ .

(٤) ديوانه ١٦٦

لـــو شــــــددنا مـــن ناظـــــريه قليـــــلا،

لبنينـــــــا مـــن الــــــرءوس منـــــــارا

ويبدو أن هذه الرائية ، أسبق من سائر مدائحه في مصعب . ويفهم مما جاء في البيت الثاني ، أن الشاعر أنشدها مصعبا بعد انتصاره على المختار . وقتله في سنة سبع وستين (١) ، ففى هذا البيت وصف لما أحدثه مصعب في أصحاب المختار من قتل وتشريد (٢) .

وأما الأخرى فالهمزية التى تعتبر من أطول قصائد الديوان ،إذ تبلغ ستين بيتا ،وقد فخر الشاعر فيها بقريش ،وعدد فضائلها في الجاهلية والإسلام :

وعلى الرغم مما يقوله صاحب العقد (٣) ،من أن الشاعر أنشد مصْعبـــــا همزيته تلك بعد أن دانت له البصرة والكوفة ، إثر مقتل المختار في سنة سبع وستين ، فإنا نظن أن الشاعر أنشده إياها بعد أن أعاده عبدالله بن الزبير واليا على العراق في سنة ثمان وستين للهجرة(٤) ، وكان عزله وولّى ابنه حمزة في أواخر سنة سبع وستين (٥) ، ذلك أن المعاني التى طرقها الشاعر في قصيدته تلك ، تدل على أن ابن قيس مدح بها مصعبا ، في أثناء ولايته الثانية للعراق ، أى فيما بين سنة ثمان وستين واثنتين وسبعين للهجرة (٦٨ ــ ٧٢ هـ) ، ففى

---

(١) يريد المختار الثقفى ، وقد عنون جامع الديوان هذين البيتين بقوله : « وقال للمختـــار الثقفى » وراجع شرح جامع الديوان للبيت الثانى .

(٢) يقول فريق من المؤرخين إن مصعبا قتل خمسة آلاف أسير من رجال المختار صـــبرا : البداية والنهايـــة ٨ : ٣١٨ :

(٣) العقد الفريـــد ٤ : ٤٠٢ .

(٤) الأمم والملوك (نشر التجارية) ٤ : ٥٧٩ ، الكامل فى التاريخ ٣ : ٣٨٩ .

(٥) انظر المصدر نفسه ٤ : ٥٧٧ ــ ٥٧٨ والكامل في التاريخ : ٣ : ٣٨٨ .

القصيدة إشارات غامضة إلى عزل الخليفة الزبيرى لأخيه مصعب ، بعد أن فتح له العراق ، ووطأه لحكمه ، وإلى استماعه للوشاة ، الذين أرادوا الانتقاص من قدره ، والتقليل من شأنه ، بعد أن أحرز به الخليفة الرتق ، وخافته الأعداء ، ثم هو يحذر الخليفة الزبيرى من أن مصعبا هو الذى يحميه، ويدافع عنه ، فإن قضى زالت خلافته ، وكأنما كان ابن قيس يقرأ صحف الغيب حين قال ذلك في هذه الأبيات :

فسعوا كى يُفَلِّلُوك ويأبى الـ
ـله إلا الذى يرى ويشاء !

حسداً ! إذ رأوك فضلك الـ
ـله بما فُضِّلَت به النجباء

. . . .

إن تعش لا نزل بخير ، وإن تهـ — ـلك نَزُل مثل ما يزول العماء

إن لله در قوم يريدو — نك بالنقص ، والشقاء شقاء

بعد ما أحرز الإله بك الرتـ — ـق ، وهرّت كلابك الأعداء

(٣) ولم يمكث الشاعر طويلا في العراق ، ويظهر أنه شهد مع مصعب مقتل المختار ، ثم رحل إلى الجزيرة ، حيث كانت أرملة أخيه ومن بقى من أهل بيته . ويحدثنا عن ذلك فيقول (١) :

« إن أُثَيْلة بنت مسافع بن فضالة الخزاعية امرأة أسامه حملت أولادها قيسا وعقبة ومحمدا إلى الجزيرة — حين قتل أبوهم وعمهم — فَبَقِيَتُهم بها ، فأقام عبيدالله بن قيس كذلك ثم أغار عمير بن الحباب على بنى عامر بن لؤى —

---

(١) أنظر مقدمة القصيدة رقم ٤٢ من الديوان .

وكانوا يحبون بني أمية . وإنما سمى واديهم (وادى الأحرار) بيزيد بن معاوية وكان نزل بهم في خلافته – وذلك لأن حرب بن عبد الواحد بن أبي سعد أصاب رجلا من بني ذكوان من سليم ، فآلى عمير بن الحباب ألا يدع بوادى الأحرار أعظم من رجل يقتله به . . . . . . وأغار عمير بن الحباب بعد ذلك ، فأخذ عبيد الله بن قيس أسيرا وخرج به مجنوبا ، فلما قدمه ليقتله وثب عليه رجل من بني قنفذ – وهم قوم من رعل – فقال له : إن قتلته قتلك به ابن الزبير إن ظفر أو ابن مروان ! فخلى سبيله وارتحل فنزل الرقة » .

ونحن نعرف أن عمير بن الحباب كان من زعماء القيسية في الموصل ،وأنه بايع مروان بن الحكم بعد مرج راهط ، وفي نفسه من قتلى المرج كثير(١) ، وقد ظل يتحين الفرص للخروج على بني مروان ، والأخذ بثأره من كلب ، ومن لف لفها من القبائل اليمنية ، التي ظاهرت الأمويين على القيسيين في المرج ، حتى سنحت له الفرصة في حروب عبيد الله بن زياد للمختار الثقفي ، وكان عبد الملك أرسله على رأس جيش لقتاله في أوائل سنة سبع وستين للهجرة ، وقد ساهم عمير هذا في هذه الحروب ، ولكنه – على الرغم مما أبداه من شجاعة – كان أول من انهزم بالقوم بعد تعذير منه (٢) .

ولجأ عمير بن الحباب – بعد مقتل ابن زياد في سنة سبع وستين للهجرة – إلى زفر بن الحارث بقرقيسياء(٣) ، فجعلا يطلبان كلبا واليمنية بقتلى المرج(٤)

---

(١) أنساب الأشراف (مطبوع) ٥ : ٣١٢ – ٣١٤ .

(٢) نفسه ٥ : ٢٤٨ – ٢٥٠ . والكامل في التاريخ ٤ : ٣ .

(٣) نفسه ٥ : ٣٣ وما بعدها

(٤) المصدر نفسه .

وكان معهما في أول الأمر قوم من تغلب ، يقاتلون معهما إذا أغارا ، وذلك قبل أن تقع الحروب بين القيسية والتغلبية بزمن يسير ، وكانت من ذلك غارته على عشيرة ابن قيس الرقيات ، ونظن ذلك كان فيما بين سنة ثمان وستين وسنة سبعين للهجرة (٦٨ ـ ٧٠) ، لأن عمير بن الحباب قتل على نهر الحشّاك في سنة سبعين(١) .

وقد حفظ الديوان من شعره في هذه الفترة أربع قصائد ، قالها في هذه الحروب التى هاجت بين قومه من بنى عامر بن لؤى ، والسلميين بقيادة عمير بن الحباب .

وتعتبر القصيدتان ـ الهمزية التى قالها إثر إطلاق رعل إياه ، والنونية التى مدح بها رعلا وقنفذا ـ متتاليتين تاريخيا .

وهو في همزيته يتحدث عن أسر عمير له ، وينحو باللائمة على عبدالواحد الذى لم يستمع إليه عندما نصحه بالرحيل عن الجزيرة ، تجنبا لانتقام السلميين ، فيقول :

وجُرْمٍ ، قد حملت ، جناه غيرى
وفيت به على حب الوفاء
ومولى ، قد نصحت له ، فأعيت
علىّ أموره كل العياء
فلو ما كنت أروع أبطحيّا
أبىّ الضيم مُطّرح الدناء

---

(١) الكامل في التاريخ : ٤ : ٦ ، وخزانة الأدب للبغدادى ٤ : ١٤٣ .

لوَدّعت الجزيرة قبل يوم

يُنَسِّى القَوْمَ أطهار النساء

ونظن أن الشاعر وقع في أسر عمير السلمى هذا في وقت متأخر (في سنة سبعين مثلا)، بعد أن هاجت الحرب بين تغلب وقيس، ويفهم هذا من قوله :

فذلك أم مقامك وسط قيس

وتغلب، بينهما سفك الدماء !

وفي النونية يؤدى ابن قيس واجب الشكر لرعل وقنفذ، فقد فكا أسره، وأنقذا حياته بعد أن قدمه عمير ليقتله، ويظهر أنه اعتزم الرحيل عن الجزيرة، بعد أن حلت به النكبة فيها، وكادت تودى بحياته، فقال :

إن امرءاً يرجو وفاء لذمة

إلى غير عوف من سليم لخائنُ

جزى الله يوم المرج رعلا وقنفذا

جزاء كريما يوم تبلى البَواطِنُ

. . . .

فقلت لها سيرى، ظعين، فلن ترى

بعينيك ذلا بعد مرج الضيازنِ

(٤) وقد استقر رأى الشاعر كما ترى على ترك الجزيرة، والرحيل عنها إلى فلسطين(١) ،بعد أن نغّص مقامه بها ما هاج من حرب بين قيس وتغلب،

---

(١) أنظر القصيدة رقم ٤٤ فقد قدم لها جامع الديوان بقوله : « وقال ثم ارتحل سائراً إلى فلسطين » .

وكذلك وفاة عبدالواحد بن أبى سعد والد رقية. وقد أشار إلى ذلك في داليته التى رثاه بها ، والتي حفظ الديوان منها ثلاثة أبيات ، ومطلعها :

ما خير عيش في الجزيرة بعد ما

عثر الزمان ومات عبد الواحد

وإن تعيين الوقت الذى ودع فيه الجزيرة ، يسهله علينا ما جاء في نونيته تلك :

فما كان من ذكوان ذنب لدعوة

دعوها ، ولكن ابن حيدة واهن

فلو أسمع الجحّاف أو نال صوتها

صبيغ بن خوليٍّ ، لعزّ الظعائن

ويريد الشاعر الجحاف بن حكيم السلمي ، ومن المعروف أن الجحاف هذا قد قاد قيسا في حربها لتغلب بعد مقتل عمير بن الحباب ، وقد أوقع بتغلب في وقعة البشر سنة سبعين للهجرة(١). ويفهم من هذا أنه ترك الجزيرة إلى فلسطين في هذه السنة . وقد قال وهو في طريقه إليها بائيته التى مطلعها(٢) :

أزجرت الفؤاد منك الطروبا ،

أم تصابيت إذ رأيت المشيبا ؟ !

---

(١) انظر الكامل في التاريخ ٤ : ٨ ، وقد فر الجحاف بعد هذه الوقعة وظل مختفيا حتى عفا عنه عبدالملك بن مروان واستقدمه عليه (انظر أنساب الأشراف ٥ : ٣٣٠) .

(٢) انظر عنوان القصيدة رقم ٤٤ .

وقد أخذ في تلك القصيدة يحث زوجه على الرحيل ، والنزول في قومها بني كنانة ، واصفا ما ألم به في الجزيرة من كوارث شيبت رأسه :

فاظعنى فالحقى بقومك إنى
لا أرى أن أقيم فيكم غريبا
فانزلى في بنى كنانة تلقى
فيهم العز إن دعوت قريبا

. . . .

لن ترى بعد مرج آل أبى الضيزن ضيما ولن أقاد جنيبا
ذاك خير من البليخ ومن صوت ذئاب على يدعون ذيبا

وأغلب الظن أنه لم يبق طويلا في فلسطين ، فلا يحفظ الديوان من شعره ما يدل على إقامته بها ، ولعله ذهب إلى الحجاز ، ونزل بالمدينة، فالأغاني(١) يقص علينا أنه لقى سعيد بن المسيب فهش له ، وقال : مرحبا بظفر من أظفار العشيرة ، وسأله عما أحدث من شعر فأنشده ابن قيس قوله :

أتلبث في تكريت لا في عشيرة
شهود ، ولا السلطان منك قريب !
وأنت امرؤ للحزم عندك منزل ،
وللدين والإسلام منك نصيب

(١) الأغاني (دار الكتب) ٥ : ٩١ - ٩٢ .

فقال سعيد : لا مقام على ذلك ، فاخرج منها ، قال . قد فعلت ، قال : قد أصبت . أصاب الله بك. ويدل هذا على أن الشاعر قد صمم على ألا يعود إلى تكريت بالموصل ، وآزر ذلك في نفسه ووكده ،ما كان من حرب بين قيس وتغلب في الجزيرة ، وكان من موت عبدالواحد بن أبى سعد كما قدمنا . ونستطيع أن نضيف إلى ذلك ، ما عرف من أن ابن قيس قد أخذ يميل إلى جانب مصعب ، منذ أن مدحه في سنة سبع وستين ، والإقامة بفلسطين قد تعرضه لانتقام الخليفة الأموى عبدالملك بن مروان .

ونعتقد أن الشاعر لقى مصعبا في الحجاز في هذه السنة – أعنى سنة سبعين للهجرة – فيحدث الرواة بأن مصعبا شخص إلى الحجاز في سنة سبعين ، وذهب إلى مكة بأموال عظيمة قسمها في قومه (١) .

وقد صحب الشاعر مصعبا منذ هذا التاريخ ، وظل معه في العراق يتغنى بأعماله ، ويصف حروبه في شعر رائع جميل – حفظ الديوان بعضه – حتى نهض عبدالملك إلى حربه في سنة اثنتين وسبعين للهجرة .

وفي الديوان قصيدتان أنشأهما الشاعر في مديح مصعب بن الزبير في هذه الفترة (٧٠ – ٧٢ ه) ، يمكننا أن نضيف إليهما قصيدة ثالثة هى همزيته التى أشرنا إليها فيما مضى .

وتمتاز هاتان القصيدتان بظاهرة غزلية لا نجدها في قصائده الأخرى ، وهى استخدام الغزل في مدائحه لمصعب ، استخداما سياسيا يغيظ به الخليفة الأموى ، وينال منه (٢) . وأولى هاتين القصيدتين البائية التى يبدؤها بقوله :

---

(١) تاريخ الأمم والملوك (نشر التجارية) ه : ٢ .

(٢) سنعرض لذلك في شيء من التفصيل عندما نتحدث عن غزله السياسى

ألا هــزئــت بنـــا قُرَشيَّـــ ـــــةٌ يهتـــز مــوكبهـــا

والأخرى كافيته التي مطلعها :

أعاتك بنت العبشـــمية عاتكـــا . أثيبي امــرأ أمسي بحبــك هالكا

وقد قيلت هذه القصيدة في العراق ، ويظهر ذلك من قول الشاعر :

فمـــن مبلـــغ عـــنى خليـــلىّ آيـــــة

عيينــــة أعــــنى بالعــراق ومالكـــــا

ونستطيع على ضوء ما تناولته من معان وأفكار ، أن نحدد تاريخ إنشادها على وجه التقريب ، بتلك الفترة التي سبقت الحرب بين عبد الملك ومصعب (٧١ ــ ٧٢) ، ذلك أن الشاعر يتوعد بني أمية ، ويعظم من أمر مصعب ، ويصفه بالشجاعة والفتك ، ويهول من أمر تلك الكتائب التي يعدهـــا لقتال الشامين (١) .

ولابن قيس في مصعب قصيدة أخرى ، لم يروها الديوان ، ولم تحفظ منها المصادر القديمة سوى تسعة أبيات ومطلعها :

ليـــت شـــعرى أأول الهـــرج هـــــذا

أم زمـــان في فتنـــــة غير هــــــرج ؟ !

وقد مدحه بها لما حشد للخروج من الكوفة لحرب عبد الملك (٢) ، وقـــد

---

(١) الأبيـــات : ١٦ – ٢٢ .

(٢) أنظر الأغاني (ساسي) ١٧ : ١٦١ ، تاريخ دمشق (مخطوط رقم ٤٩٢) ١٩ : ٧٦٨ .

ساق أبو الفرج في الأغاني (١) قصة هذه الحرب على تمامها ، وهى الحرب التى قتل فيها مصعب في سنة اثنتين وسبعين للهجرة (٢) .

وقد ظل الشاعر في العراق إلى جانب مصعب ، يمدحه ويخلد انتصاراته ، حتى ألمت الكارثة به في دير الجاثليق ، على يدى عبدالملك بن مروان ، فرثاه بكثير من الشعر ، ولم يحفظ الديوان من هذا الرثاء سوى قصيدة واحدة ، هى لاميته التى يقول فيها :

أتــاك بيــاسر النبــأ الجليـــــل فليــلك إذ أتــاك بــه طـــويل

وحفظت المصادر القديمة من الرثاء ثلاث مقطوعات تبلغ أطولهـا سبعة أبيات ، أما الأولى فمطلعها :

لقــد أورث المصرين خزيا وذلــة قتيــل بديــر الجاثليــق مقيــم

وأما الثانية فمطلعها :

إن الرزية يوم مســكن والمصيبــة والفجيعــه

والمقطوعة الثالثة ، تتألف من أربعة أبيات عثرنا عليها مروية في كتاب الكامل لابن الأثير ، ومطلعها (٣) :

نعــت السحــائب والغمــام بأسرهــا

جســدا بمســكن عــارى الأوصــال

(١) الأغانى (ساسى) ١٧ : ١٦١ ، ١٦٧ .

(٢) أنساب الأشراف (المطبوع) ٥ : ٣٤٢ .

(٣) الكامل لابن الأثير ٤ : ٥ وانظر البداية والنهاية ٨ : ٣٢٢ :

وليست هذه المقطوعات الثلاث سوى رثاء خالص ، يصور فيه الشاعر فجيعته بمصعب ، وخيانة أهل العراق له ، وغدرهم به . وكل ما نريد أن نشير إليه هو أن الشاعر – فيما يظهر من هذا الشعر – لم يصحب مصعبا إلى دير الجاثليق ، ولم يشهد بنفسه الكارثة التي ألمت بصديقه ، وذلك على عكس ما يقص الرواة (١) ،ولعله ظل بالكوفة حين خرج مصعب لحرب عبدالملك، حتى إذا أتاه نبأ مقتله فر هاربا إلى الحجاز .

(٥) ولندع سيرة مصعب للتاريخ والمؤرخين ، ولنمض مع الشاعر في هذه المرحلة الجديدة من مراحل حياته ، فلم يكن بد للشاعر – حين قتل مصعب ، ودخلت جيوش الأمويين إلى العراق – من أن يقصد إلى الحجاز ، فسبيل الشام مأخوذة عليه ، وقد دبر ابن قيس أمره تدبيرا حسنا، وأعانه على ذلك عبدالله بن جعفر الذى أخذ له – فيما تقول الروايات – أمانا من الخليفه الأموى .

وقد مدح ابن قيس عبدالملك بن مروان بقصائد ثلاث ، أولها بائيته التي مطلعها :

عاد لـه من كثيرةَ الطرب فعينه بالدموع تنسكبُ

ويقول الرواة (٢) إن ابن قيس ،أنشد الخليفة قصيدته تلك بعد أن أخذ أمانه على يدى عبدالله بن جعفر ، ومن المعروف أن صلة الشاعر بالخليفة الأموى ، قد بدأت بعد مقتل مصعب في سنة اثنتين وسبعين ، وهذا يعني أن الشاعر ظفر بأمانه، وأنشد الخليفة قصيدته تلك في سنة اثنتين وسبعين ،أو بعدها بقليل ، ففى شعره ما يدل على أنه كان موجودا في العراق سنة ثلاث وسبعين للهجرة ، إذ نجده يهجو من يسمى عبدالعزيز بن عبدالله بن خالد بن أسيد ،

---

(١) الأغانى (دار الكتب) ٥ : ٧٧ .

(٢) الأغانى (دار الكتب) ٥ : ٨٢ ، طبقات فحول الشعراء : ٥٣٣

ويصف هزيمته أمام الخوارج أصحاب قَطَرِى بن الفجاءة (١)، وكان ابن قيس يصحب عبدالعزيز هذا، حين وجهه عبدالملك لقتالهم (٢).

والقصيدة الثانية، لاميته التي مطلعها :

ما هاج من منزل بذى عَلَمِ بين لوى المنجنون فالثَّلَمِ

ولعله قالها بعد بائيته السابقة بوقت قصير، ذلك أنه يسلك فيها نفس الطريق التي سلكها في بائيته، ونريد بها تعظيم الخليفة وتبجيله، والاعتذار إليه، ومحاولة انتزاع نفسه من الزبيريين، وذلك عن طريق وصف دعوتهم بالباطل، وإطراء الخليفة لقضائه على ثورتهم.

وأما القصيدة الثالثة فهمزيته التي يذكر الديوان مطلعها على هذا النحو:

أنت ابن معتلج البطاح كُدَيِّها فكَدائها

وقال ابن قيس في هذه السنة أيضاً — سنة اثنتين وسبعين — قصيدتين في مديح عبدالله بن جعفر، إحداهما لاميته التي يقول فيها :

إذا زرتُ عبد الله، نفسى فداؤه،

رجعتُ بفضل من نداه ونائلِ

وهى قصيدة لم يروها الديوان، ولم تحفظ منها المصادر القديمة سوى خمسة أبيات، ولعل ابن قيس مدح بها ابن جعفر، بعد أن أخذ له الأمان من الخليفة الأموى عبدالملك بن مروان، في سنة اثنتين وسبعين أو بعدها بقليل، فقد جاء فيها قوله :

---

(١) الطبرى في الأمم والملوك (نشر التجارية) ٢ : ٨٢٨، والمقطوعة رقم ٢٨ ص ١٦٣ من الديوان.

(٢) انظر أنساب الأشراف : المخطوط : ٧ : ١٨٥.

تداركني عبد الآله وقد بدت ... لذى الحقد والشنآن مني مقاتلي
فأنقذني من غمرة الموت بعدما ... رأيت حياض الموت جُمّاً المناهل

وأما الأخرى (١) فراثيته التي حفظ الديوان منها سبعة أبيات تبتدئ بقوله :

أتيناك نُثْنى بالذى أنت أهله ... عليك كما أثنى على الروض جارها

(٦) ولم يمكث ابن قيس في الشام طويلا ، ويظهر أن المقام لم يطب له هناك ، فنحن نجده في العراق في سنة ثلاث وسبعين للهجرة ، فقد قال في هذه السنة مقطوعته التي يهجو فيها عبدالعزيز بن عبدالله بن خالد بن أسيد ، إثر هزيمته أمام الخوارج ، ومطلعها(٢) :

عبد العزيز ، فضحت جيشك كلهم ... وتركتهم صرعى بكل سبيل

كما نجده يتصل ببشر بن مروان في العراق ، ويمدحه بقصيدتين ، أولاهما لاميته التي مطلعها :

قد أتانا من آل سعدى رسول ، ... حبذا ما تقول لى وأقول

وثانيتهما لامية لم يروها الديوان ، ولم تحفظ منها المصادر القديمة سوى خمسة أبيات ومطلعها :

يا بشر يا ابن الجعفرية ما ... خلق الآله يديك للبخل

وكان بشر مسرفاً في العطاء ، فقد قال للشاعر بعد أن أنشده تلك القصيدة : احتكم ، قال : أعطنى عشرين ألف درهم ، فقال له بشر : قبحك الله !

---

(١) الكامل في الأدب « طبع الحلبى » ٢ : ٦٤٧ .

(٢) أنساب الأشراف (المخطوط) ٧ : ١٨٥ .

لك عشرون ، وعشرون ، وعشرون ، وعشرون ، وعشرون ، فأعطاه مائة ألف درهـم » (١) .

ونعتقد أن ابن قيس لم يستمر في العراق طويلا ، وإنما كان يرحل منه إلى المدينة لمديح ابن جعفر ، وأخذ نواله ، كما كان يرحل منه إلى مصر لمديح عبدالعزيز ، وحمل جوائزه وعطاياه .

وقد مات بشر بن مروان ، وخلفه الحجاج في سنة خمس وسبعين للهجرة (٢) ، وكان موته إيذاناً لابن قيس بالرحيل عن العراق ، فليس في ديوانه . ولا في أخباره ما يدل على أنه وفد إلى العراق بعد وفاة بشر ،ولعله لم يذهب مخافة الحجاج على نفسه، أو لعله لم يذهب لأنه اتصل بعبد العزيز بن مروان ، وانقطع لمديحه في مصر .

وقد ظلت صلة ابن قيس بابن جعفر قوية ، حتى توفي ابن جعفر عام ثمانين للهجرة (٣) ، وقيل بل سنة أربع وثمانين أو خمس وثمانين ، فرثاه بقصيدته العينية ، فقال :

بات قلبي تشفه الأوجاع ... من هموم تُجِنُّها الأضلاع

من حديث سمعته منع النو ... م ، فقلبي مما سمعت يراع

. . . .

وهي القصيدة التي قال عنها أبو الفرج إنها قيلت في علة ابن جعفر التي مات فيها (٤) .

---

(١) أنساب الأشراف « المطبوع » ٥ : ١٧٥ .
(٢) نفسه ١١ : ٦٩ ، وانظر أسد الغابة ٣ : ١٣٥ .
(٣) أسد الغابة ٣ : ١٣٥ .
(٤) الأغاني (ساسي) ١١ : ٦٧ .

(٧) ولا نعرف متى اتصل ابن قيس بعبدالعزيز بن مروان ، ووثق صلته به . فالأخبار التى وصلتنا عنه لا تشير إلى شيء من هذا . وكل مانعرفه أنه لزم عبدالعزيز ، ورحل إليه بمصر . وكاد يكون شاعره .

وقد مدح الشاعر عبدالعزيز في سنة إحدى وثمانين بقافيته التى وصف فيها خروجه إلى الإسكندرية ، ورجوعه منها ، وكان خرج إليها خرجته الثالثة في هذه السنة ، وخرج إليها معه وجوه الناس من الأشراف والشعراء ، فقال (١) :

لَحَيٌّ من أمية ليس في أخلاقهم رَنَقُ
يكون لخابط المعروف في واديهمُ ورق

. . . .

وقد وصف النيل، ووصف السفن، وما حملته من بضائع وصفاً موجزاً .

ونجد ذكراً للشاعر بعد سنة إحدى وثمانين إلا ما يرويه الديوان . من أنه مدح عبدالعزيز بن مروان ببائيته فقال :

لم يَصْحُ هذا الفؤاد من طربِهْ وميله في الهوى وفي لعبه

. . . .

أثن على الطيب ابن ليلى إذا أثنيت في دينه وفي حسبه

. . . .

ويروى أبو الفرج أن ابن قيس قال هذه القصيدة في الخلاف الذى وقع بين عبدالعزيز — وكان الشاعر عنده بمصر — وبين أخيه عبدالملك بن مروان

---

(١) الولاة والقضاة للكندى : ٥٢ .

على ولاية العهد (١) ، وكان ذلك في سنة أربع وثمانين (٢) . وقد أشار الشاعر إلى شيء من هذا فقال :

يخلفك البيض من بنيك كما يخلف عود النضار في شُعَبِهْ
ليسوا من الخِرْوَع الضعيف ولا أشباه عيدانه ولا غَرَبِهْ

. . . .

نحن على بيعة الرسول وما أعطى من عجمه ومن عربه

وهو حين يمدحه بالميمية التي مطلعها :

طرقته أسماء أم حلما أم لم تكن من رحالنا أَمَمَا

يضرب على نفس الوتر ، فيثير قضية عبدالعزيز مع أخيه عبدالملك ، ويقرر حقه في الولاية في هذا البيت :

يلتفت الناس حول منبره إذا عمود البرية انهدما

وتعتبر هاتان القصيدتان – الميمية والبائية – متتاليتين تاريخيا ، كما تعتبران انتصارا من ابن قيس لعبدالعزيز على أخيه عبدالملك ، ومحاولة لشد أزره في هذا النزاع الذى أثاره الخليفة على ولاية العهد ، وبذلك أغضب ابنُ قيس عبدَالملك وأحفظه ، فتهدده وتوعده(٣) ، وقد أحس الشاعر بالخطر على حياته ، فقال قصيدته البائية التي مطلعها :

بشر الظبي والغراب بسعدى ، مرحبا بالذى يقول الغراب !

وهي قصيدة رمزية يذم فيها المغتاب الذى يأكل لحمه عند الناس ، وهو

---

(١) الأغاني : « ساسي » ١١ : ١٧ .

(٢) النجوم الزاهرة ٣ : ٢٠٨ ومن المعروف أن عبدالملك أرسل بالشعبي إلى أخيه في سنة أربع وثمانين ليقنعه بالبيعة للوليد بن عبدالملك . المصدر نفسه ١ : ١٧٣ ، ٢٠٨ .

(٣) الأغاني « ساسي » ١٦ : ٥٩ .

بذلك يعتذر (١) لعبدالملك عما أثير حول موقفه من قضية الخلافة ،وانتصاره لعبدالعزيز . ونظن أن ابن قيس قالها بعد وفاة عبدالعزيز في أواخر سنة أربع وثمانين (٢) ، لأنه لو كان عبدالعزيز حيا ، لما احتاج الشاعر للاعتذار عن نصرته على هذا النحــو .

وتغمض أخبار الشاعر بعد هذا التاريخ غموضا شديدا ، فلا يحفظ الديوان شيئا من مدائحــه في عبدالملك ، أو رثائــه لعبدالعزيز ، سوى مــا يرويه الأغاني (٣) ، من أن أم البنين حجت في خلافة زوجها الوليد بن عبدالملك (٨٦ ـ ٩٦ هـ) ، فشبب الشعراء بها ، وقال ابن قيس فيها مقطوعته النونية ومطلعها :

ومــا تصـــنع بالســـر   إذا لـــم تــك مجنـــونـا

وكذلك مقطوعته الهمزية التي أشرنا فيما سبق إلى أنها جزء من همزيته التي مدح بها الخليفة الأموى عبدالملك بن مروان(٤) ،ومطلعهــا :

أصحــوت عــن أم البنيـــ   ـــن وذكـــرها وعنــائهــا

ويروى (٥) أبو الفرج أن أم البنين حجت بعد ذلك ، فقال فيها ابن قيس كذلك مقطوعته التي تبتدئ بقوله :

بــان الحبيــب الذى بــه نثــق   واشــتد دون الحبيبـــة القلــقُ

---

(١) الأغانى (ساسى) ١٦ : ٥٧ .

(٢) وقيل إنه توفي عام ٨٦ هـ . انظر النجوم الزاهرة ١ : ٢٠٩ .

(٣) الأغـــانى (دار الكتب) ٦ : ٢١٩ .

(٤) انظر ٨٩ من هذا الكتاب .

(٥) الأغـــانى (دار الكتب) ٦ : ٢٢٠ ـ ٢٢١ .

الفصل الثالث

شعر ابن قيس الرقيات
دراسة فنيّة

(١) الغـــزل

ـ ١ ـ

يحفظ ديوان الشاعر طائفة لا بأس بها من شعره الغنائي ، يدور أكثرهـا حول هذا الحب ، الذى كان موضوع الشعر في ذلك العصر . وقد رأينا فيما مضى أن عصر الشاعر كان عصر فراغ وترف ، بالنسبة لشباب قريش في مكة ، والمدينة على وجه الخصوص ، فقد هدأت تلك الحروب التى شغلت المسلمين حينا ، وفتحت عليهم كنوزا لا تنفد من الحضارة والثقافة ،والثروة. وعاد كثير من الناس من هذه الفتوح إلى مكة والمدينة ، وقد حملوا معهـم غنائم كثيرة ، وأخذوا ـ بفضل ما جلبوه من أموال ورقيق ـ يحيون حياة ناعمة ، قوامها المتعة والدعة والترف . وقد تعاون هذا المال الضخم ، وهذا الرقيق الكثير ، وهذا الفراغ الطويل ، على ازدهار فن الغناء وانتشـاره في الحجاز ، حيث كثر المغنون والمغنيات ، من أمثال « قند » ، و « بديـح » ، و « سائب » ، و« سلامة القس » ، إلى آخر هذه الأسماء اللامعة في تاريخ الغناء العربى في عصر بنى أمية ، وقد حفظ لنا كتاب الأغاني كثيرا مـن أخبار هذه البيوت والأندية ،التى كان يختلف إليها شبـاب قريش في ذلك الحين ، فيجدون فيها من المتعة الفنية ، مايملأ أوقات فراغهم ، وما يدفـع عنهم السأم والملل ، ويزيل عنهم ما ألم بنفوسهم من أحزان ، مصدرها هذا الموقف السياسى المتشدد ، الذى وقفه الأمويون من أبناء المهاجرين والأنصار

في الحجاز ، إذ حـــالوا بينهم وبين ما يطمحون إليه من سلطان . وكان في مكة والمدينة أمثال الثريا ، تلك السيدة القرشية ، التي أخذت تعنى بهذا الجانب الفني ، وما يتصل به من الشعر ، وأصحابه من المغنين والمغنيات ، والشعراء الذين يصوغون هذه الأغاني في شعر عذب رقيق .

وقد رأينا فيما مضى ، أن ذلك كله قد مهد لتطور حقيقي في الشعر والغناء ؛ وكان شاعرنا واحدا من الشعراء الذين نهضوا بهذا اللون الجديد من الشعر الغنائي ، ونريد به شعر الغزل الخالص ، الذى تأثر بالغناء في أوزانه ولغته . وفي أفكاره ومعانيه ، غير أنا نلاحظ أن ظروف الحياة السياسية . وانغماس ابن قيس في أحداثها ، قد حرمه من ذلك الهدوء الذى أتيح لغيره من الشعراء . فلم يتح له تخصيص نفسه لهذا الشعر الذى شاع في هذه البيئات المترفة ؛ والذى كان موضوع أغانيها المفضلة . وربما كانت حاجته إلى المال ، هى التى دفعته إلى أن يطرق شعر المديح ، إلى جانب شعر الحب ، فلم يكن ابن قيس ثريـــا ثراء عمر بن أبى ربيعة ، الذى وقف حياته وفنه وملكته الشعرية على هـــذا اللون من شعر الحب .

وقد استفاد ابن قيس كثيرا ، واستفاد شعره من اتصاله بالمغنين والمغنيات . ومن حياته في هذه البيئة المترفة . حيث الثريا ومغنوها ومغنياتها . وحيـــث أعلام الغناء من أمثال : « ابن سريج » ، « وابن مسجح » . « وابن محرز » في مكة ، وحيث « قند » صديق الشاعر المفضل . وسائب خاثر . وسلامـــة وأختها ريا في المدينة . وسلامة هذه هى التى فتنت عبدالرحمن بن أبى عمار الجشمى ، وقد ذكر ذلك ابن قيس في شعره . فقال :

لقـــد فتنت ريّـــا وسلاّمة القَسّا فـــلم تتركا للقس عقلا ولا نفسا

ونحن لانكاد نمضى في قراءة أخباره التى رواها أبو الفرج في أغانيـــه ، حتى نحس أن حياة ابن قيس إنما هى حياة شاعر غنائي ، فهو يصادق المغنين والمغنيات ، ويتأثر بألحانهم ، ويحضر حفلاتهم (١) ، ويقف على مايريدون إليه من تجديد في الشعر وأوزانه ، حتى يلائم بينه وبين هذه الألحان والأنغام التى يصنعونها .

وقد كثرت المقطوعات التى غُنِّيَ فيها من شعر ابن قيس ، ومن يقـــرأ هذه المقطوعات ، يعجب بمقدرته على النظم في هذا الشعر الذى كان يقطر فيه عواطف الناس من حوله ، وهى عواطف قد انتشر عبيرها في جو مكة والمدينـــة .

ومن يرجع إلى ديوان الشاعر ، يجده قد تعلق بكثير من النساء ، وتغزل فيهن ، وتنوعت لذلك الأسماء التى احتواها شعره ، من أمثال : أمة الغفار ، وتكتم ، وأم مساحق ، وأثلة ، وقسيمة ، وليلى ، وأسماء ، وريا ، وسلامة ومسعدة ، وسعدى ، وسلمى ، وسليمى ، ومريم بنت الحوارى ، وعاتكة ، وسلمة ورقية ، ونعمى وأم عمرو ، وأم الوليد ، وأم البنين ، وكثيرة والثُّرَيا وعائشة وسكينة .

ويجب — قبل أن نشرع في درس هذا الغـــزل وتحليله — أن نقسمه إلى طورين ، الأول : نريد به هذا اللون من الغزل الذى كان يقوله أثناء وجوده بمكة والمدينة ، وقبل أن يتصل بالسياسية ويجرفه تيارها ، ونعني به ما قاله من غزل قبل أن تلم الكارثة بأهله في وقعة الحَـــرَّة المعروفة . واللون الثاني :

---

(١) انظر الأغانى (ساسى) : ٨ / ٧ .

هو ما كان يقوله من غزل في مقدمات قصائده ، في المرحلة التى تلت وقعة الحرة ، بعد اتصاله بالزبيريين في الحجاز والعراق ، ثم بالأمويين بعد ذلك في الشام .

وأول ما نلاحظه في اللون الأول من الغزل الذى كان يقوله قبل اتصاله بالسياسية ، كثرة مقطوعاته التى كانت تخلص للغزل وحده ، دون أن يخلطها الشاعر بمديح أو هجاء ، ولعل هذه الظاهرة أثر من آثار اتصاله بالغناء والمغنين ، وما كان يتطلبه هذا الفن من نظم مقطوعات قصيرة ،تتحقق فيها إمكانات صوتيه وعروضية خاصة ، حتى يتيسر للمغنين تلحينها . وإخراجها على هذا النحو البديع الذى كان يفتن الناس في هذا العصر .

ونلاحظ أن معظم هذه المقطوعات التى حفظها ديوانه . كان يقولها فيمن تسمى « رقية » ، « وسلمة » ، ولعله يريد « برقية » هذه ، « رقية » ابنة عمه عبدالواحد بن أبى سعد .

وقد كان لتسمية معاصريه له بابن قيس الرقيات . أثر بعيد في اختلاط أمر هذه المرأة التى تردد ذكرها في شعره ، على الرواة . فظنوها رقيات ثلاث ، إحداهن ابنة عمه عبد الواحد ، وابنة عم لها ، وأما الثالثة فرقية بنت عبد الله بن جعفر(١) . وهذا خطأ . مصدره ما شاع في ديوانه من مقطوعات غزلية ، كان يكثر فيها من ذكر « رقية » كما قلنا . وفي رأينا أنها لم تكن إلا « رقية » واحدة هى ابنة عمه عبد الواحد . ونعتمد في تأييد هذا الرأى على ملاحظتين(٢) : أولاهما أن القدماء — فيما ذكروه من

---

(١) انظر الورقة الأولى من المخطوط « نسخة عاشر أفندى » .

(٢) لقد نزل الوليد بن عقبه بالرقة في سنة ٣٧ هـ ، انظر مقدمة القصيدة رقم ٤٠ ، وهذا يدل على أن صلة الشاعر برقية قديمة بدأت في سنة ٣٧ هـ أو بعدها بقليل ، فقد جاء في هذه المقدمة أن ابن قيس لحق برقية في الرقة .

شعره في رقية – لم ينسبوا إحدى المقطوعات الغزلية إلى « رقية » أخرى غير ابنة عمه عبد الواحد ، وذلك على الرغم من إجماعهم على أنه كان يشبب بأكثر من « رقية » واحدة .

وثانيهما ، أن ما حفظه ديوانه من غزل فيمن تسمى « رقية » يمتاز بظاهرة فنية ، لا نلحظها فيما كان يقوله في غيرها من النساء . وتتلخص هذه الظاهرة في أن شعره في هذه يصور قصة غرامه بها ، وما طرأ على هذا الغرام من تغير ، وما صادفه من عقبات ، بحيث نستطيع – على ضوء هذه الظاهرة – أن نرتب غزله فيها ترتيبا يكشف عن أسرار هذه العلاقة الغرامية ، ويوضح معالمها .

ولسنا نعرف بالضبط متى عرف ابن قيس رقية ، واتصل بها ، سوى ما يذكره ديوانه من أن معرفته بها جاءت بعد نزوله في أهلها بالرَّقَّة (١) ، وما يذكره الأغاني من أنه لقيها أثناء حَجّها ، إذ يروى عنه « قند » ، مولى عائشة بنت سعد بن أبي وقاص قوله(٢) : «حجت رقية بنت عبد الواحد ابن أبي سعد العامرية ، فكنت آتيها وأحدثها ، فتستظرف حديثي وتضحك مني ، فطافت ليلة بالبيت ، ثم أهوت لتستلم الركن الأسود وقبلته ، وقد طفت مع عبيد الله بن قيس الرقيات ، فصادف فراغنا فراغها ، ولم أشعر بها ، فأهوى ابن قيس يستلم الركن الأسود ويقبله ، فصادفها قد سبقت إليه ، فنفحته بردنها فارتدع ، وقال لي : من هذه ؟ فقلت : أولا تعرفها ؟ هذه رقية بنت عبد الواحد بن أبي سعد ، فعند ذلك قال :

---

(١) انظر مقدمة القصيدة رقم ٤٠ .

(٢) أنظر الأغاني « دار الكتب » ٥/٩٦ .

من عـــذيرى ممن يضـــنُّ بمبـــذو   ل لغيرى ، عليَّ يوم الطـــواف »

ونخلص من ذلك إلى القول بأن معرفة ابن قيس برقية قديمـــة ، كما أنهـــا بنـــاء على شعره — المرأة الأولى في حياته ، وقد شغف بها ، وأخلص في حبها ، وراح يملأ باسمها أركان مكة والمدينة ، في شعر عذب رائع ، تلقفه المغنون والمغنيات ، فأحالوه إلى ألحـــان عذبة .

وتمتاز مقطوعاته في رقية بصدق العاطفة ، التى تنبيء عما في قلبه من حب ووفاء لهذه المرأة التى فتنته ، واعتصرت قلبه ، فأحالته إلى أنغام رشيقة على نحـــو ما نرى في مثل قوله :

رقيـــةُ تيـــَّمَتْ قلْـــبى   فـــوا كَبِـــدِى من الحُـــبِّ
وقـــالـــوا : داؤُه طِـــبٌّ   ألا بَـــلْ حُبُّـــها طِبِّـــى
نَهـــانِـــى إخْـــوتى عنهـــا   ومـــا للقلـــب من ذَنْـــبِ
وعـــن صَفْـــراءَ آنِسَـــةٍ   كخُـــوطِ البـــانَـــةِ الـــرَّطْبِ
ومـــا أَقبَـــلُ نُصْـــحَ النـــا   صِحِى من شِـــدَّةِ الكَـــرْبِ

وهذه اللهفة على رقية ، والتعلق بها ، ممـــا نجده دائمـــا في غزله . فقـــد جذبته خيوط جمالها إلى موطنها الجديد بالرقة ، فذهب اليها ، واســـتطاع لقرابته منها أن يتصل بها ، وأن يظفر منها بمجالس وأحاديث . ويظهر أنهـــا كانت تُدِلُّ عليه لتَغيظة وتُثيره ، وتدفعه إلى التذلُّل لها ، والتوسل إليها أن تمنحه نائلا ولو قليلا . ولنستمع إليه يقول :

رُقَيَّ ! بعَمْـــرِكُم لاتَهْجُرينا   ومَنِّينـــا المُـــنَى ثم امْطُلينـــا

عِـدِينا في غَـدٍ ماشـئتِ إنا نُحِبُّ ، ولو مَطَلْتِ، الوَاعِدِينا
فإمـا تُنْجِـزِى عِـدَتِى وإما نَعيشُ بمـا نُؤَمِّلُ منك حِينًا
أغَـرَّكِ أنى لاصبرَ عنـدى، على هَجْـرٍ ، وأنكِ تَصْبِرِينَا!

ويقول أيضـا :

أتَكْنِى عن رُقَيَّة أم تَبـوحُ ومَنْ تَبَع الهوى حَيْناً فُضُوحُ
أعـوذُ بحُجْزَتِيك رُقَـىَّ إمّا نـوالٌ منك أو قتـلٌ مُـريحُ
إذا ذُكِـرَتْ سَمِيـتُّها كأنـى أرى كَبِـدِى يُلِيحُ بهـا مُلِيحُ
وقالوا : دع رُقَيّـة واجْتَنِبْها! وتَرْكيها إذا خَـرَجَ المَسِيـحُ
أليـسَ اللهُ يعلـمُ أن حُبِّـى رُقَيـةَ ،قد تَضَمّنَه الكُشُوح ؟
أحِبُّكَ أنَّ جيدَكَ جيدُ سَلْمى وعينَكَ أيُّهـا الظبىُ السَّنِيحُ
فديتُكِ فيم أهْجَـرُ ، لا بذَنْبٍ وفِيمَ ووُدُّكُمْ عندى رَبِيـحُ!
كأنِّى ناقِـةٌ من غِبِّ وَعْكٍ ، فأمْثَلُ ما بِى النَّظَرُ الصَّحيحُ

وفي هذه الأبيات تدليل لمحبوبته عن طريق التذلل لها ، وإعلان ولهه بها ، هذا الوله الذى يقنع فيه بأن تعده فهذا حسبه ، وسواء بعد ذلك أوفت بوعدها أم لم تف ، فإن ذلك يكفيه منها هناءة ومسرة . وهذا لون من ألوان التحضر ، ورهافة الحس ، ورقـة الذوق .

ولنستمع إلى هذه المقطوعة في رقية :

حَبَّ ذاكَ الـدلُّ والغُنُـجُ، والـتى في طَـرْفها دَعَـجُ

والتي إن حدثت كذبت ، والتي في وعدها خلج
تلك إن جادت بنائلها فابنُ قيسٍ قلبُه ثلِجُ
وترى في البيت سنتها مثلما في البيعة السُّرُجُ
حدثوني هل على رجل عاشق في قبلة حرج !

وقد أودع ابن قيس هذه الأبيات نفسه جميعا ، فهو محب ، يسعده الحب ويعذبه الحرمان ، وقد صهره الحب ، وأشعل قلبه .

وظل ابن قيس متصلا برقية ، يقول فيها من الشعر ما ينفث فيه عصارة قلبه وعواطفه ، حتى انقطعت أسباب اللقاء بينهما ، فراح يشكو فراقها ويعتب على هؤلاء الذين دفعوه إلى هذا الفراق ، وكانوا السبب فيه فقال :

بان الحي فاغتربوا، وشَفَّ فؤادَكَ الطَّرَبُ
وذكَّرَكَ المنازلَ من رُقَيَّةَ منزلٌ خَرِبُ
به آرِيُّ أفراسٍ وخَيْماتٌ ومُنْتَصَبُ

. . . .

وفَرَّقَ بين أهْلَيْنا قديمُ الذَّحْلِ والغَضَبِ

ويقول :

أتانا رسول من رقية ناصح بأن قَطِين الله بعدك سُيِّرَا
فسار بها حي كرام أعزة ، وخير إذا ما يبتغي غير أعسرا

فلله عينا من رأى مثل قومها ، غداة غدوا ، كانوا أعقّ وأفجرا

. . . .

فواحزنا إذ فارقونا وجاوروا ، سوى قومهم ، أعلى حماة وشيزرا

ويقول أيضا :

شَطَّتْ رُقَيّةُ عن بلا دكَ فالهَوَى مُتشاعِبُ

وعَدَتْ نَوًى عنها ، شَطُو نٌ في البلاد وجانِبُ

واستبدلت بى خلّتى إن النساء خوالب !

ولقد تبدّ لنا بها حينًا فأنعم راغب

فيما استقادوا في البلا د مصارف ومذاهب

ونلاحظ أنه انقطع عن ذكر رقية ، بعد أن ألمت الكارثة بقومه في وقعة الحرة ، سنة ثلاث وستين للهجرة ، إذ نجده بعد هذه الوقعة يتصل بمصعب ابن الزبير ، ويصحبه إلى العراق ، ويقف شعره على مديحه ، وتمجيدانتصاراته وقد شغلته السياسة وأحداثها عن رقية ، وكذلك ما أخذ فيه من الغزل في نساء الزبيريين ، وهن : عائشة ، وسكينة زوجتا مصعب ، وأخته التى كان يسميها « ابنة الحوارى » ، على نحو ما ذكرنا ، وبنساء الأمويين في قصائده السياسية .

ويجب ــ قبل أن نأخذ في درس هذا اللون الجديد من غزله الذى كان يقدم به لمدائحه في الزبيريين ، أو الأمويين ــ أن نتبين خصلتين يمتاز بهما

غزله في رقية : فأما الأولى فهى ما نلاحظه من هذا التطور الواضح الذى أصاب الشعر الغنائى في عصره ، بفضل هذه الحضارة الجديدة ، وواضح أن ما عرضنا له من مقطوعات غزلية ، لا يماثل الشعر القـديم شعر القصيد(١) ، فهى مقطوعات غزلية خالصة ، تأثرت بظروف اجتماعية متحضرة ، وروعيت فيها شروط خاصة ، وهذا شىء طبيعى ، فقد تغيرت الحياة ، وارتقـت الأذواق ، وتطورت التقاليد ، وأصبح للمرأة العربية مكانتها في المجتمع الجديد ، وقد أتيح لها من الحرية وأسباب الترف ، ما لم تكن تتمتع به من قبل ، ولذلك فنحن نجـد في هذا الغزل صورا جديدة ، تعبر عن دلال المرأة المترفة ، وغزلها ونفسيتها ، بكل ما أصابتها به الحضارة الوافدة من رقى وتحضر . وفيه إلى جانب ذلك — ما يدل على رهافة الشعور ، ورقة الحس .

وبجانب هذا التطور في المعنى ، نجـد تطورا آخـر في الأساليب والألفاظ والأوزان ، فاللغـة سـهلة ، والألفاظ منتقاة مألوفة للناس ، ليس فيها هذا الإغراب الذى نجده عند القدماء من شعراء الجاهلية ، وليس في الأسـلوب هذا التراكب الذى يلتوى بالمعنى أحيانا(٢) .

وقد اهتم ابن قيس في هذه المقطوعات الغزلية ، باستخدام الأوزان الخفيفة ، واستطاع بذلك أن يوفر ضروبا واسعة من التلاؤم بين هذه المقطوعات ، وبين حاجة المغنين في عصره ، وهى ضروب وقفت عند الوزن الذى يتمثل

---

(١) انظر كارل نلينو فى كتابه : « تاريخ الآداب العربية » : ١٠٣ — ١٠٤ ، والمقطوعات الغزليـة الخالصـة التى وصلتنا من الشعر الجـاهلى قليلـة ، بحيث لا تصلح لأن نقيم عـلى أساسهـا رأيـا .

(٢) وقد لاحظ ابن سـلام هذه السهولة التى تمـيز بها ونقدها ، انظر الطبقات : ٢٠٤ وقد تابعـه فى ذلك أبو عمـرو بن العـلاء فوصف شـعر ابن قيس الرقيات بأنه شعر رخى . انظر الخصائص لابن جنى : ٣/٣٩٣ .

في استخدام مثل : الهزج ، والوافر ، والمتقارب ، والرمل ، والسريع ، وإيثارها على هذه الأوزان الطويلة التي يرغب عنها المغنون والمغنيات ، لأنها لا تمكن لهم من تلحين هذه الأغنيات ، وإخراجها هذا الإخراج الصوتي الرائع الذي كان يقطع على الحاج طريقهم .

وثانيهما ما نلاحظه من أن الغزل ، قد أخذ ينفصل عن القصيدة القديمة ، ويستقل بقصائد ومقطوعات ، لا يخلط الشاعر فيها بينه وبين تلك الفنون القديمة من مديح وهجاء . على نحو ما كان يفعل القدماء من الشعراء . ومن يقرأ ديوان ابن قيس ، أو ديوان عمر بن أبي ربيعة ، يدهش لهذه العناية الواسعة وهذا التطور الكبير الذي أصاب القصيدة القديمة ، في شعر هذين الشاعرين الغزلين ، ولو قد أتيح لابن قيس ما أتيح لعمر من ثراء وفراغ وأمن ، لكان من المرجح أن تزداد عنايته بالغزل الخالص ، وأن تختفي من ديوانه هذه الفنون التقليدية من مديح وهجاء ورثاء كما حدث لعمر .

وفي الحق أن غزل ابن قيس في رقية ، وفي غيرها من النساء ، يمثل هذه النهضة التي نهضها الشعر الغنائي في عصره ، بما شاع فيه من الملاءمة بين لغته ولغة الجمهور ، ومن الملاءمة بين أوزانه وألحان المغنين .

وباتصال ابن قيس بالسياسة ، يقل هذا الغزل الخالص الذي عرضنا لبعض نماذجه ، فاتصاله بمصعب كان يحتم عليه العودة للنظام التقليدي المتوارث لقصائد المديح القديمة ، والتي كان الغزل أحد عناصرها ، وهو في غالب الأحيان المطلع الأصيل الذي يمهد به الشاعر لمديحه أو هجائه ، وعتابه ، ولذلك فنحن لا نظفر في شعره الذي قاله بعد اتصاله بالسياسة ، إلا بعدد قليل جدا من المقطوعات الغزلية الخالصة التي كان يقولها في زوجتي مصعب : عائشة بنت طلحة ، وسكينة بنت الحسين .

وينبغى أن نلاحظ أن هذا الغزل الذى كان يقوله في عهد ملازمته لمصعب ، كان غزلا سياسيا ، سواء في ذلك ما كان يقوله في عائشة وسكينة زوجتى مصعب ، أو ما كان يقوله في أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان ، وعاتكة بنت يزيد بن معاوية زوج الخليفة الأموى عبد الملك .

ونستطيع – لكى نفرق بين غزله في نساء هذين البيتين – أن نصف غزله في زوجتى مصعب بأنه مديح ، كان يريد به الشاعر إلى الدعاية لمصعب ولأهل بيته . وأما ما كان يقوله في نساء الأمويين من غزل يقدم به لقصائده في مصعب ، فهو هجاء سياسى كان يريد به إلى إغاظة الخليفة الأموى ، والنيل منه . والنصوص التى بين أيدينا تؤيد ما ندعيه ، فهو يقول في عائشة – وكان سفر بينها وبين مصعب(٥) :

إن الخليط قد ازمعوا تركى ... فوقفت في عرصاتهم أبكى

جنية خرجت لتقتلنا ... مطلية الأقراب بالمسك

قامت تحيينى فقلت لها : ... ويلى عليك وويلتى منك

لم أدر مثلك لا يكون لها ... خرج العراق ، ومنبر الملك

ترمى لتقتلنا بأسهمها ... ونزينها بالحلم والنسك

فهو يريد إلى مديح عائشة وإعلاء شأنها ، وبيان حقها وحق زوجها مصعب في الملك والحكومة ، وهو غزل أريد به إلى غاية سياسية .

واستمع إليه يقول في سكينة بنت الحسين – لما تزوجها مصعب ، ورحل بها إلى العراق – :

---

(١) انظر الأغانى « ساسى » ١٠ / ٥١

طعن الأمير بأحسن الخلق وغدا بلبك مطلع الشرق
مرت على قرن يقاد بها جمل أمام برازق زرق
وبدت لنا من تحت كلتها كالشمس أو كغمامة البرق
. . . .
في البيت ذى الحسب الرفيع ومن أهل التقى والبر والصدق
قرشية عبق العبير بها عبق العبير بعاجة الحُق
. . . .

وليس في هذه الأبيات سوى مديح لسكينة ، وإعلاء لشأنها ، فهى قرشية ، رفيعة النسب ، رائعة الجمال .

— ٢ —

وبجانب هذا الغزل الذى نسميه مديحا ، والذى اختص به الشاعر نساء الزبيريين كان ثمة غزل آخر يمكن أن نسميه هجاء ، واختص به ابن قيس عاتكة بنت يزيد بن معاوية ، زوج الخليفة الأموى عبد الملك ، وأم البنين بنت عبد العزيز بن مروان ، زوج الوليد بن عبد الملك ؛ وقد نحا في هذا الغزل الهجائى منحى جديدا لا نظفر به عند شاعر آخر من شعراء الغزل والسياسة الذين سبقوه ، وقد فتح به بابا جديدا للعرْجى من بعده ، الذى يروى الأغانى أنه تغزل بجيداء أم محمد بن هشام ، وبزوجه بجيرة(١) ليغيظه ويثيره :

(١) انظر الأغانى « ساسى » ١ /١٤٨ — ١٤٦ ، وانظر طه حسين في حديث الأربعاء : ٢٥٠ — ٢٥١ .

وبلغ ابن قيس من هذا الغزل الهجائى مالم يبلغه أحد من شعراء العصر الأموى ، فلم يكن يكتفى بالنسيب المألوف ، يذكر فيه المرأة التى يريد إلى هجائها وإغاظة قومها ، كما كان يفعل العرجى ، وعبد الرحمن بن حسان ابن ثابت(١)مثلا ، وإنما كان يتخيل القصص ويخترع الأخبار ، ويسرف في تفصيلهما إسرافا شديدا . وكان يحرص على أن يمهد بهذا اللون من الغزل الهجائى لمدائحه في مصعب بن الزبير ، حتى يبلغ ما يريد إليه من إغاظةالخليفة وإثارته ، وقد بلغ من ذلك ما أراد . وفوق ما أراد . وما نحسب ثورة عبدالملك عليه وإهداره دمه ، إلا أثرا من آثار هذا الغزل .

وينبغى أن نلاحظ أن ابن قيس في هذا الغزل ، كان يريد إلى إغاظة خصومه ، ولكنه كان يحرص على ألا يؤذى المرأة التى يتغزل فيها ، ولا أن يعرضها لما تكره أن تسمعه أو تلقاه ، وإنما كان يريد أن يتلطف بها ، وأن ينزل شعره من نفسها منزلة الرضا والإعجاب .

ولنستمع إلى هذه القصيدة التى يمدح بها مصعبا ، ويذكر فيها أم البنين ، فهى تمثل هذا اللون من غزله الهجائى تمثيلا صادقا ، قال ·

ألا هزئت بنا قُرَشِيّـ ـةٌ يهتَزُّ موكِبُها
رأت بى شيبة في الرأ س منى ما أغَيِّبُها
فقالت : أبن قَيْسٍ ذا وغير الشيب يعجبُها !
رأتنى قد مضى منى ، وغضات صواحبها

---

(١) انظر شعره في رملة بنت معاوية وأخباره معها في الأغانى « ساسى » : ١٣ /١٤١ — ١٤٣ ١٤/ ١١٧ — ١٢٢ .

ومثلك قد لهوت بها ، تمامُ الحسن أعْيَبُها
لها بعل غيور قا عد بالباب يحجبها
يراني هكذا أمشي ، فيوعدها ويضربها
ظللت على نمارقها أفديها وأخلُبُها
أحدثها فتؤمن لي ، فأصدقها وأكذبُها
فدع هذا ولكن حا جة قد كنت أطلبها
إلى أم البنين متى يقربها مقربها
أتتني في المنام فقلتُ هذا حين أعقبُها
فلما أن فرحت بها ، ومال علي أعذبها
شربت بريقها حتى نهلت وبت أشربها
وبت ضجيعها جذلا ن ، تعجبني وأعجبها
وأضحكها وأبكيها وألبسها وأسلبها
أعالجها فتصرعني فأرضيها وأغضبها
فكانت ليلة في النو م نسمرها ونلعبها
فأيقظنا منادٍ في صلاة الصبح يرقبها
فكان الطيف من جنيّةٍ لم يدر مذهبها
يؤرقنا إذا نمنا ويبعد عنك مسربها !

وهذه المقدمة الغزلية الطويلة التى قدم بها لمديح مصعب ، تدور حول غرضين : أولهما السخرية من الخليفة – وهو زوج من يزعمها صاحبته – بأن رسم له هذه الصورة الساخرة ، التى تصوره زوجا غيورا غافلا ، يرى صاحب زوجته ، وقد أخذ يدور حول بيتها ، فيثيره ذلك ويهيجه ، ولكنه لا يستطيع أن يفعل شيئا سوى أن يتوعد زوجته ويضربها ، وهى صورة فيها ابتذال وسخرية ، وهى خليقة أن تبعث على الضحك والاحتقار في آن واحد .

وثانيهما ، هذه القصة الغرامية التى وصف فيها لقاءه بأم البنين ، واستمتاعه بها على هذا النحو الذى جاء في هذه الأبيات ، وقد احتاط ابن قيس لنفسه ولأم البنين ، فزعم أن هذه القصة الطويلة المفصلة إنما وقعت في النوم ، ومعنى ذلك أن كرامة أم البنين موفورة ، وهى لذلك خليقة أن تتيه بهذا الجمال الذى فتن الشاعر ، وأثار عواطفه ، ودفعه إلى التشبيب بها على هذا النحو الذى أغضب عبد الملك ، ويبدو أنه أرضى أم البنين ، ومن هنا نستطيع أن نفهم ما يقال من أن أم البنين قد شفعت له لدى عمها !

* * *

وكما كان ابن قيس يستخدم الغزل الهجائى في نساء الأمويين ، وسيلة سياسية إلى إغاظة الخليفة ، والنيل منه ، فإنه كان يتخذ هذا الغزل في نسائهم أيضًا وسيلة إلى التعبير عن رأيه السياسى فيما ثار بين الأمويين وأبناء عمومتهم ، من الزبيريين والهاشميين من حروب وفتن . وهو هنا لا يشبّب بأم البنين ، وإنما يتغزل في عاتكة بنت يزيد ، زوج الخليفة ، فيقول – في إحدى مدائحه لمصعب – وكأنه يوحى بذكر اسمها إلى أن يزيد أباها هو سبب تلك الخلافات القائمة :

أعاتِكَ بنت العبشمية عاتكا ، أثيبي امرءًا أمسى بحبك هالِكا

بدت لى في أترابها فقتلتنى ، كذلك يقتلن الرجال كذلكا !

نظرن إلينا بالوجوه كأنما جلون لنا فوق البغال السبائكا ،

إذا غفلت عنا العيون التى ترى ، سلكن بنا ، حيث اشتهين ، المسالكا

وقالت لو انّا نستطيع لزاركم طبيبان منا . عالمان بدائكا

ولكن قومى أحدثوا بعد عهدنا وعهدك ، أضغانا كلفن بشانكا

تذكرنى قتلى بحرّة واقِمٍ أصيبت ، وأرحاما قطعن شوابكا

وقد كان قومى ، قبل هذا ، وقومها قد اوروا بها عودا من المجد تامكا

هم يرتقون الفتق قبل انخراقه بحلم ، ويهدون الحجيج المناسكا

فقطّع أرحام وفضت جماعة ، وعادت روايا الحلم بعدُ ركائكا

فمن مبلغ عنى خليلىّ آية ، عيينة أعنى بالعراق ومالكا :

فهل من طبيب بالعراق لعله يداوى كليما هالكا متهالكا

فلولا جيوش الشام كان شفاؤه قريبا ، ولكنى أخاف النيازكا !

أخاف الردى من دونها أن أرومها ، وأرهب كلبا دونها والسكاسكا

رجال هم الأقتال من يوم راهط ، أجازوا الغِوار بيننا والتسافكا !

وواضح أن الشاعر يتخذ الغزل في عاتكة ، وسيلة إلى تخطئة الأمويين في سياستهم ، التى أدت إلى كل هذه المحن والخطوب ، وتسببت في انقسام قريش على نفسها . وقد راح يعدّد هذه الأخطاء ، فذكر منها وقعة الحرة التى قتل فيها جيش يزيد كثيرا من أهل المدينة ، وكذلك وقعة مرج راهط التى

قتل فيها الضحاك بن قيس ، والتى ناصرت فيها الكلبية مروان وقومه من بنى أمية . وكان ابن قيس يمزج - على هذا النحو - الغزل بالسياسة مزجا شديدا ، ويتخذ هذا المزيج وسيلة إلى إغاظة الخليفة ، والنيل منه ، أو يتخذه وسيلة إلى التعبير عن آرائه فيما نزل بقريش من أحداث ، كانت ذات أثر كبير فيما انتهت إليه الأمور في العصر الأموى .

وينبغى ألا نعتد كثيرا بهذه الأخبار التى يروى أصحابها ما يؤكد تعلق ابن قيس بأم البنين وحبه(١)لها ، فقد كثر الكذب والاختراع على شعراء الغزل في العصر الأموى ، وأشاع الرواة عنهم كثيرا من القصص الخيالى ، وقد حفظ كتاب الأغانى طائفة كبيرة منه . فصلة ابن قيس بأم البنين ، كانت صلة سياسية ، لاتتعدى محاولة إغاظة قومها ، والنيل منهم . ويؤيد هذا ما نلاحظه من أن معظم غزله فيها ، وفي عاتكة ، كان مقدمات لمدائحه في مصعب بن الزبير ، كما رأينا في هاتين القصيدتين ، ولمدائحه في الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان بعد ذلك في الشام(٢). وقد رأيناه من قبل يتغزل في سكينة بنت الحسين ، وعائشة بنت طلحة زوجتى مصعب ، ويرفع من شأنهما ، ولم يقل أحد أنه أحبهما أو تعلق بهما . وينبغى إذن أن نفهم هذا الغزل على وجهه الصحيح ، وأن نقدر غايته التى كان يقصد الشاعر إليها .

وهذا الغزل السياسى ، يمتاز بعاطفة حارة شأنه في ذلك شأن مقطوعاته الأخرى التى كان يوجهها في ابنة عمه رقية . ولكن مصدر هذه القوة والحرارة ، ليس في أنه كان صادقا في وصف عاطفته نحو أم البنين وعاتكة،

(١) انظر الأغانى « دار الكتب » ٦ /٢٢٠ - ٢٢١ .

(٢) نفسه « ساسى » ١١ /٤٧ - ٤٨ .

وإنما مصدرها ما كان يمتاز به شاعرنا من دقة الحس ورقة العاطفة ، وانفعاله بالجمال وتأثره به ، فقد كان يحمل في نفسه صورة من جمال النساء ، يخلعها على من أراد أن يذكرها في شعره لأى سبب . وكانت هذه الصورة تسمى أم البنين حينا ، ورقية حينا آخر ، وحبابة وسلامة وسعدة ، إلى آخر هذه الأسماء التى كان يذكرها في غزله ؛ وهذا أيضا مما يصعب موقفنا حين نريد إلى وصف عاطفته ، وتصويرها على وجهها الصحيح .

ومن هذا الغزل الذى كانت تحكمه الاعتبارات الخاصة ، ما كان يقوله في « كثيرة » ؛ اعترافا بفضلها وفضل زوجها عليه . وقد أسلفنا أنه عرفها ، وعرف زوجها قبل اتصاله بالأمويين .

ولابن قيس في « كثيرة » هذه غزل يدل على مقدار ما أصاب هذا الفن من تطور في التصوير على يديه . ومن هذه المقطوعات ما يقوله فيها :

ظعنت لتحزننا كثيره ، ولقد تكون لنا أميره !
شبت أمام لداتها بيضاء سابغة الغديره
ريا الروادف غادة ، بين الطويلة والقصيرة
حلت فلاليج السوا د ، وحل أهلى بالجزيره

. . . .

من نسوة كالبَيْضِ في الـ أُدْحِىّ ، بالدمث المطيره
فوق الجلود يفوح من أردانها ، عبق الذريره

ويغلب على غزله في كثيرة وصفها بالترف والرقى ، ويطنب في وصف

عطرها وملابسها(١). وليس في هذا الغزل ما يدل على أنه اختفى عندها بعد مقتل مصعب سنة اثنتين وسبعين للهجـرة على نحو ما يذكر الرواة ؛ وقـد اعترف الشـاعر في أولى مدائحه لعبد الملك ، بأنه لم تكن بينهما علاقة غرامية متبـادلة ، فقـال :

عـادَ له من كَثيرةَ الطـربُ، فعينُـه بالدمـوع تنسـكبُ
كُوفيـةٌ نـازحٌ محلـتُها ، لا أَمَـمٌ دارُهـا ولا صَقَـبُ
والله مـا إن صبَتْ إليَّ ، ولا يُعْلَـمُ بيـنى وبينهـا نَسَبُ
إلا الذى أوْرَثَت كَثيرَةُ في الـ ـقَلْبِ ، وللحبِّ سَوْرَةٌ عَجَبُ

وهو يذكر في هذه الأبيات أن كل ما كان بينهما من صـلة ، تتلخص فيما أورثته قلبه من هذا الحب الذى لاتخمد نيرانه ، وهو حب من طـرف واحد . ولعل في هذا ما يؤكد ما نذهب إليه ، من أن غـزله فيها كان محاولة لشكرها ، على ما قدمت إليه – هى وزوجها – من معروف .

– ٢ –

وتظهر في غزل ابن قيس في هذا الطور صورة أخرى ، تختص بمـا كان يقدم به من غزل ، لتلك القصائد والمقطوعات التى كان يغنى فيها أحـزانه وآلامه ، وكذلك ما كان يقدم به لقصائد المديح في ذلك الحين ، وبخاصـة ما كان يقوله في الأمويين منها .

ونستطيع أن نؤرخ لهذه الصورة الأخرى من غزله بوقعة الحرة ، فقـد تركت هذه الوقعة أثرا كبيرا في نفسـه ، وغيرت حياته الاجتماعية تغيـيراً

(١) انظـر المقطوعة رقـم ٦ ، ٢٣ .

يكاد يكون تامـــا ، فانصرف عن اللهـــو ، واتصل بالسياســـة ، وأخـــذ يتقرب إلى رجالها ، ويقف فنـــه على مديحهم ، والدعوة إليهم .

وقد ظل أثر هذه الوقعـــة ومن قتل فيها من أقاربه وأهل بيتـــه ، عالقـــا بذهنه ، وأخذ يظهر من حين إلى آخـــر في قصائده .

وقد تحول حقـــده على الأمويين إلى التشبيب بنسائهم ، يريد بذلك — كما رأينـــا — أن ينـــال منهم ، ويغيظهم .

وهو في غـــزله الآخر ، يصور ما ألم بنفســـه ، فيتراءى شيخا ضعيفا ، قد علت بن السن ، وظهر في رأســـه الشيب ، فوهن عظمه وشاب أولاده ، فأخذ يسترجع ماضيه مع النســـاء ، ويذكرهن به ، ويود لو يجاملنه ويرفقن به ، ولكن النساء — كعادتهن — يعرضن عن هذا الشيخ المتصابي ، ويهزأن به وبعاطفته ، وينكرن عليه الصبابه والغزل . وقد ترك هذا كله في غزله آثاره التي تتمثل فيما يغلب عليه من حـــزن ، وبكاء للشباب ، وحنين إليه، ومقت للمشيب ، وتبرم به ، فيقول — من إحدى قصائده في رثاء قتلى الحـــرة — :

قالت كَثِيـــرَةُ لى قـــد كـــبر ت ، وما بك أليوم من داهِمَـــه
رأتْ رجـــلاً شـــاحِبـــاً لونُه ، أخا سَـــفَرَ أَنْزَعَ القـــادِمَـــه
تَخَـــوَّنَهُ الدهـــرُ إخـــوانَه ، كَثِيرَة قـــد كنتِ بى عالِمَه !

ويقـــول :

ذهب الصِّبَىَ وتركت غَيَّتِيَـــهْ ، ورأى الغوانى شـــيب لِمَّتِيَـــهْ
وهجـــرنى ، وهجرتهن ! وقـــد غنيـــت كرائمهـــا يطفـــن بيـــه
إذ لمـــتى ســـوداء ليس بهـــا وضح ، ولم أفجـــع بأخـــوتيـــه

ويقول – من إحدى قصائده – وقد ترك الجزيرة إلى فلسطين :

أزجرت الفـؤاد منك الطـروبا ، أم تصـابيت إذ رأيت المشـيبا
أم تذكرت آل سـلمة إذ حلـ ـوا رياضا من النقيـع ولـوبا !
يوم لم يتركـوا على مـاء عمق ، للرجـال المشـيعين قلـوبـا
رجعـوا منـك لائمـين ، فكلٌّ راح من عندكم حريبـا سـليبا
وبعينيك ، إذ غـدا الحـى حتّى عسـف الحى باليمـين الكثيبـا

إلى أن يقول :

هزأت أن رأت بى الشيب عرسى ، لاتلومى ذؤابـتّى أن تشـيبا
إن يشـب مفرقى فإن قريشـا ، جعلت بينهـا الحروب حـروبا !

ويصور هذا الجانب أيضا ، ما جاء في همزيته – الّتى قالها بعد إفلاته من أسر عمـير بن الحباب السلمى – فيقول :

ذهبت ولم تـزر أهـل الشـفاء ، ومالك في الزيـارة من جـداء
كبرت ، فلست من شرط الغوانى وفارقت الصبـا غـير الخنـاء
وشـاب بنـوك فاستحييت منهم ، وأبـت إلى العفـافة والحيـاء
وجُرْم قد حملت جنـاه غيرى ، وفيت بـه على حـسب الوفـاء !

وحين نتجاوز ذلك كله إلى قصائده في المديح ، نجـده يقدم لبعض هذه القصائد بالوقوف على الديار ، ذلك الوقوف الذى يستمد أصوله من التقاليد القديمة للقصيدة العربية من بكائها ، وبيـان ما أصابها – بعد رحيل الأحبـة منها – من خراب ، فإذا هى قفـر خلاء ، وإذا بالأيام والحوادث قد نالت

منها ، فصارت معـــالم ورسوما ، لايستطيع ـ في وقوفه عليها ـ أن يتبين شـــيئا من أخبار أصحابها الذين تركوها .

ومن ذلك ما قدم به لميميته في مديح عبد الملك بن مروان ، فقال :

ما هاج من مـــنزل بـــذى علـــم بـــين لـــوى المنجنون فالثَّـــلم
فَبِئْرُ قَـــوٍّ عفت معارف مبـــ ـــداك ، بهـــا الغاديات بالرِّهَـمَ
. . . .

ويقدم لهمزيته الرائعة في مديح مصعب بن الزبير بقوله :

أقفرت بعد عبد شـــمس كداء ، فكُـــدَيٌّ فالركـــن فالبطحـــاءُ
فمـــنى فالجمار من عبد شـــمس ، مقفـــرات فبلـــدح فحِـــراء
فالخيـــام التى بعســـفان ، فالجحفـ ـــة منهـــم ، فالقـــاع فالأبواء
موحشات إلى تَعَـــاهِن فالسقـــ ـــيا قفـــار من عبد شمس خـــلاء
. . . .

ولعل هذا اللون من الوقوف على الديار ، والبكاء عليها ، على نحو ما كان يفعل الشـــعراء الجاهليون ، أثر من آثار هذه الأزمة النفسية التى تأخـــذ به منذ وقعة الحرة ، ومنذ أن هاجت الحروب بين قريش ، فقضت على وحدتها . فهو يوحى بهذه الخرائب والقفار إلى ما أصاب قريشـــا من تفكك ، وما نزل بها من مصائب ، بسبب هذه الحروب التى ركب فيها الشاميون من اليمنيـــة قريشـــا ، وأهل الحجاز عامـــة .

ـ ٤ ـ

ونلاحظ أنه ـ بجانب هذه المطالع التقليدية ـ كان يقـــدم لمدائحـــه في

الأمويين ، بالغزل فيمن يسمين كثيرة ، ورقية ، وسعدى ، وكأنه يوحي بذكر هذه الأسماء في غزله ، إلى ماضيه في العراق والحجاز ، قبل أن تلم الكارثة بأهله في وقعة الحرة ، وبصديقه مصعب بن الزبير في دير الجاثليق . فهو يغني هذه الأيام ، ويتحسر عليها ، فقد كانت حياته في الحجاز ، حياة لاهية قوامها المتعة ، ومصاحبة المغنين والمغنيات ، كما كانت حياته في كنف مصعب ، حياة هادئة ممتعة ، فمصعب شاب من شباب قريش ، كان بحرا في الجود والكرم ، فضلا عن أنه كان أثيرا لدى الشاعر ، محببا إليه ، بفضل شجاعته التي تجلت في صد غارات الشاميين ، التي كان يقودها الأمويون أعدى أعداء الشاعر كما قال في إحدى قصائده(١) . فهو يقول ، في أولى مدائحه لعبد الملك متغزلا في كثيرة — زوج علي بن عبد الله بن عباس كما قدمناه — :

عاد له من كثيرة الطربُ ... فعينه بالدموع تنكسبُ

كوفية نازح محلتها ، ... لا أمم دارها ولا صقب

إلى أن يقول :

ما ضرها لو غدا بحاجتنا ... غاد كريم أو زائر جنب

لم يأت عن ريبة وأجشمه الـ ... ـحب ، فأمسى وقلبه وصب

يا حبذا يثربٌ ولذتها ... من قبل أن يهلكوا ويحتربوا

. . . .

ولكي نفهم علة هذا النغم الحزين الذي قدم به لمديح عبد الملك ، ينبغي أن نعرف أن هذه أولى مدائحه للخليفة الأموي بعد قتله لمصعب بن الزبير ، واستئمانه للشاعر .

---

(١) انظر همزيته التي مدح بها مصعبا « قصيدة رقم ٣٩ » بيت رقم ٥٩ .

ولدينا قصيدة في مديح بشر بن مروان ، بدأها الشاعر بالغزل فيمن تسمى سعدى فقال :

قد أتانا من آل سعدى رسول ، حبذا ما يقول لى وأقول
من فتاة كأنها قرن شمس ، ضاق عنها دمالج وحجول
حبذا ليلتى بمزة كلب ، غال عنى فيها الكوانين غول!
بت أسقى بها وعندى مصاد ، إنه لى وللكريم خليل
مَقَدِيًّا أحله الله للنا س شرابا ، وما تَحِلُّ الشَّمول
عندنا المُرْشِفات من بقر الإنس ، هداهن لابن قيس دليل !

ثم يأخذ بعد ذلك في مديح بشر بن مروان .

وليست هذه أول مرة يذكر فيها سعدى هذه ، وإنما سبق أن تحدث عنها في إحدى مقطوعاته التى قالها في المدينة ، في أواخر زمن معاوية ، وأشار فيها إلى حياة اللهو التى يحياها ، والتى أخذ في تنغيصها عليه ، مصعب بن عبد الرحمن بن عوف ، بما عرف عنه من شدة في ضبط المدينة ، فقال :

عَلِّلِ القومَ يشربوا ، كى يَتَلَذَّذُوا ويطربوا
إنما ضلل الفؤا د ، غزال مربرب
فرشته على النما رق سعدى وزينب
وسياط على أكـ ـف الرجال تقلب !

ونستطيع الآن أن نربط بين هاتين المقطوعتين : المقطوعة التى يمدح بها بشرا ، والمقطوعة التى يذكر فيها شدة مصعب بن عوف . ونستطيع أيضا أن نفهم لماذا اختار سعدى هذه ، ليقدم بالغزل فيها لمديحه في بشر ، فليس

من شك ، في أنه يرمز بها إلى ما أصاب من خير وأمن ، فقد عفا عنه الخليفة الأموى بعد أن أهدر دمه ، وقد رضى أن يعطيه عطاءه من بيت مال المسلمين ، بعد أن حرمه منه . وها هو يعود إلى العراق ، حيث بشر هذا البحر الفياض ، الذى وهبه مرة عشرة آلاف .

الماضي إذن قد عاد ، أو أوشك أن يعود ، بما فيه من سلام وسعادة ، وخليق بابن قيس أن يتغنى بما كان يتغنى به من أسماء سعد بأصحابها في ذلك الماضي البعيد . ونجده في بائيته التي يمدح بها عبدالعزيز بن مروان ، يقدم لهذا المديح بمقدمة غزلية ، تكشف عما بنفسه من فرح وسرور ، فيقول :

لم يصح هذا الفؤاد من طربه ... وميله في الهوى وفي لعبه

أهلا وسهلا بمن أتاك من الـ ... ـرقة ، يسرى إليك في سخبه

باتت بحلوان تبتغيك كما ... أرْسل أهلُ الوليد في طلبِهْ

لو أنه أخر النداء أبو ... رمح ، لقضّى إليك من أربه

ثم يأخذ في وصف حلوان ، ومديح عبدالعزيز بن مروان . وخليق به أن يفرح ويستبشر ، فقد لزم عبدالعزيز ، وأقام معه بمصر ، وكاد يكون شاعره ، فصفت أيامه ، وطابت معيشته ، وهذا كله يدل على أنه كان يختار هذه المطالع ، ويؤلف بينها وبين موضوع القصيدة تأليفا يصور ما بنفسه من آمال وآلام ، ويرمز إلى ما أصاب من خير أو شر في حياته الحاضرة .

ونستطيع أن نجد بذورا لهذا الجانب من التعبير ، في شعره الذى كان يقوله قبل اتصاله بالسياسة ، وبخاصة ما كان يقوله في رقية ، فقد كان يرمز إلى اسمها باسم « نعم » تارة ، و « أم عمرو » تارة أخرى ، كما كان يمهد لمديح

عبدالله بن جعفر بالغزل في « رقية » ، ولكنه لا يذكر اسمها صراحة ، وإنما يرمز إليها باسم « نعم » و « أم عمرو » ، فيقول (١) :

من عــذيرى ممــن يضن ببــذو ... ل لغــيرى ، عليَّ يومَ الطوافِ
أحور العين ، فائق الحسن ، حلو الـ ... ـقول ، مــر الفعال ذى إخلاف
يعــد الوعــد ثم يلفــى بخيــلا ، ... كاذب الوعد وَأْيُهُ غــير واف
إن في الناس ، فاعلمى أم عمــرو ... راحة والبيــان للمــرء شــاف

. . . .

لا أرى ما وعدتــنى أم عمــرو ، ... كائنــا ماشى على الأرض حاف
أنت تَيَّمْتِــنى وأقصدت قلبى ... منك يانعــم بالعــدات الصواف
يعلــم الله أن حبــك مــنى ... في ســواد الفؤاد وسط الشــغاف
إن تجــودى أو تبخلى أم عمرو ، ... حبــذا أنت من حبيــب مصاف
فتعــدَّ الغــداة عن ذكــر نعم ، ... ببــنى هاشم بن عبــد منــاف !

وقد فطن أبو الفرج إلى ما يريد إليه ابن قيس ، فأشار إلى أن هذا الغــزل في رقية بنت عبدالواحد (٢) ، ويؤيد ذلك ما جاء في إحدى مقطوعاته فقال :

رُقَىَّ بعمــــركــم لاتهجــرينا ... ومنينــا المــــنى ثم امطلينــــا

إلى أن يقول :

تقــنَّ الله فيَّ رقــى ، واخشــى ... عقــوبة أمــرئًا لاتقتلينــــا

---

(١) يظهر أن هذا الجانب من الرمز ، قد شاع لدى شعراء الغزل في المدن الحجازية ، إذ نجده في شعر عمر بن أبي ربيعة . انظر : التطور والتجديد في شعر العصر الأموى : ١٩١ ، والأغانى « دار الكتب » ١ / ٩٩ ، ١٨٣ ، ٤ / ٢١٣

(٢) الأغــانى « ساسى » ٤ / ١٦٥ .

بعيشــك وارفقي بــي أم عمــرو ويَوْمَ رجال أهلك يَنْـــذُرُونا

. . . .

وفي إحدى قصائده التي يفخر فيها بقومه ، نجده يرمز لأم البنين سليمى (١) فيقول :

شَـــأَتْكَ عين دموعها غسق ، في إثـــر حـــى سُـــلاّفهم فِرَقُ

منهم ســليمى ، وجارتان لهـــا ، والمســـك من جيب درعها عبــق

كأنهـــا دميـــة مصـــورة ، ميـــع فيهـــا الزرياب والـــورق

إن ختمت ، جـــاز طين خاتمهـــا كمـــا تجوز العَبْـــدية العتـــق !

ويتضح هذا الجانب الرمزى في التعبير عن أفكاره ، في قصيدته التي عنون لها جامع الديوان بقوله : « عبيد الله بن قيس يذكر المغتـــاب والمرائي » . ولا يلاحظ جامع الديوان شيئا عن الغرض الذى قيلت من أجله القصيدة ، وهى عنده قصيدة عادية ، يذم فيها المغتاب الذى يأكل لحم الناس ، ولكن أبا الفرج(٢) فطن إلى مايرمز إليه الشاعر من الاعتذار لعبد الملك بن مروان ، وتبرئة نفسه مما نسب إليه في مسألة الولاية ، وكان عبدالملك — فيما يقـــول أبو الفرج — أراد تحويل عهد أبيه بالخلافة من بعده ، إلى أخيه عبد العزيز وجعلها لابنه الوليد ، ورغب إلى أخيه في الموافقة على ذلك ، وكتب إليه يخطره بما اعتزم تنفيذه ، ولكن عبد العزيز أبى ذلك ، وغضب لغضبــه شاعره ابن قيس — وكان عنده بمصر — وأخذ يشد أزر عبدالعزيز ، ويحرضه على أخيه عبدالملك ، ويقول في ذلك شعرا ، يرمز فيه إلى أحقيته ، وأحقية

(١) انظر الأغـــانى « ساسى » ١١ /٤٧ :

(٢) نفسه ١٦ /٥٦ — ٥٨ :

أولاده في هذا الأمر ، فأثار ذلك عبدالملك وأهاجه ، وتوعد الشاعر وتهدده، وقال : « لقد دخل ابن قيس مدخلا ضيقا ، أليس هو القائل :

* على بيعة الإسلام بايعن مصعبا * . . . . وتهدده وشتمه » (١) .

وأحس ابن قيس أن الخليفة قاتله لا محالة ، فاحتال لنفسه ، و قال تلك القصيدة التي يذم فيها الذين يغتابونه عند الناس ، ويأكلون لحمه . وقد مهد لهذا بذكر سعدى التي تعود أن يرمز باسمها إلى الخير والسعادة ، ولكنه هذه المرة يضيف إلى الغزل فيها من المعاني والأفكار ، ما يدل — في رمزية بديعة — على خوفه وقلقه ، فيقول :

بَشَّرَ الظبي والغراب بسعدى ... مرحبا بالذى يقول الغراب
قال لى إن خير سعدى قريب ، ... قد أنى أن يكون منه اقتراب
قلت أنّى تكون سعدى قريبا ... وعليها الحصون والأبواب
حبذا الرئم ، والوشاحان، والقصـ ... ـر الذى لاتناله الأسباب
إن في القصر ، لودخلنا ، غزالا ... موصدا مصفقا عليه الحجاب
أرسلت أن فدتك نفسى فاحذر ... شرطة ها هنا عليك غضاب
أقسموا إن لقوك لاتطعم المـ ... ـاء ، وهم حين يقدرون ذئاب
قلت قد يغفل الرقيب وتغضى ... شرطة ، أو يحين منها اقتراب
وعسى الله أن يُؤَتِّىَ أمرا ... ليس فيه على المحب ارتقاب
ارجعى فاقرئى السلام عليها ، ... ثم ردى جوابنا يارباب
حدثيها بما لقيت وقولى ... حق للعاشق الكريم ثواب !

---

(١) الأغانى « ساسى » ١٦ /٥٧ :

رجـــل أنت همــه حين يمسى ، خامـــرته من أجـــلك الأوصاب
لا أشم الريحـــان إلا بعيـــــنى ، كـــرما ، إنمـــا تشم الكـــــلاب
رب زار عـــلى لـــم يرَ مِـــنّى عـــثرة ، وهو ِممْـــأس كذّاب
خادع الله حـــين حـــل بـــه الشيـــــب ، فأضحى وبان منـــه الشـباب
يأمـــر الناس أن يـــبروا وينسى ! وعليه ، من كَـــبْرَةٍ ، جلبـــاب
أيهـــا المســـتحل لحمـــى كلـــه ، من ورائى ومن وراك الحســـاب
استَفيقَنْ ! فليس عندك علـــم ، لا تنـــامـــن أيهـــا المغتـــــــاب

ويستطرد ابن قيس في ذم المغتاب والمنافق ، ذما يريد به إلى التنفيس عن نفسه التى أثقلها الخوف من انتقام هذا الخليفة الأموى .

وقد حاول ابن قيس أن يحمل هذه الأبيات كل ما يشعر به من خطر على حياته ، وقد وفق إلى بيان ذلك ، والتعبير عنه في هذه الصور الرمزية(١) ، التى جاءت في قصيدته ، والتى تصور اضطرابه الشديد ؛ فهذه « سعـــدى » صاحبته التى كان يظن أنها رضيت ، يخاف الاقتراب من قصرها ، وما يقوم عليه من الحراس والحجاب والرقباء ، ويحاول الشاعر أن يستعطفها ، ويتوسل إليها ، عسى أن تمنحه ودها ورضاها ، فتدفع عنه ما يلاقيه من عـــــذاب الإعراض ، والصدّ بعد الإقبال ، وكل ذلك رمز عن عبدالملك ، وما طـــرأ على علاقته به .

---

(١) ليس من شك في أنا لا تقصد الرمزية بمعناها الواسع الحديث ، بوصفها مذهبا من المذاهب الأدبية ، فالقصيدة لا تحتمل ذلك ، بل لا يحتمل الشعر العربي القـــديم شـــيئاً من هـــذا الزعم ، ولكنا نريد بالرمز ما كان يظهر في شعر القدماء من معان وأفكار لا يريدهـــا الشعراء على وجهها الظاهر ، وإنما يوحون بها إلى معان أخرى .

وأجمل ما في هذه القصيدة هذا المطلع البديع الذى يتردد فيه بين التفاؤل والتشاؤم ، فيذكر سعدى ، ويذكر أنها سترضى عنه ، ولكنه يعود فيذكر أن الشؤم يتبعه ويلازمه ، ويتمثل هذا الشؤم في الغراب ، ذلك الطائر الأسود الذى لم تكن تحبه العرب ، ولا تطمئن إليه .

ويبلغ الشاعر بهذا الأسلوب في التعبير غايته في هذا البيت ، الذى يرمز فيه إلى عفته ، وطهارة نفسه ، ونبل مقصده فيقول :

لا أشم الريحان إلا بعيني كرما إنما تشم الكلابُ !

وقد أخطأ القدماء في فهم هذا البيت ، فيروى أبو الفرج أن الزبير بن بكّار، يقول : أن معنى قوله « لا أشم الريحان . . ، يعرض بعبد الملك لأنه كان متغير الفم ، تؤذيه رائحته ، فكان في يده أبدا ريحان أو تفاحة أو طيب(١)يشمه » . ولا يستقيم المعنى على هذا النحو ، لأنه يناقض مايريد إليه الشاعر من استرضاء الخليفة ، والاعتذار إليه . والبيت – كما نفهمه – تعبير رمزى عن عفة الشاعر ، وطهارة نفسه ، وتبرئتها مما نسب إليه، أو لعله اعتذار عما كان يثار حول غزله في نساء الأمويين منشكوك . فهو يريد أن يقول إن نفسه طاهرة ، لاتحمل لعبد الملك ، أو لغيره أمنية سيئة ، ولا نية شريرة .

ولعل هذا الجانب من التعبير عن طريق الرمز والإيحاء أثر من آثار السياسة ، ونتيجة من نتائجها ، فقد أخذ الشعراء يصطنعون الرمز في التعبير عن أفكارهم وآرائهم خوفا من بطش السلطان ، وإيثارا للعافية(٢). ونستطيع أن نجد لذلك أمثلة أخرى في مدائح ابن قيس لعبد العزيز بن مروان من مثل

---

(١) الأغاني « ساسي » ١١ /٥٧ – ٥٨ .

(٢) التطور والتجديد في الشعر الأموى : ٣٩٦ .

قوله في بائيته ، يرمز إلى أحقية عبد العزيز بالولاية من بعد أخيه عبد الملك :

يخلفك البيض من بنيك كما ... يخلف عود النضار في شُعَبِه

ليسوا من الخِرْوع الضعيف ولا ... أشباه عيدانه ولا غربه

شم العرانين ، ينظرون كما ... جلت صقور الصليب من حدبه

نحن على بيعة الرسول وما ... أعطى من عجمه ومن عربه

نأتي ، إذا ما دعوت ، في الحلق الْ ... ـماذيِّ أبدانه وفي جُبَبِهْ

. . . .

ويأخذ الشاعر بعد ذلك في وصف هذه الكتائب التي يستطيع عبد العزيز أن يدعوها — إذا أراد — لنصرته ، وتثبيت حقه في الولاية من بعد أخيه . وهو بذلك يحاول أن يشد أزره ، ويخيف عبد الملك . ولعله يرمز ببيعة الرسول التي ذكرها في البيت الرابع ، إلى بيعة مروان بن الحكم لابنه عبد العزيز من بعد أخيه عبد الملك .

ونراه يقدم لمديح عبد العزيز أيضًا في قصيدته الميمية بمقدمة غزلية ، يرمز فيها إلى موقف عبد الملك من أخيه ، وتَنَكُّرِه لما كان بينهما من عهد في الولاية ، فيقول :

طرقته أسماء أم حلما ... أم لم تكن من رحالنا أَمَمَا

طافت بأفراسنا وأرحلنا ، ... فزادنا طيفها بنا سَقَمَا

زيدية ، حلت الغرابة أو ... حلّت أسيسا ، أو حلت العَلَمَا

كانت لنا جارة فأزعجها ... قاذورة يسحق النوى قدما

لا يصل الحبل بالصفاء ، ولا ... يكسبه قوة إذا انجذما

ولعله يرمز – في هـذين البيتين الآخرين – إلى ما يريد بيـانه من موقف عبد الملك من مسألة الولاية . ثم يأخذ في مديح عبد العزيز مؤكدا لولايته .

— ٥ —

وغزل ابن قيس الذى حفظه ديوانه ، والذى عـرضنا لبعض نمـاذجه بالدراسة والتحليل ، جديد في تاريخ الشعر الغنائي العـربى ، من حيث المرأة التى كان يشبِّب بها ، إذ يظهر من وصفه لها وحديثه عنها ، أنها امرأة مترفـة متحضرة ، قد أخذت بنصيب كبير من الحضارات الوافدة ، ويتمثل ذلك كله في ترفها ، وفي العناية بملابسها ، وطيبها ، وحليها . وفي شعر ابن قيس أبيات كثيرة تصور هذا الترف ، وتصف هذه الملابس وتلك الحلى ، فيقول :

شُـبَّ بالعـال من كثيرة نـار ... شـوقتنا وأين منـا المـزارُ

أوقدتهـا بالمسـك والعنبر الرطـ ... ـب ، فتاة قد ضاق عنهـا الإزار

ويَقيها الحرير من وهج الشـمـ ... ـس ، وخـز العـراق والأستار

ويقول أيضـًا :

صفـراء كالسِّـيَراء لـم ... تشـمط عـذوبتهـا بحـورَهْ

من نسـوة كالبيـض في الـ ... أدحـى بالدمـث المطـيره

لـم يصـطلين غضـًا ، ولم ... يضـربْنَ للبهـم الحظـيره

جُـبْنَ الفـروج مـن المـرا ... جـل والمضلعـة المنـيره

فـوق الجلـود يفـوح من ... أردانهـا عبـق الـذريـرة

وهى امرأة متحضرة ، تحيط بها الجوارى من بنات كسرى يخدمنها :

. . . .

ووجـدت مســكا خالصــا قــد ذر فــوق عيـونهنــه
وإذا تضمــخ بالعبــير الــو رد زان وجــــوههنــــه
يخفــين في المشــى القــريــب إذا يــزرن صــديقهنــه
وبنــات كسرى ، في الحــريــر ، عــوامــل يخدمْنَهُنَّهْ
متعطفـــــات بــالــبرو د عــلى البغــال وفُرْهِـهِنَّهْ
وإذا قعــدن عــلى البغــا ل مَلَــتْ ظهــور بغــالِهِنَّهْ

ويكثر ابن قيس من رؤية صاحبته في الحج ، وهذا شيء طبيعي ، فمكة بلـد محجوج ، يلتقي فيه أفواج الناس من شتى بقاع الأرض ، ويظهر من شـعره ومن شـعر نظرائه أنهم كانوا يرصدون الحواجّ ، وكانوا يختصون الجميلات منهـن بأشعارهم . ويقص أبو الفرج(١) أنه لقى رقية ــ أول ما عرفها ــ في أثناء طوافها بالبيت ، فبهـره جمالها وطيب ردنها ، فقال فيها :

من عــذيرى ممــن يضن ببــذو ل لغــيرى ، عليَّ يوم الطــواف
أحــور العين ، فائق الحسن ، حلــو القول ، مر الفعال ذى إخلاف !
. . . .

ويقول في الـثريا :

وســلاف ممــا يعتــق حــــل ، زاد في طيبها ابن عبــد كــلال
ذكــرتني المخنثات لدى الحِجْــر ينازعنني ســجوف الحجال
حبذا الحج ، والثريا ، ومن بالْــخَيْفِ من أجلها ، وملقى الرحال

ويقول في إحدى مقطوعاته :

صدروا ليلــة انقضى الحج ، فيهم حــرة زانهــا أغــر وســيمُ

(١) الأغــانى « ساسى » ٤ / ١٦٤

يتّقى أهلها النفوس عليها ، فعلى نحرها الرقى والتميم

وصورة المرأة كما تظهر في غزل ابن قيس ، تخالف في بعض جوانبها عن تلك الصورة التي حفظها شعر معاصره ابن أبي ربيعة ، فابن قيس – كما ترى من تلك النماذج التي عرضناها – عاشق يتزلف إلى النساء ، ويتقرب إليهن ، ويصف عواطفه نحوهن ، ويشكو من هجرهنه له أحيانا ، وإخلافهن لمواعيده ، ويعبر عن افتتانه بهذا الجمال الذي يمتزن به . وكان عمر يرى في المرأة خلاف ما يراه ابن قيس ، كان يراها جميلة ، ولكنها عاشقة له ، مفتونة به ، تدعوه للقائها ، وتبثه عواطفها ، وتشكو إليه وجدها ، وهو بذلك يعطل غزله ، ويحوله من الرجل إلى المرأة ، ومن ذلك قوله(١) :

قالت لترب لها تحدثها : لنفسدن الطواف في عمرِ
قومى تصدّىْ له ليعرفنا ، ثم اغمزيه يا أخت في خفر !
قالت لها : قد غمزته فأبى ! ثم اسبطرت تسعى على أثرى

ويروى الأغاني(٢) أنه انشد ابن أبي عتيق قوله :

بينما ينعتنني أبصرنني دون قيد الميل ، يعدو بى الأغرّ
قالت الكبرى : أتعرفن الفتى قالت الوسطى : نعم ! هذا عمر
قالت الصغرى ، وقد تيمتها ، قد عرفناه وهل يخفى القمر

فقال له ابن أبي عتيق : « أنت لم تنسب بها ، وإنما نسبت بنفسك ، كان ينبغي أن تقول : قلت لها ، فقالت لى ، فوضعت خدى فوطئت عليه » .

---

(١) انظر : التطور والتجديد في شعر العصر الأموى : ١٩٣ – ١٩٥ ، وانظر الأغانى « سامى » ١ /٦٩ .

(٢) نفسه ١ /٥١ .

والتعليل لهذا التباين في وصف المرأة ، والنسيب بها عند هذين الشــاعرين المتعاصرين ، لا يحتاج إلى عناء ، فظروف عمــر ، وطبيعة نشأته ، وما كان يمتاز به من الثراء العريض ، والبعد عن السياسة ومشاكلها ، كان ذلك كلــه ذا أثر كبير في الوقوف من المرأة هذا الموقف الذى أخذ يصور فيه عواطفها، وما يطرأ على هذه العواطف من تغير وتبدل ، ونحسب أنه لو كان أتيح لابن قيس ما أتيح لعمــر من ثراء ، وفراغ ، وتعطل ، لســار في نفس الطريق، ولأخرج نفس النغم من قيثارة الشــعر .

(٢) المديح

- ١ -

وكانت حاجة ابن قيس إلى المال ، وانغماسه في السياسة ، واتصاله برجالها ذات أثر كبير في تناوله لهذه الموضوعات التقليدية من مديح ،وهجاء، ورثاء ، وظهورها في شعره على نحو يميزه من شعر ابن أبى ربيعة ، على الرغم من اشتهارهما بالغزل ، وإكثارهما من القول فيه . وقد عرف – قبل اتصاله بالسياسة – اثنين من الأجواد ، أحدهما قرشي ، وهو عبد الله بن جعفر ، والآخر خزاعي ، وهو طلحة بن عبد الله بن خلف الخزاعى ، وابنه عبد الله . وكان اتصاله بهؤلاء أساسه المنفعةالمتبادلة ، يأخذ نوالهم ، ويقول الشعر في مديحهم .

ويظن بعض المحدثين(١)أن اتصاله بعبد الله بن جعفر ، كان اتصالا سياسيا ، أو هو اتصال بالحزب الهاشمى في شخص ابن جعفر هذا ، ولكننا لانجد في أخباره ، ولا فيما حفظه ديوانه من مدائح ، ما يعلل لهذا الاتصال السياسى ، أو يشير إليه .

ويحفظ الديوان من مديحه لابن جعفر ، ثلاث قصائد ، وثلاث مقطوعات من بينها قصيدة في رثائه ، وهى العينية التى مطلعها :

باتَ قلبي تشفّه الأوجاعُ　　من هُمومٍ تُجِنُّها الأضلاعُ

---

(١) انظر طه حسين في حديث الأربعاء : ١ /٢٤٩ .

ويستخلص من هذه القصائد والمقطوعات ، أنه كان وثيق الصلة بابن جعفر ، وكان محببا له ، ومقربا إليه . وقد نشأت بينهما صداقة دائمة فيها ود، وفيها إعزاز . وعرف ابن قيس لممدوحه فضائله عليه ، ولا سيما تلك العطايا الجزيلة التي كان يحبوه بها ، فأشاد بها في شعره، كما أشاد بشفاعته له لدى عبد الملك ، وتخليصه منه ، فقال :

إذا زرتُ عبد الله ـ نفسي فداؤه ـ رجعت بخير من نداه ونائلِ
وإن غبت عنه كان للود حافظا ، ولم يك عنى في المغيب بغافل
تداركنى عبد الآله وقد بدت ، لذى الحقد والشنآن ، منى مقاتلى
فأنقذنى من غمرة الموت بعدما رأيت حياض الموت جُمّ المناهل
حبانِيَ لما جئته بعطية ، وجاريةٍ بيضاء ، ذات خلاخل

ونقف وقفة قصيرة عند فائيته التي مدحه بها ، وقدم لهذا المديح بالغزل في رقية ، لنرى كيف يمزج ابن قيس عناصر المديح الإسلامى ، بعناصر المديح الجاهلى ، ويؤلف بينها تأليفا .

وندع القسم الأول من القصيدة ، فهو غزل عرضنا له فيما مضى ،ولنلاحظ هذه النزعة الجاهلية في وصف رحلته إلى ممدوحه ، ووصف ناقته التي حملته إليه ، فقال :

كم تجشمت من مهامهِ قفر نازح غوله ، بعيد المساف
بذمول عيرانة ، ذات لوث ، عنتريس ، شِمِلّةٍ ، مقذاف
عنتريس ! تَنْفِى اللغام بمثل السِّبْـ ـتِ ، هوجاء كالجلال الخفاف

فسوف نظفر بها في بعض مدائحه ، التي كان يقولها في ابن جعفر وابن

خلف الخزاعى ، قبل اتصاله بالسياسة . وهى تدلنا على أن الشاعر لم يستطع التخلص — في هذه الفترة — من تقاليد الشعر القديمة ، وإنما ظل يصدر عنها في كثير مما قاله من الشعر ، ويتخلص الشاعر إلى ممدوحه فيقول فيه :

للقاء ابن جعفر ذى الجنا … حين ، الكريم النصاب في الأسلاف

واضح الخد ، كامل العقل والديـ … ـن ، نقيّ الثياب ، غمر العطاف

ثابت البيت في الأرومة والمجـ … ـد ، رحيب البناء للأضياف

سَبِط الكف والبنان ، على السا … ئل ، جزل العطاء ، مأوى الضعاف

حل في الجوهر المهذب من ها … شم أهل الندى ، وأهل العفاف

عوده في البلاد عود نضار ، … لا كعيدان خروع وخلاف

يهب الخيل ، والولائد ، والبخـ … ـت بأجلالها مع الأخفاف

وهذه عناصر تختلط فيها العناصر الإسلامية ، من نسبته إلى أبيه جعفر الطيار ، ووصفه بكمال الدين ، ونقاء السريرة ، وطهارة السلوك ، بعناصر المديح القديمة من وصفه بالكرم ، وعراقة النسب ، على نحو ما كان يفعل القدماء من الشعراء .

ونلاحظ أن لغة الشاعر — إذا تجاوزنا عن الأبيات الثلاثة التى وصف فيها ناقته — سهلة ، وأساليبه بسيطة ، واضحة المعنى ، بينة الفكرة ، بخلاف مانجد في شعر كثير غيره من شعراء المديح الذين عاصروه .

ونتجاوز عن قصيدته النونية ، التى ظن جامع الديوان أنه يوجهها في مديح عبد الله بن الزبير ، فليست بذات خطر ، فقد طغت المقدمة الغزلية على المديح ولم يرو الديوان من أبياته سوى بيتين هما :

وابن أسماء خير من مسح الركْـ … ـنَ فعالا وخيرهم بنيانا

وإذا قيل : من هجان قريش كنت أنت الفتى وأنت الهجانا

ولكنى ألفتك إلى هذا العنصر الإسلامى الذى يصف به ممدوحه في البيت الأول ، وسنظفر بكثير من هذا العنصر في مدائحه الأخرى .

ولست أقف من مقطوعته الرائية التى قالها في مديح ابن جعفر بعد أن أخذ له أمانا من الخليفة الأموى ، إلا عند هذه الأبيات ، التى يعد نفسه فيها صديقا لابن جعفر ، ويصفه بالجود الذى أفاض عليه من عطاياه كثيرا فيقول :

فإن متّ لم يوصل صديق ولم تقم طريق من المعروف ، أنت منارُها

ذكرتُك إذ فاض الفراتُ بأرضنا ، وجاش بأعلى الرقتين بحارُها

وعندى ، مما خوّل الله ، هجمة عطاؤك منها شولها وعشارها

مباركةٌ كانت عطاءَ مُبارَكٍ ، تمانح كبراها وتنمى صغارها

ولا يحفظ ديوان الشاعر شيئا من مديحه في طلحة . وإنما يحفظ قصيدتين في رثائه ، ومديح ابنه عبد الله ؛ وليس في هذا الرثاء عاطفة قوية ، وإنما فيه محاولة لمديح طلحة ومديح ابنه ، بهذه العناصر القديمة التى كان يهتم بها الجاهليون ، من وصفه بالشجاعة ، والكرم ، وطيب العنصر ، وسوف نعرض لهما فيما نستقبل من حديث(١) .

— ٢ —

وكان للظروف السياسية التى أحاطت بأسرته في وقعة الحرة في المدينة ، ثم ما ألم به في الجزيرة من خطوب ، في أواخر سنة سبع وستين للهجرة أثر

(١) سنعرض لهاتين القصيدتين في حديثنا عن شعر الرثاء .

كبير في اتصاله بالزبيريين ، وانتصاره لهم في شخص مصعب بن الزبير . وقد رأيناه يلزم مصعبا ، ويصحبه إلى العراق ، يغنيه أعماله ، ويصف حروبه في شـــعر رائع جميل – هو فيما نظن – من أجمل ماقاله من شعر المديح في حيـــاته السياسية جميعا .

ولابن قيس في مديح مصعب ثلاث قصائد ، وثلاث مقطوعات ، حفظ الديوان إحداها ، وحفظت المصادر القديمة اثنتين منها .

وكان شعر الشـــاعر متنوعا كحياة مصعب الذى انقطع له ، فوقف فنـــه على مديحه ، والإشادة به ، والثناء عليه . ولننظر في بعض هذا الشعر ، ولنختر منه الهمزية – وهى أولى مدائحه فيه – فهى من أطول قصائد الديوان ، وأكثرها خطـــرا .

وتصور هذه الهمزية أشياء كثيرة ، تصور رأيه السياسى تصويرا واضحا بكل تفاصيله الدقيقة ، وتصور شعوره نحو الأمويين ، وموقفه منهم ، وتصور هذه العناصر الإسلامية التى أخذت تظهر في مدائح الشعراء في العصر الإسلامى ، وتزحم أوصافهم .

وتصور هذه القصيدة كذلك اندفاع ابن قيس ، وعـــدم تمهله في مهاجمة الأمويين ، والشـــدة عليهم ، والتقليل من شأنهم ، وتجريح مواقفهم من إخوانهم في الحجاز وآثاره المقدســـة ، بمـــا يذكره من حصار الشـــاميين للكعبة ، وهدمها ، وتحريقها في أيام يزيد بن معاوية ، وبمـــا يذكره من قتلهم للحسين في وقعـــة الطّفّ على نحو ماهو معروف .

ونحس ونحن نقـــرأ هذه القصيدة ، أن ابن قيس قد أقبل على مصعب ، وقد رسم لنفســـه اتجاهين واضحين :

فأما أحدهما ، فهو الخروج على الأمويين ، والوقوف ضدهم ، والدعوة للثورة عليهم ، والقضاء على حكومتهم .

وأما الآخر ، فهو الدعوة لمصعب ، والانتصار له ، وإذاعة مناقبه ، وفرق كبير بين الدعوة لمصعب ، والدعوة للحزب الزبيرى الذى يمثله أخوه عبد الله .

ونلاحظ أن الشاعر قد أقبل على مصعب ، وقد حقق الفرق بينه وبين ممدوحيه السابقين ، فاستعد له ، فأحسن الاستعداد ، ومدحه بهذه القصيدة ، فأطال فيها على نحو لانعهده في مدائحه السابقة ، ولا فيما كان يقوله بعد ذلك في الأمويين من أشعار . وهو لم يتحدث عن مصعب وحده ، وإنما اتخذ الحديث عنه ، وسيلة للحديث عن سراة قريش في الجاهلية والإسلام ،وقد لاحظ ذلك جامع الديوان فعنون لها بقوله : « وقال ابن قيس يمدح مصعب ابن الزبير ويفتخر بقريش » .

ونحس – ونحن نقرأ مطلع القصيدة – أن الشاعر قصد إليه قصدا ، ليرمز به لما يريد إلى تصويره ، والتعبير عنه من هذه الفرقة ، والقطيعة التى نشأت بين بيوتات قريش ، وهذا الضعف والتفكك اللذين أصاباها ، وهذا الخطر الذى يوشك أن يقضى على سلطانها ، والذى يتمثل في القبائل اليمنية ، تلك القبائل التى كان يوجهها الأمويون لقتال القرشين . وغزوهم في ديارهم.

وحين يأخذ الشاعر في الدفاع عن قريش ، وبيان خطرها في رعاية المسلمين ، والمحافظة على سلامتهم ، يأخذه حزن عميق ، يلون معظم قصائده في الزبيريين والأمويين ، وهو أثر من آثار هذه الخطوب التى ألمت به والتى أشرنا إليها فيما مضى من حديث ، فيقول :

هل ترى من مُخلَّدٍ غير أن الله يبقى وتذهب الأشياءُ
يأمل الناس في غد رغب الدهر ، ألا في غد يكون القضاء

. . . .

لو بكت هذه السماء على قوم كرام ، بكت علينا السماء

وفي مديحه لمصعب يحرص – بجانب وصفه بالشجاعة والكرم – على استخدام العناصر الدينية في وصف « ملكه » ، وما يسوده من العدل المطلق الذى يحرص مصعب على إذاعته بين الناس ، وكأنه بذلك يلمح إلى ما شاع على أيدى الأمويين ، من قتل وتشريد للمسلمين ، يتمثل في وقعة الحرة التى أوقع فيها يزيد بأهل المدينة ، ووقعة الطف التى قتل فيها ابنُ زياد الحسينَ، ونفرا من أهل بيته ، فيقول :

والذى نَغَّصَ ابنَ دَوْمَةَ ماتُو حى الشياطينُ ، والسيوفُ ظِماءُ
فأباحَ العِراقَ يضربهم بالسَّيْـ ـفِ صَلْتًا ، وفي الضِّرابِ غلاءُ

. . . .

إنما مُصْعَبٌ شهابٌ من اللّـ ـه ، تجلت عن وجه الظلماءُ
مُلْكُه مُلْكُ رَحْمَةٍ ليس فيه جَبَرُوتٌ ، ولا به كبرياءُ
يتقى الله في الأمورِ وقَدْ أَفْـ ـلَحَ من كانَ هَمَّه الاتّقاءُ
إنَّ لله دَرَّ قوم يُريدُو نَكَ بالنَّقْصِ ،والشقاءُ شَقاءُ
بعدما أحرزَ الإلهُ بك الرَّتْـ ـقَ ، وهَرَّتْ كلابَكَ الأعداءُ

ويمضى ابن قيس في قصائده الأخرى في مديح مصعب ، ويسلك إلى هذا المديح نفس هذا المذهب اليسير الذى رأينا صورا منه في هذه القصيدة ،

وهى صور ليس فيها من جـــديد، سوى ما يغلفها به من هذه العناصر الدينية من حين إلى آخـــر ، من مثل قوله في مقطوعته الميمية :

لولا الإلـــه ، ولولا مصعب لكم بالطف ،قد ضاعت الأحساب والذِّممُ

أنت الذى جئتنا والــدين مختلس، والحـــر معتبـــد ، والمـــال مقتسم

. . . .

في حكم لقمان يهذى مع نقيبتـــه ، يرمـــى بـــه الله أعـــداء وينتقـــم

وقوله في كافيته، التى قـــدم بها لمديحه فيها بالغزل في عاتكه بنت يزيد ابن معاوية :

تَدَارَكُ أخرانا ، ونمضى أمامنا ، ونتبـــع ميمـــون النقيبـــة ناسكا

إذا فرغت أظْفـــاره من قبيلة ، أمال على أخرى السيوف البواتكـــا

على بيعـــة الإسلام بايعن مصعبا ، كراديس من خيل وجمعا ضباركا

نفيت بنصر الله عنهم عـــدوهم ، فأصبحت تحمى حوضهم برماحكا

تداركت منهم عثرة نهكت بهـــم عـــدوهم ، والله أولاك ذالكـــــا

ويتردد في هذه المدائح وصف مصعب بالملك ، وكأنه صاحب الأمر من دون أخيه عبد الله بن الزبير ، فهو يصف « ملكه » في همزيته السابقة بقوله « ملكه ملك قوة . . . .» ، ويصف الكتائب التى يعدها لقتـــال الشـــاميين وصفا دينيـــا فيقول :

« على بيعة الإســـلام بايعن (أى الكتائب) مصعبا . . . . . » ويمدحـــه برجاحة الرأى ، وإحكام الأمور في الحرب ، فيقول :

ملك يـــبرم الأمـــور ، ولا يشـــ ـــرك في رأيـــه الضعيف المُزَجِّى

وهذا يدل على أن مصعبا قد أنشــأ لنفسه مركزا في العــراق ، وحكمه باسمه هو ، لا باسم أخيه الخليفة المقيم في مكة ، ولعل في هذا ما يفسر ما نجده في هذه المدائح من اهتمام بكفاءة مصعب ، ووصف لعــدالة حكمه .

— ٢ —

وشعر ابن قيس في الأمويين كثير ، بالقياس إلى شعره في الزبيريــين ، وفيه ما يدل على أنه لم يأخذ نفســه بشيء من الاحتياط ، الذى يكفل له رضاء الخليفة وأمنه ، فقد دخل في الخلاف بين عبد الملك وأخيه عبد العــزيز على ولاية العهــد ، وقال في ذلك شعرا سوف نعرض له بعد قليل .

ويظهر من شعره أنه وفــد على عبد الملك آسفا محزونا ، وقــدر أن عيشته في رحاب الأمويين ، لن تكون أمنا ودعة كما كانت في العراق أيام مصعب ، فلم يكن من اليسير أن ينسى ابن قيس مصعبا ، فقد لقى عنده خير ما لقى في حياته كلها . وقد كان يحبه ويكره عبد الملك ، كان يحبه لأن حياته كانت أمــلا لــه في الثأر من الشاميين الذين أوقعوا بأهل المدينة — وفيهم ناس من أقاربه وأهل بيتــه — وأوقعوا بالضحاك بن قيس في المرج . وكان يحبه لأن في بقائه بقــاء لسلطان الحجاز ، واستمرارا لنموه وانتشاره . ذلك السلطان الذى نقلــه الأمويون إلى الشــام حين اتخذوا دمشق عاصمة لملكهم ، وحالوا بين الحجازيين وبين ما كانوا يتمتعون به من ســلطة دينية ومدنية ضخمة ، وكان يكره عبد الملك لأنه هو الذى أعان — من دون بنى أمية جميعا — مسلم ابن عقبة على قتال أهل المدينة ، كما قتل مصعب بن الزبير في دير الجاثليق .

وكانت حياة ابن قيس عند مصعب ، تمكن له من أن يتناول في شــعره من الآراء السياسية ما ينفس به عن هذه النفس المحزونة ، التى ألمت بها أحداث ضخمة ، أورثتها حقــدا شــديدا على هؤلاء الأمويين ، ولذلك كانت

مدائحه في مصعب – على نحو ما رأينا – قسمة بينه وبين مصعب ، يغنى فيها آلامه ، ويشرح فيها آراءه ، ويعبر فيها عن آماله .

أما حياته في ظل الأمويين ، فأنفاسه فيها معدودة عليه ، وماضيه ماثل أمامه ، وأسوأ ما في هذا الماضى بالنسبة إليه ، أنه شايع مصعبا ، وأعانه على حرب الأمويين ، وأذاع فيه من الشعر ما أثار عبد الملك وأهاجه ، كما كان يتخذ هجاء الخليفة وإغاظته والإساءة إلى سمعته ، وسيلة محببة إلى هذا المديح . ومن أجل هذا كله كان لزاما على ابن قيس أن يكظم عواطفه ، ويخضع آماله وأهواءه لنظام دقيق شديد ، ويدخر إرسال نفسه على سجيتها لمواقف أخرى ، يزول فيها خطر عبد الملك ، ويتدبر فيها موقفه من هذه البيئة الجديدة ، التي وفد عليها مكرها مضطرا .

وما أشك في أن ابن قيس قد استعد لمقامه هذا بين يدى عبد الملك ، وحرص على أن تكون قصائده في مديحه خليقة بدفع الشبهة عنه ، واسترضاء الخليفة عليه .

وقد مدح ابن قيس من الأمويين ثلاثة ، عبد الملك بن مروان ، وأخويه عبد العزيز وبشرا ، وقد مدح عبد الملك بقصائد ثلاث ، أولاها بائيته التي مطلعها :

عاد له من كثيرة الطرب   فعينه بالدموع تنسكب

وقد مهد الشاعر لمديحه بهذا الغناء الحزين ، الذى يرمز إلى ما انتهى إليه أمره ، وما فقده في العراق من الأمن والدعة ، فقال :

عاد له من كثيرة الطرب   فعينه بالدموع تنسكب

كوفيـــة نـــازح محلتهـــا لا أمـــم دارهـــا ولا ســـقب

. . . .

لا بارك الله في الغـــواني فمـــا يصبحـــن إلا لهـــن مطلـــب

أبصرن شـــيبا علا الذؤابَةَ في الر أس ، حديثـــا كأنـــه العطـــب

فهـــن ينكـــرن ما رأيـــن ، ولا يعـــرف لى في لـــداتى اللعـــب

ثم يحاول ابن قيس أن ينتزع نفســـه من الزبيريين انتزاعا ، فيقول :

ياحَبَّذا يـــثْربٌ ولـــذتهـــا ، من قبل أن يهلكـــوا ويحتربـــوا

وقبـــل أن يخـــرج الذيـــن لهـــم فيهـــا الســـناء العظـــيم والحسب

بغت عليهـــم بهـــا عشـــيرتهم ، فعوجلـــوا بالجـــزاء واطُّلبـــوا

وهو كما نرى يذكر ما فعله ابن الزبير بالأمويين ، حين غلب على المدينة بعد موت يزيد بن معاوية . فطرد منها مروان بن الحكم وســـائر بنى أميـــة . وسيرهم إلى الشام على نحو ما هو معروف . وهو يذكر تلك الأيام — أيـــام الأمويين بها — بالخير والحسنى ؛ إرضاء للخليفة الأموى عبد الملك ، واتقاء لشره . وما نشـــك في أن الشـــاعر كان مضطرا إلى ذلك اضطرارا ، فكان لزاما عليه أن يحـــدد موقفه الجـــديد تحديدا دقيقا . ولا ينبغى أن نلومـــه في ذكره للزبيريين على هذا النحو ، الذى يعده بعض النقاد خيانة لهم ، وتنكرا لفضلهم عليه ، فلم يكن ابن قيس زبيريا في يوم من الأيام ، فلم يدع لابن الزبير ، ولم ينتصر له ، وإنما كان قرشيا حسن الرأى في قريش .

وابن قيس في موقفه الجديد ، ليس بدعـــا من شعراء العصر الأموى ، وشعراء المذاهب السياسية بصفة خاصة ، فقد كان الشعراء يمدحون خصومهم

السياسيين ، ويجيدون في هذا المديح دون أن يكون لذلك أثر على آرائهم السياسية ، وقد فهم القدماء من المؤرخين هذا السلوك الذى اضطر إليه الشعراء اضطرارا تحت ضغط السلطان القائم وتهديده ، ومن هؤلاء الشعراء الكميت وجرير ، والطرماح ، وقد كان الأول هاشميا مغرقا في هاشميته ، ومع ذلك فإنا نجده يمدح بنى أمية ، ويطنب في مديحهم ، وكان الثانى زبيريا ، ومع ذلك فقد انقطع إلى مديح الأمويين وهجاء خصومهم ، وكان الآخر خارجيا غاليا في خارجيته ، وعلى الرغم من ذلك ففى ديوانه وأخباره ما يدل على مديحه لرجال السلطان الأموى ، والاتصال بهم ، بل نجده يمدح أبناء المهلب أعدى أعداء الخوارج ، وأشد ولاة الأمويين في حربهم .

ويردد ابن قيس هذه المعانى الذى ينتزع فيها نفسه من الزبيريين ، ويعتذر فيها للأمويين ولسياستهم في القضاء على هذا الباطل الذى أشاعه آل الزبير ، فيقول :

لما رأوا بغى قومهم لهم ، إذ قطعوا من شوابك الرَّحِمِ
كانت حصونًا لهم سيوفُهم وكلّ حامى الحِفاظ مستلمِ

ويطرق الشاعر في مديحه لعبد الملك نفس المعانى التى اعتاد الجاهليون استخدامها ، من وصف بالشجاعة والكرم ، والفصاحة وأصالة النسب ، ويؤدى ذلك كله في ألفاظ سهلة ، وعبارات واضحة ، لا تعقيد فيها ولا التواء ، فيقول :

قوم هم الأكثرون قِبْصَ حَصًى
في الحى ، والأكرمون إن نُسِبُوا
ما نَقِمُوا من بنى أُمَيَّةَ إلاّ
أنّهم يحلمون إن غَضِبُوا

وأنهـــم معـــدن الملـــوك فـــلا
تصـــلح إلا عليهــــم العـــــرب

إن الفنيـــــقَ الـــذى أبـــوه أبـــو
العـــاصِى ، عليــه الوقـــار والحجـــبُ

خليفـــةُ الله فـــوقَ منـــــبره ،
جفَّــتْ بــذاك الأقـــلامُ والكتـــب

يعتـــدل التـــاج فـــوق مفـــرقـــه
عـــلى جبـــين كـــأنـــه الـــذهـــب

وقد وقف كثير من النقاد عند هذا البيت ، وراحوا يحللــون هذا المعنى الذى وصف فيه الشــاعر عبد الملك باعتدال التــاج فوق جبينه الذى يشــبه الذهب ، ويقص الرواة أن الخليفة غضب على ابن قيس ، ولامه قائلا(١) :

«تمدحنى بالتاج كأنى من العجم وتقول في مصعب :

إنمـــا مصعب شهاب من الله . . . . » .

وما نظن الخليفة قد غضب حقا لمجرد مديحه بالتاج ، وائتلاق الجبـين ، فقد كان ذلك أثراً من آثار الحضارة الوافدة ، وما أحدثته في الأذواق من تغير وتبدل . وما لنـــا نبعد وفي شـــعر المعاصرين لابن قيس ، والمـــادحين لبنى أمية ما يتضح منه استخدامهم لهذه المعانى المتحضرة ، التى يروى القدماء أن الخليفة عابهـــا على الشاعر . ولنستمع إلى أيمن بن خـــريم ، يمـــدح بشر بن مروان بالتاج ، فيقول(٢) :

(١) الأغـــانى « ساسى » ٤/ ١٥٧ .

(٢) نفسه ١/ ١٢٧ – ١٢٨ .

أمير المؤمنين أقم ببشر ، عمود الحق إن له عمودا
ودع بشرا يقومهم ويحدث لأهل الزيغ إيمانا جديدا
كأن التاج ، تاج بني هرقل ، جلوه لأعظم الأيام عيدا
على ديباج خدى وجه بشر إذ الألوان خالفت الخدودا

ولعل غضب عبد الملك ، إنما يرجع إلى أن ابن قيس قد رغب في قصيدته عن المعانى الدينية التى اعتاد ذكرها في مدائحه لمصعب فغاظه ذلك وآلمه ، لأنه خليفة ، والخلافة منصب دينى ، وهو محاجة إلى تثبيت خلافته وتقويمها عن طريق الدين ، فعبد الملك إذن لم يكن يريد من ابن قيس — وهو أحد الشعراء الذين انتصروا لخصومه من الزبيريين — أن يمدحه بائتلاق التاج ، وإنما كان يريد منه أن يسلك نفس السبيل التى سلكها شعراء البيت الأموى من قبله ، وهى اصطناع هذا الأسلوب الدينى في الانتصار للأمويين ، والدفاع عن خلافتهم ، فليس الخليفة محتاجا ، لتوكيد أصالة نسبه ، والتدليل على شجاعته ، وإنما هو محتاج إلى الدفاع عن خلافته ضد أعدائه من الزبيريين والهاشميين ، دفاعا يسلك فيه الشاعر سبيل الدين ، على نحو ما كان يفعل جرير وغيره من الشعراء .

ومهما يكن ، فإنا نلاحظ قلة الأوصاف الدينية في مدائح ابن قيس لعبد الملك ، فهو يكتفي بوصف شجاعته ، وفصاحته ، وكرمه ، وأصالة نسبه ، وإن تعرض لمعنى دينى ، فهو يعرضه في بيت واحد عرضا موجزا ، ولا يوجد في قصائد ابن قيس الثلاثة ، التى قالها في مديح عبد الملك ، من المعانى الدينية سوى هذه الأبيات :

خليفة الله فوق منبره جفت بذاك الأقلام والكتب

ويكرر هذا المعنى في ميميته ، فيقول :

منهم إمام الهدى له نعم عندى ، وأيد تصوب بالدِّيَمِ
خليفة يقتدى بسنته في إرث مجد الثراء والكرم

ولنلاحظ أنه أفسد هذه الصورة الدينية التي وصف بها عبد الملك ، في الشطر الأول من البيت الثاني ، حين وصف سنته التي يُقتدَى بها ، بأنها سنة الثراء والكرم ، وما نعرف أن الثراء والكرم كانا عنصرين من عناصر الخلافة ، تلك العناصر الدينية التي تتألف من العدل والورع ، وإشاعة المساواة التامة بين المسلمين .

ونحن لا نكاد نمضى في قراءة ميميته ، حتى نحسّ بهذا الغناء الحزين الذى بدأ به قصيدته — كما فعل في بائيته السابقة ، وهو غناء يصور أسفه على أيامه الماضية في العراق ، بقدر ما يصور خوفه من المستقبل المجهول في كنف عبد الملك ، وهو يحرص في هذا الغناء — كما حرص في بائيته — على أن يتخلص من الزبيريين ، وينتزع نفسه منهم انتزاعا ، ولنستمع إلى هذه الأبيات ، التي تصور ما بنفس الشاعر من ألم وجزع ، فيقول :

ما هاج من منزل بذى علم بين لوى المنجنون فالثلم
فبئرِ قَوٍّ عفت معارف مبـ ـداك بها الغاديات بالرهم
لم تبق منها الرياح معلمة إلا بقايا الثمام والحمم
وقفت بالدار ما أَبَيِّنُهَا إلا ادكارا توهم الحلم
بادت وأقوت من الأنيس كما أقوت محاريب دارس الأمم
واستبدل الحى بعدهم إضما ، هيهات غمر الفرات من إضم
دار بدار وجيرة حدثوا ، والله يقضى فضائل الطعم

إلى أن يقول :

لما رأوا يغى قومهم لهم إذ قطعوا من شوابك الرحم

كانت حصونا لهم سيوفُهم وكل حامى الحفاظ مستلم

وحين نعرض لأبيات المديح التى جاءت في هذه القصيدة ، لانكاد نجد فرقا بينها وبين ماكان يقوله الشعراء الجاهليون من مديح ، فهو كما قلنا مديح بالشجاعة والكرم ، وأصالة النسب والحلم والفصاحة ، إلى آخر هذه الأوصاف التى شاع استخدامها لدى الشعراء المتقدمين ، وكل مايميزها أنه صاغها في عبارات سهلة ، وألفاظ واضحة المعانى ، أو قل ألفاظ شائعة بين الناس ، فقال :

المانعو الجار أن يضام فما ، جارٌ دعا فيهم بمهتضَمِ
والوارثو منبر الخلافة والـ ـموفون عند العهود بالذمم
والجابرو كسر من أرادوا وما الـ ـكسر الذى أوهنوا بملتئمْ
فهم إذا جللت مُدَجّيَةٌ نجوم ليل تنير في الظلم
تحبهم عُوَّذ النساء إذا أبدى العذارى مواضع الخدم
وأنكر الكلب أهله وبدت حرب عوان تُشَبُّ بالضرم

. . . .

بيتا معدٍّ تكنفاك إلى ذروة مجد مشرف سنم

وعلى هذا النحو يمضى ابن قيس في همزيته — وهى القصيدة الثالثة التى مدح بها عبد الملك — وما يلفتنا في هذه القصيدة ليست أبيات المديح ، وإنما يلفتنا فيها مقدمتها الغزلية التى لم يروها الديوان ، ورواها الأغانى ، وهى نسيب في أم البنين التى رأيناه يشبب بها في مدائحه لمصعب ، يريد بذلك إلى هجائها ، والنيل من الخليفة وابنه ، ولكنه في هذا الغزل يمدحها ، ويصف

جمالها على نحو ما كان يفعل في غــزله في زوجتي مصعب : عائشة وسكينة ، فيقــول :

أصحــوت عن أم البنيـــ ـــن وذكــرها وعنائهــا
وهجرتهــا هجــر امرىء لم يقــل صفــو صفائهــا
قرشــية كالشــمس أشــ ـــرق نــورها ببهــائهــا
زادت على البيض الحســا ن بحســنها ونقــائهــا
لمــا اســبكرت للشــبا ب وقنعــت بردائهـــا
لــم تلتفــت للــداتهــا ومضــت عــلى غلوائهــا

وقد اختفت من هذه الأبيات تلك النغمة الحزينة التي رأيناها في قصيدتيه السابقتين ، ويظهر أنه قــدم بها لمديح الخليفة ، بعد أن عادت الأمور بينهما إلى مجراها الطبيعي ، فرضي الخليفة عن الشاعر ، وقربه منه ، ويدل على ذلك ما وصلنا من أخباره ، من أنه كان عند عبد الملك ، فأقبل غلمان له معهم عِسَاس خَلَنْجٍ فيها لبن البخت ، فقال عبد الملك : يا ابن قيس أين هذا من عساس مصعب التي تقول فيها :

ملك يطعــم الطعــام ويســـقي لبن البخت في عســاس الخلنــج !

فقال : يا أمير المؤمنين ، لو طرحت عساسك هذه ، في عُسٍّ من عِساس مصعب لوسعها ، وتغلغلت في جوفه ، فضحك عبد الملك ثم قــال : قاتلك الله يا ابن قيس ، فإنك تأبى إلا وفاء وكرما (١) !

❋ ❋

ومدائح الشــاعر في عبد العــزيز بن مــروان عادية من حيث معانيهــا

(١) انظر الأغــاني (ساسي) ١٧ / ١٦٧ .

وأفكارها ، تلك المعانى والأفكار التى يستعيرها من شـعر الجاهليين : فتقل فيها العناصر الإسلامية التى رأيناه يهتم بإبرازها في مدائحه لمصعب بن الزبير ، وبخاصة في همزيته الرائعة التى عرضنا لها فيما مضى . ويظهر من هذا الشـعر الذى مـدح به عبد الملك ، أنه دخل في الخلاف الذى نشـب بينـه وبين أخيه على ولاية العهد ، فقد أخذ – في مدائحه تلك – يدافع عن عبد العزيز ، ويحتج لأحقيته في الولاية من بعد أخيه ، ويهـدد الخليفة ويتوعده ، ويصف تلك الكتائب ، التى يستطيع أن يمـد بها عبد العزيز لاستخدامها في الدفاع عن حقـه إذا لـزم الأمر . وهذا يدل على أن الشـاعر قد أتيح له أن يطلـق نفسـه على سجيتها فيقول في عبد الملك وسياسته ما أحجم عن إظهاره في أشعاره الأخرى . وتعتبر قافيته التى مطلعها :

لحَـيٌّ من أميـة ليـــ ـــس في أخلاقهـم رَنَقُ

أولى مدائحه التى حفظها ديوانه في عبد العزيز . فقد أنشده إياها في سـنة إحدى وثمانين للهجرة ، ولعلـه مدحه بقصائد أخرى قبل هذه السنة . ضاعت فيما ضاع من شعره ، إذ من غير المعقول أن تتأخـر صلة الشاعر بعبد العزيز إلى هذه السنة ، ونحن نعرف أنه شفع له لدى أخيه عبد الملك عن طريق أم البنين في سنة اثنتين وسبعين للهجـرة .

وتخلو هذه القصيدة من ظاهرتين نجدهما في مدحتيه الأخريين ، إحداهما أنها تخلو من هذا الغزل الذى يقـدم به لمدائحه ، والذى كان يطـول – في بعض هذه القصائد – فيطغى على أبيات المديح ، ويفوقها عددا ، وقد أشرنا فيما مضى إلى هذه الظاهرة ، وعللنا لها بأنهـا من آثار الضياع الذى عدا على شعر الشاعر ، وأما الأخرى فإن هذه القصيدة لاتحتوى شـيئا عما وقـع من

أحداث سياسية ، تتمثل في دعوة الخليفة لابنيه من بعده ، وخلع أخيـه من ولاية العهــد .

وقد بدأ الشـاعر قصيدته بمديح بنى أمية – قوم عبد الملك – ثم أخـذ في وصف رحلته من الاسكندرية إلى حلوان ، واصفا النيل والسفن ، وماحملته من بضائع وصفا موجـزا بسـيطا في صوره وأخيلته ، وتخلص من هـذا الوصف إلى مديح عبد العزيز ، فقال :

سـفائن غـير مقلعـة   إلى حلـوان تسـتبق

يحـل بـه ابن ليلى والنـ   ـدى والحلـم والصدق

تكـون جفـانه رغـدا   فمصبـوح ومغتبـق

. . . .

ويظهر أن الشاعر قـد أقام في مصر ، وأن مقامه هناك بجانب عبد العزيز قـد طاب له ، فهو يصف حلوان بأنها محل قد نزل به ، وطاب عيشه فيه .

ولابن قيس في مديح عبد العزيز قصيدتان أخريان ، أشـار فيهما إلى الخلاف الذى وقع بينـه وبين أخيه عبد الملك على ولاية العهـد سنة أربـع وثمانين ، ويمكن اعتبارهما تنفيسـا عن شعوره بالعدالة ، ذلك الشعور الذى ظل حبيسـا عنده . كما أنهما تعبران عن شعوره بالشهامة والأريحيـة ، ذلك الشعور الذى يجده المـرء أمام قوى ينـازع ضعيفا . أما القوى فكان الخليفة وأما الضعيف فأخوه عبد العزيز .

وأيسر ما يستخلص من هاتين القصيدتين ، أن الأمور قـد فسـدت بين الخليفة وأخيه عبد العزيز من جهـة ، وبين الخليفة والشاعر من جهة أخرى .

وأن هذا الخلاف بين الأخوين قد بلغ حداً من الخطورة يهدد بنشوب الحرب بينهما ، فقد أخذ الخليفة يكيد لأخيه ، ويشتد في مخاصمته ومجادلته ، حتى إذا يئس من رضائه ، وانتزاع موافقته على نقض بيعته : طلب إليه أن يسلمه خراج مصر — وكان لعبد العزيز طول حياته بعهد من أبيه — فرغب عبد العزيز عن إجابته ، وكتب إلى أخيه كتابا رقيقا ، فيه طيبة وفيه رقة ، وفيه ضعف شديد ، فأثر ذلك في ابن قيس تأثيراً شديداً ، وألقى هذا التأثير ظله على شعره في عبد العزيز ، فأخذ ينتصر له ، ويدافع عن قضيته ويهدد عبد الملك بما يعدُّه من كتائب لنصرة أخيه ، وتثبيت حقه . ومن هنا نستطيع أن نفهم هذا المذهب الفنى الذى قصد إليه ابن قيس في هاتين القصيدتين ، فهو من جهة يمدح عبد العزيز بعراقة نسبه ونسب أمه ، ويصفه بالشجاعة والبأس والكرم وأصالة الرأى ، ويصف أولاده بما يصف به أباهم ، فهم يشبهونه ويمتازون بما يمتاز به من صفات تؤهله لولاية المسلمين ومن جهة أخرى يشير إلى أحقية عبد العزيز في الولاية ، مؤيداً ذلك بما يذكره من عناصر إسلامية يحاول التدليل بها على مايقول ، ثم يأخذ في تخويف عبد الملك مَغَبَّةَ هذا الأمر الذى يحاول الإقدام عليه . ومديحه لعبد العزيز ولأولاده على هذا النحو الذى جاء في هاتين القصيدتين ، يعتبر تمهيدا لتوكيد حقه في ولاية المسلمين ، ذلك الحق الذى أوصى به مروان فيما يقول المؤرخون .

ونقف وقفة قصيرة عند بائيته التى قالها في الخلاف الذى وقع بين الخليفة وأخيه — وكان عنده بمصر — لنرى كيف تحول ابن قيس عن عبدالملك إلى أخيه عبد العزيز ، وعن مذهبه في المديح الذى كان يسلكه عند عبدالملك والذى كان يخلو من الإشارة إلى الأحداث السياسية ومن العناصر الدينية ، اللهم الا إشاراته الغامضة إلى حركة الزبيريين ، بغية انتزاع نفسه منهم ، وسوف نكتفى برواية أبيات المديح دون مقدمتها الغزلية فقد عرضنا لها فيما مضى :

أثن على الطيب ابـن ليـلى إذا أثنيت في دينه وفي حسَبِه
من يصدق الوعد والقتال ويخـ ـشى الله في حلمه وفي غضبه

. . . .

أملك بيضاء من قضاعة في الـ ـبيت، الذى يستظل في طنبه
وأنت في الجوهر المهذب من عبد مناف يداك في سببه
يخلفك البيض من بَنيك كما يخلف عود النضار في شعبه

. . . .

نحن على بيعة الرسول وما أعطى من عجمه ومن عربه
بها نصرنا على العدو ونر عى الغيب في نأيه وفي قربه
نأتى إذا ما دعوت في الحلق الـ ـماذىّ أبدانه وفي جببه
يهبدى رعالا أمام أرعن لا يعرف وجه البلقاء في لجبه
فيهم كُرَيْبٌ يقود حِمْيَرَ لا يعدل أهل القضاء عن خطبه

وقد وفق الشاعر فيها إلى البراعة السياسية ، فهو يمدح عبد العزيز بعراقة نسبه من جهة أمه ، وامتياز خلقه ، واتصافه بالشجاعة والحلم ، تلك الصفات التى ينبغى توافرها في كل حاكم يقدر له أن يسوس أمته ، ثم يمزج هذا المديح بالدعوة إلى ولايته ، ونحن نفهم البيت الذى يقول فيه :

لتهنه مصر والعراق وما بالشأم من بَزِّه ومن ذهبه

على أنه إشارة إلى تلك الممالك الثلاث ، وهى العراق والشام ومصر ،

تلك التى تكون قسما كبيرًا من الدولة الإسلامية ، التى سيهنأ بولايتها ممدوح الشاعر .

وقد تعددت الإشارة في هذه الأبيات إلى ولاية عبد العزيز ، فهو تارة يصف أبناءه بأنهم أقوياء يخلفون أباهم ، ولعله يريد بذلك أنهم يخلفونه في ولايته للدولة الإسلامية ، وتارة يصف بيعة مروان له بالولاية من بعد أخيه بأنها « بيعة الرسول » ، يريد بذلك وصفها بالقداسة التى توجب احترامها ، وضرورة الوفاء بها — وفي الأبيات الأربعة الأخيرة تعريض بل تصريح بتهديد الخليفة ، وتخويفه مغبة هذا الأمر الذى يسعى إلى إنفاذه ، وهو عزل أخيه من ولاية العهد ، وإعلانها إلى ابنيه من بعده ، فهو يصف تلك الكتائب المعدة لنصرته ، وإعلان حقوقه .

ويكرر الشاعر هذه المعانى نفسها وتلك الإشارات في ميميته التى مدحه بها في مصر ، وعرض فيها لولايته ، فهو يصفه ويصف ولديه بالشجاعة والكرم وعراقة النسب ، فيقول :

يغدو وفرسانه مواكبةٌ ذا يَلْمَقٍ ناشئا ومستلما

تكنه خرقة الدرفس من الشمـ ـس ، كليث يفرِّج الأجما

يقوت شبلين عند مطرقة قد ناهزا للفطام أو فطما

لم يأت يوم إلا وعندهما ، لحم رجال أو يولغان دما

. . . .

فذاك شَبَّهته ابن ليلى ، ولـ ـكن ابن ليلى يفوقه شيما

من يهب البخت والولائد كالـ ـغزلان والخيل تعلك اللُّجُما

ويعرض لنسبه ونسب أمه فيرفعه بهما ، فيقول :

من البهـــاليل من أميـــة يـــز داد إذا ما مدحتـــه كـــرمـــا

. . . .

ميـــل" أصبغيات والفـــوارع لا يحملـــن فـــوق الكواهل الحـــزما

هـــن العـــرانين من قضاعة أمـــ ـــثال بنيهـــن يمنـــع الذممــــا

ويعرض لأمـــر ولايته في أسلوب تقريرى فيقول :

يلتفت النـــاس حـــول منـــبره إذا عمـــود الـــبرية انهـــدما

ويقول القدماء(١) إن هذا البيت قد أغضب الخليفة إغضابا شـــديداً .

* * *

وقد أفاد ابن قيس من مصر هذه الحياة الهادئة الآمنة ، التى أتيحت له في ظل حاكمها عبد العزيز بن مروان، وقد مكن له ذلك من أن يطلق نفسه على سجيتها ، ويظهر عواطفه نحو الخليفة فيعارضه ، ويعارض سياسته في خلـــع أخيه من ولاية العهد ، وكأنى به يريد أن يؤدى واجب الجميل نحو عبد العزيز .

كما أنطقته مصر بهذا اللون الجديد من الشعر الذى لانظفر به في أشـــعاره الأخرى ، سواء ما كان يقوله قبل اتصاله بالسياسة ، أو في أثنائها ونريد بـــه وصف الطبيعة ، وذلك حين وصف رحلة الأمير من الإسكندرية إلى حلوان، فوصف السفن ، ووصف النيل ، ووصف حلوان وما بها من أشجار النخيل، ولكنه وصف ذلك كله وصفا بسيطا موجزا في أخيلتـــه وصوره ومعانيه ، ذلك أنه اتخذ وصف النيل والسفن وحلوان ، وسيلة إلى مديح عبد العزيز بن مروان ، فألهاه هذا المديح عن العناية بالطبيعة ، والانفعال بجمالها والتأثـــر

---

(١) انظر الأغـــانى (ساسى) ١٦/ ٥٨ .

بمناظرها . ومن الغريب أنا لانجد في مدائحه الأخرى التي قالها في عبد العزيز وصفا لطبيعة مصر وآثارها ، غير هذه الأبيات التي وصف بها رحلة الأمير ، فقال :

غدوا من مدرج الكرْيو ن ، حيث سفينهم حِزَقُ
كما يغدو نشاص من سحاب الصيف منطلق
فلما أن علون النيـ ـل ، والرايات تختفق
رأيت الجوهر الحكمـ ـى ، والديباج يأتلق
وخز السوس والإضريـ ـج ، فَصَّلَ بينه السرق
وخمل الأرجوان على السـ ـفين كأنه العلق
سفائن غير مقلعة إلى حلوان تستبق

وتلك الأبيات التي وصف بها حلوان ، فقال :

سقيا لحلوان ذى الكروم وما صنف من تينه ومن عنبه
نخلٌ مواقير بالفناء من البَرْ نِيِّ ، غاب يهتز في شَرَبه

وقد اضطرب ابن قيس — فيما نعرف — بين مدن الشام والعراق والحجاز قبل مجيئه إلى مصر ، ولكنه لم يصور شيئا من طبيعة هذه البلاد في شعره ، وكأنه لم يرها أو لم يحفل بها .

— ٤ —

تدل النماذج التي عرضنا لها من مدائح ابن قيس ، على أنه لم ينهض بهذا الفن نهوضا حسنا ، وإنما كان يترسم فيه خطى الجاهليين ، ويستعير أوصافهم ولم يستطع أن يتطور به على نحو ما فعل في شعر الغزل الذى عرضنا له فيما مضى ، ولذلك فقد شاع في هذا الشعر ، وصف ممدوحيه بالشجاعة والكرم

وأصالة النسب إلى آخر هذه الأوصاف العامة ، التي درج الشعراء الجاهليون على ترديدها في مدائحهم . وقد كانت تظهر في مدائحه أحيانا بعض العناصر الإسلامية ، من وصف ممدوحيه بالعدل والرحمة ، وإشاعة المساواة بين الناس ولكنها قليلة قلة لا تجعل لها أهمية كبيرة في هذه القصائد .

ويتجلى نقص هذا الجانب الديني في مدائحه للأمويين عامة ، ولعبد الملك خاصة ، وذلك على عكس ما نجده في مدائح شعراء الأمويين ، من أمثال : الفرزدق والأخطل وجرير ، فقد شاع في شعرهم — إلى جانب تلك الأوصاف التقليدية القديمة — وصف خلفاء بني أمية ، بإقامة العدل المطلق ، وإشاعة المساواة التامة بين المسلمين ، كما نجد في هذه المدائح كذلك دفاعا عن بني أمية وخلافتهم ، يقصد فيه الشاعر إلى التعليل لهذه الخلافة تعليلا دينيا ، يدفع عنها ما علق بها من شبهات صرفت كثيرا من المسلمين التقاة عن تأييدها ، والإقرار بصحتها ، ومن أمثلة ذلك ما كان يقوله جرير — على الرغم من زبيريته — في عبد الملك بن مروان :

لولا الخليفة والقرآن يقرؤه ... ما قام للناس أحكام ولا جُمَعُ
أنت الأمين ، أمين الله لا سَرِف ... فيما وليت ولا هيابة ورع
أنت المبارك يهدى الله شيعته ... إذا تفرقت الأهواء والشيع
فكل أمر على يمن أمرت به ، ... فينا مطاع ومهما قلت نستمع
يا آل مروان إن الله فضلكم ... فضلا عظيما على من دينه البدع

ويقول فيه أيضا :

الله طوقك الخلافة والهدى ... والله ليس لما قضى تبديل

ويقول في ابنه الوليد :

إن الوليد هو الإمام المصطفى   بالنصر هُزَّ لواؤه والمغنمِ
ذو العرش قدر أن تكون خليفة   مُلِّكْتَ ، فاعْلُ على المنابر واسلم

فجرير يسبغ على الخليفة الأموى من الأوصاف الدينية ما كان يسبغه الشيعة الغلاة على أئمتهم ، ويدعو له على نحو ما كانت الشيعة تدعو لهم ، وهذا يطلعنا على بعض تلك الطرق التى كان يتخذها الأمويّون ضد خصومهم(١) ، فهم يسلكون إلى الدعوة لأنفسهم مذهبا دينيا ، عرف وشاع في شعر الشيعة ، وقد فرضه الأمويون على شعرائهم ، ودفعوهم إلى اصطناعه ، ليستطيعوا بذلك صد التيار المعادى ، الذى أخذ يظهر في شعر الشيعة والخوارج ، بغية القضاء على خلافة بنى أمية ، وهذا من شأنه أن يفسر لنا ما روى من عدم رضاء الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان عن مديح ابن قيس الرقيات له ، وقد أشرنا إلى هذا فيما مضى .

وقد رغب ابن قيس في مدائحه عن الأوزان الطويلة ، وعن الأساليب المعقدة ، والألفاظ الضخمة التى نجدها في شعر الجاهليين ، بل وفي شعر معاصريه من أمثال الفرزذق والأخطل ، وكان ذلك من غير شك أثرا من آثار الغناء ، الذى شاع في البيئة الحجازية ، والذى طور لغة الشعر وأساليبه فصارت تمتاز بالسهولة والوضوح .

وبجانب هذا التطور الذى أصاب لغة المديح وأساليبه في شعر ابن قيس الرقيات ، نجد تطورا آخر يتمثل في استغلال المطالع الغزلية استغلالا سياسيا ، يريد به إلى التعبير عن أفكاره السياسية ، وإغاظة خصومه . وهذه أيضا ظاهرة جديدة ، فقد ألفنا من شعراء المديح ، التمهيد بالغزل العادى لهذا

---

(١) فصل ذلك الدكتور شوقي ضيف في كتابه « التطور والتجديد في شعر العصر الأموى » : ١٠٢ — ١٣٥ .

الحشـد الهائل من الأوصاف التي يأخذون في إسباغها على ممدوحيهم ؛ وقد رأينا ابن قيس يختص مدائحه لمصعب بهذا اللون من الغزل السياسى أو الغزل الهجائي كما نسميه ، حتى إذا اضطرته الأحداث السياسية إلى الاتصال ببني أمية ، وجدناه كذلك يلائم بين مطالع هذه القصائد التي كان يقولها في مديحهم وبين حالته النفسية وما تتابع عليها من الضيق أو السعادة ، وقد انتهى بنا درس هذه الظاهرة إلى أن الشاعر كان يقصد إلى استغلال هذه المطالع في مدائحـه استغلالا ، يكشف عما بنفسه من أهواء وأحاسيس .

وهذا كله يدل على أن قصيدة المديح عند ابن قيس الرقيات قد أصابها — على الرغم من محافظتها على النظام القديم — شيء من التطور في لغتها وأساليبها وأفكارها ، ولكن هذا التطور لم يمس النظام التقليدى ، الذى يقـوم على استفتاح القصائد بالغـزل أو الوقوف على الديار ، ثم التخلص إلى الموضوع الأصلي ، وغالبـا ما يكون مديحـا .

وتظهر في مدائحه عناية خاصة بنسبة الممدوحين إلى أمهاتهم ، وقد شـاع هذا الجانب في شعره ، حتى كاد يكون ظاهرة تميزه من غيره من الشعراء ، لولا أنا نجد ما يشبه هذه العناية في شعر معاصريه ، فهو يمدح ابن جعفر بقوله :

وابن أسماء خير من مسح الركـــ ـــن فعـالا ، وخيرهم بنيـانا

ويرثيـه بقـوله :

ابـن أسماء لا أبالك تَعْـني ! إنـه غـير هـالك نفّـاعُ

ويمـدح بشر بن مـروان :

يا بشـر يا بـن الجعفـرية مـا خلق الإلـه يـديك للبخـل

ويمــدح عبد الله الملك بقوله :

أنت ابــن عــائشـــة الــتي فضلــت أروم نســائهـــا

وفي مدائحه لعبد العزيز بن مروان يظهر هذا الجانب بوضوح ، فقد ألــح في ذكر أمــه ومديحها ، يريد بذلك إلى إعلاء شأنها ، وقد لفت هذا عبدالملك ابن مروان فقال لأخيه : ما بال ابن قيس يذكرك بأمك كأنه ليس لك بأبيك نسب ؟ ! فغدا عبد العزيز على شاعره فأخبره بما قال الخليفة فقال : إنــه يحسدك ، ووالله لأمدحنه غدا بقصيدة أذكر فيها أباه وأمــه ، ثم ليرضين ، ثم مدحه بهمزيته التي يقول فيها :

ولبطـــن عائشـــة الـــتي فضــلت أروم نســائهــــا

فهش له عبد الملك ، وقربه ، ومنحه عطاء جزيلا ، فقال ابن قيس لعبد العزيز : كيف رأيت تقبله هذا الشــعر (١) ؟ !

ويظهر أن نســبة الممدوحين إلى أمهاتهم كانت ظاهرة شائعة في شــعر المديح في هذا العصر ، فنحن نجــد جريرا في مديحه لعبد الملك ينسبه إلى أمه : كما يفعل الأخطل والفرزدق نفس الشيء . وينبغي أن يكون التعليل لهــذه الظاهرة ، في ضــوء ما أصاب المجتمع العربي من تغير وتطور ، بعــد أن دخلت في الإسلام أمم كثيرة متحضرة ، نتيجة لعملية الفتح التي صحبها جلب كثير من الإماء والعبيد ، فقد كثر التزاوج بين العرب وهؤلاء الإماء، فاختلطت الأنساب ونشأ جيل جديد يصح — في مرحلته الأولى — نسبه من جهة أبيــه ، ويفسد نسبه من جهة أمه . ومن المعروف أن النظرية العربية القديمــة كانت تقوم على أساس احترام الأنساب ، والعناية بتصحيحها ، وقد نتج عن ذلك — في العصر الجاهلي — أن فقد الموالي وأبناء الإماء كثيرا من حقوقهم الأسرية .

(١) انظر الموشح للمرزباني : ١٨٦ .

والاجتماعية ، وعلى الرغم مما جاء به الإسلام من تعاليم صارمة تؤكد المساواة التامة بين المسلمين ، فإن أصالة النسب العربي ، ظلت عاملا مهما فيما ينشأ بين المسلمين من معاملات وصلات اجتماعية . وقد دفعت عملية المزج — وما نتج عنها من اختلاط في الأنساب — العرب القدماء إلى تدوين هذه الأنساب وتسجيلها . ولعل في هذا ما يفسر لنا عناية الشعراء — في العصر الأموي — بنسبة ممدوحيهم إلى أمهاتهم ، توكيدا لصحة أنسابهم من جهة تلك الأمهات . لأن النسب إلى الأم العربية الخالصة ، كان مثار شك في هذا العصر ، نتيجة لإقبال العرب على التسري بالإماء من أسرى الفرس والروم ، والتزوج منهن .

(٣) الرثــاء

ـ ١ ـ

وقد ألمت بالشاعر أحداث امتُحِن بها في نفــر من أقاربه وأصدقائه ، وقد قال في رثائهم شعرا نهوضا بمـا يجب عليه من الوفاء لهم ، والحزن عليهم وسوف نقف عند بعض هذا الشعر وقفات ، نريد بها إلى تبين المذهب الفني الذى استخدمه الشاعر في هذا الرثاء . ولنلاحظ ظاهرتين يمتاز بهما ما حفظه ديوانه من شعر الرثاء :

إحـداهما اعتمـاد الشـاعر على إثـارة العـواطف ، وإهاجـة الأحاسيس بمـا يختاره من معان حزينة ، يذيب فيها نفســه وكل ما فيها من حسرة وتلهف . وتظهر هذه العاطفة القوية الحزينة ، في مقطوعاته التى قالهـا في رثاء من مات من أقاربه في وقعة الحــرة .

والظاهرة الأخرى ، أن الشاعر كان يخلط بين المديح والرثاء في قصائده التى رثى بها نفــرا من ممدوحيه كابن جعفر ، وطلحة الخزاعى ، ومصعب بن الزبير ، وقد أفســد هذا المديح الرثاء على الشــاعر إفسادا ، وأظهــره بمظهر الشاعر الذى يؤدى واجبا لم يكن له من أدائه بد ، وقد استعان على أداء هذا الواجب بهذا المديح .

— ٢ —

وأجمل ما قاله ابن قيس من الرثاء ، ماكان يقوله في أقاربه الذين قتلوا في وقعة الحرة كما قدمنا ، ومصدر ذلك أنه يرثى نفرا من أهل بيته ، تربطه بهم صلة قوية من القرابة ، فقد قتل في هذه الوقعة ناس من أقاربه منهم : أسامة وسعد ابنا أخيه عبد الله بن قيس ، وقد حفظ ديوانه من رثائه لهم قصيدتين ، أولاهما يائيته التى يقول فيها :

ذهب الصبا وتركت غيتيه ... ورأى الغوانى شيب لِمتَّيَهْ
وهجرننى وهجرتهن وقد ... غنيت كرائمها يطفن بِبيَتِهْ
إذ لمتى سوداء ليس بها ... وضح ولم أفجع بإخوتيه
الحاملين لواء قومهم ... والذائدين وراء عورتيه
إن الحوادث بالمدينة قد ... أوجعننى وقرعن مَرْوَتَيَه
وجببننى جب السنام فلم ... يتركن ريشا في مناكبيه
وأتى كتاب من يزيد وقد ... شد الحزام بسرج بغلتيه
ينعى بنى عبد وإخوتهم ... حل الهلاك على أقاربيه
ونعى أسامة لى وأخوته ، ... فظللت مستكا مسامعيه
كالشارب النشوان قطره ... سمل الزقاق تفيض عبرتيه
سدما يعزينى الصحيح وقد ... مر المنون على كريمتيه
تبكى لهم أسماء معولة ... وتقول ليلى : وارزيّتِيَه

وقد بدأ الشاعر قصيدته بهذا الغناء الحزين ، الذى يصور ما بنفسه من اليأس والحزن ، فقد نال منه المصاب ، وركبته الهموم ، وأحالته إلى رجل زاهد متشائم ، كسير القلب ، شارد اللب . وقد استطاع الشاعر في هذه القصيدة أن يذيب نفسه وكل ما فيها من حسرة وألم على أقاربه ، فاستحالت قصيدته إلى أنشودة حزينة ، ينوح بها قوم الشاعر على قتلاهم ،ويرسلون فيها كل ما يريدون من تنهدات وزفرات .

وقد وفق الشاعر إلى تصوير عواطفه الحزينة ، وحشدها في هذه القصيدة التى اختار موسيقاها اختيارا يتيح له كل ما يمكن من نواح بها وندب ، كما تتجلى براعته في اختيار وزن الكامل الذى تكثر حركاته ، وتطول مداته المتلاحقة ، وذلك كله يمكن للنائح من أن يبطىء بالكلمات وحروفها كما يريد ، « وختمها بالهاء الساكنة ليقف الصوت عندها ويأخذ النائح الفرصة لإخراج آهاته ،فيعلو بالصوت ثم ينخفض به عند القافية، وقد انسابت حركة الياء وختمت بالهاء ليتم له كل ما يريد من انطلاق بالصوت وانخفاض به . شأن النادبين(١)» ، وبذلك تحول النغم في هذه القصيدة ، إلى وسيلة للتعبير العاطفى الحزين ، يضاف إلى التعبير العقلى الذى تفيده دلالات الألفاظ ومعانيها وقد عرض الشاعر في آخر قصيدته لبنى أمية ، وتوعدهم وهم الذين وجهوا بأهل الشام إلى المدينة ، وأباحوها لهم ، فقال :

والله أبرح في مقدمة أهدى الجيوشَ عليَّ شِكَّتِيه

حتى أفجعهم بإخوتهم وأسوق نسوتهم بنسوتيه

وتظهر هذه العاطفة القوية في الحزن على أقاربه من قتلى الحرة في ميميته التى يقول فيها :

---

(١) الشعر الغنائى في مكة : ٢٥٥ .

قالـــت كثيرة لى : قـــد كبرت		ومـــا بك أليـــوم من داهِمَهْ !

رأت رجـــلا شـــاحبا لـــونـــه		أخـــا ســـفر أنـــزع القـــادمـــه

تخـــونه الدهـــــر إخـــــوانه .		كثيرة قـــد كنت بـــى عالمـــــه

ومصـــرع إخـــوانىّ الصـــالحيـــ		ـــن بالنعف والأعـــين الســـاجمه

يتـــامـــى يبكـّــون آبـــاءهـــم		ولم يُبْق دهـــر لهـــم ســـائمـــه

وأرملـــة يعـــتريهـــا النحيـــــــ		ـــب ، إذا نامت الأعين الناعمـــه

تبكـّـــى رجـــال بـــنى عمهـــــا		وإخـــوتهـــا وحـــدها قـــائمـــه

فيـــا ليـــل بكّى أبـــا عاصـــم		بكـــاء مـــؤاســـية دائمـــــه

ويـــا ليـــل بكّـــى أبـــا مالك ،		ويـــا ليـــل بكّى أبـــا فاطمـــه

وبكّـــى أســـامـــة للنـــائبـــا		ت وللـــدين والخطـــة الحـــازمه

وبكى حســـينا ، حسين الطعـــان		إذا الخيـــل لم تنقلـــب ســـالمـــه

فابن قيس يعدد ما نزل بقومه من نكبات ، تتمثل في قتل كثير من أقاربه ، متخذاً من تعداد هؤلاء القتلى والبكاء عليهم ، وسيلة إلى تعظيم أمر هذه النكبة بالنسبة لقريش عامـــة .

— ٣ —

ويحرص ابن قيس — في رثائه لأصدقائه من الممدوحين — على مديحهم ، فيتحول بقصيدة الرثاء إلى قصيدة في المديح ، ولذلك فإنا لانجـــد في كثير من هذا الشعر عاطفة قوية ، كتلك التى نظفر بها في رثائه لأقاربه ، وإنما نجد عاطفة مقيدة ، يحـــد من انطلاقها هذا الحشـــد الكبير من الأوصاف التقليدية التى يأخذ في إسباغها على الذين يرثيهم ، بحيث تعد مراثيه في غير قتلى الحسرة

نماذج يصدق عليها تعريف قـــدامة لشعر الرثاء : بأنه مديح للميت ـ في صيغة المـــاضي ـ بما يمتدح به الأحياء من صفات الشجاعة والكرم، وأصالة النسب ورجاحة العقل . وليس معنى ذلك أن هذه القصائد تخلو تمـــاما من العواطف الحزينة ، التي تغلف مراثيه في قتلى الحرة ، وإنمـــا الذى نريد إلى إيضاحه أن هذه العواطف تكاد لاتؤثر في نفوسنا ، أو تُهيج من أحاسيسنا بمقدار ماتفعل مراثيه الأخرى ، وقد لاحظ جامع الديوان اضطراب هذه القصائد بين المديح والرثاء ، فعنون لها بمثل قوله : « وقال يمـــدح طلحة الطلحات ، وقـــال يمـــدح عبد الله ابن جعفر » .

وتصور تائية ابن قيس التي خلص فيها لرثاء طلحة ، حرص الشـــاعر على التحول بقصيدة الرثاء إلى قصيدة في المديح ، وليس في هذه القصيدة ما يدل على أن الشاعر قد خفق قلبه بحزن حقيقى على وفاة ممدوحه ، وإنما فيها ما يدل على أنه كان يؤدى واجبا ، وفيها ما يدل كذلك على أنه كان يفكر في عطاياه الجزيلة ، فالخسارة ليست خسارة في طلحة ، وإنما خسارة فيما كان ينـــاله الشـــاعر من أمواله وعطاياه ، فقال :

نضّـــر الله أعظمـــا دفنـــوهـــا ... بســـجســـتان طلحـــة الطلحات

كان لا يحـــرم الخليل ولا يعـــــ ... ـــتل بالبخل ، طيب العـــذرات

ســـبط الكف بالنـــوال إذا ما ، ... كان جـــود البخيل حسن العدات

ولدتـــه نســـاء آل أبـــى طلـــ ... ـــحة ، أكرم بهن من أمهـــات

يهـــب البخت والنجائب والقيـــ ... ـــنة ، تمشى في الربْطِ والحبرات

ويفـــكُّ الأســـير في جيده الْغُـــ ... ـــلُّ ، قد اودت به أكف العداةِ

ولعمــر الذي لأجبالك لقـد كنـ ــت رحيب الفناء سهل المباة

. . . .

لعــن الله من نعــاك إلينـــا ، إذ لقينـا هبـيرة بن فــرات

ظــل لى عند ذاك يوم طــويل ، غائب الصــبر شــاهد الحسرات

وابن قيس كما نرى يلح في مديح طلحة بالكرم ، وطيب العنصر ، إلحاحا يكشف الشاعر به عن بواعثه في هذه الأبيات :

لم أجــد بعــدك الأخــلاء إلا كثمـــاد منزوحــة وقـلات

غــير أنى رجوت أولادك البيــ ــض لكى يخلفــوك بعد الممات

فوجــدنا الذى رجــونا وكانــوا خلفيِّـين طيـبى الحجــزات

لايمنــون أن يكون لهـم فضــ ــل ، ويبنون صالح المــأثُــرات

ولقــد تنبت الأرومة في المجــ ــد ، وتَنْمِى العروق بالثابتات

فابن قيس حائر قلق ، يرى في موت طلحة نذيرا بحرمانه من عطـاياه ، وهو كذلك يتقرب من أبنــاء طلحة ، ويرجو فيهم ما كان يجده في أبيهم من كرم ونجدة ، وهو لا يسمي واحدا من هؤلاء الأبناء ، لأنه لم يكن قد عرفهم أو اطمأن إليهم ، أو لم تكن صلته بهم قد توثقت بعد .

ويظهر ابن قيس — في رائيته التي قالها في رثاء طلحة ومديح ابنه عبد الله — أكثر اطمئنانا ، فقد عرف عبد الله هذا ، واطمأن إليه ، واستأنف معه السيرة التي كان يسيرها مع أبيــه طلحة ، فيقول :

إنمــا كان طلحة الخير بحــرا شُــقّ للمعتفــين منــه بحــورُ

ثم كان الــذى تلقّــاك منــه ، نائــل واسـع وســيب غــزير

يتقى الذم بالفعال ويبنى ، مجده من قد تضمنته القبور

بسجستان قدس الله منه ، قد ثوى في الضريح خير كثير

ثم يتخلص من هذا الرثاء أو هذا المديح ، الذى فرضه الواجب عليه ، إلى مديح عبد الله بن طلحة ، فيقول :

خلفته لنا شمائل عبد اللـ ـه لا جاحد ولا منزور

بالطعان الشديد ، والنائل الجزْ ل ، إذا نكس البخيل الدثور

. . . .

فهو سهل للأقربين كما يسـ ـتاد غيث على البلاد مطير

ويبارى الصبا بجفنته الشِّيـ ـزى ، إذا هاجت الصبا الزمهرير

حين لاينبح العقور من القُـ ـرِّ ، ولا يُغْبَق الوليد الصغير

سوف يبقى الذى تسلفت عندى ، إننى دائم الإخاء شكور

ويؤدى الثناء ركب عجال ، قال هاديهمُ من الليل : سيروا

. . . .

وسرت بغلتى إليك من الشأ م ، وحوران دونها والعوير

. . . .

فاستقت من سجاله بسجال ، ليس فيه مَنٌّ ولا تكدير

وهذا كله ، سواء ما قاله الشاعر في رثاء طلحة ، أو مديح ابنه عبد الله ، مديح بتلك الأوصاف التى شاعت في بيئة الجاهليين ، من وصف بالشجاعة والكرم ، وقد ألح ابن قيس على صفة الكرم إلحاحاً ، يدل على أنه كان يفكر

في نفسه وهو يقول هذا الشعر ، كما يدل على أن صلته بطلحة وابنه عبد الله ، كانت صـــلة منفعة متبادلة .

— ٤ —

وفي رثائه لمصعب بن الزبير ، كان الشاعر يتخـــذ من تمجيد انتصـــاراته وسيلة إلى رثائه ، وتعظيم النكبة فيه ، وذلك على الرغم من أنه يسعى إلى مديحه على نحو مافعل في رثائه لطلحة كما أسـلفنا — ولكن المديح في هـــذا الرثاء ليس غاية في ذاته ، وإنما هو وسيلة للتعبير عن شدة النكبة ، وقسوة التجربة .

ويدور كل ما وصل إلينا من شعر ابن قيس في رثاء مصعب ، حول تصوير غـــدر العراقيين به ، وتخليهم عن نصرته ، وانحيازهم إلى صفوف أعـــدائه من الشاميين ، يريد بذلك إلى إثارة السخط على هؤلاء الذين تخلوا عن نصرة أميرهم ، وإثارة العطف على هذا الأمير المخدوع ، الذى أبت عليه شجاعته إلا أن يمضى في حربه ، مضحيا بنفسه ، على الرغم من انصراف العراقيين عنه .

كما يدور هذا الرثاء حول مديح مصعب ، وتخليد انتصاراته ، ولا ســيما تلك الحروب التى قتل فيها المختار الثقفى ، واستخلص العراق منه .

وقد نجح ابن قيس في إثارة السخط على العراقيين ، وتعظيم النكبة في أميره ، وإظهاره بمظهر الشهيد المظلوم . ومن يقـــرأ هذه المقطوعات التى وصلتنا ، يحس بأن الشاعر قد أفرغ فيها كل عواطفه من حقد على أهل العراق ، وحزن على مصعب ، حـــزنا وحقدا يعيدان إلى الأذهان قضية الحسين مع هـــؤلاء الناس أنفسهم . ومن رثائة لمصعب قوله :

أتـــاك بيـــاسر النبـــأ الجليـــــلُ فليـــلك إذ أتـــاك بـــه طـــويلُ

أتــاكَ بأن خــير النـــاس إلا ... أمــير المؤمنــين بهــا قتيــــل
فقلت لمــن يخــبرني حــزينــا ، ... أتنعــى مصعبــا غالتك غــول ؟
فإن يهــلك فجَدُّكم شــقى ... وعيشــكم وأمنكــم قليــــل
وإن يعمــر فإنكــم بخــــير ... عليكــم من نوافلــه فضـــول

ويمضى الشاعر في رثاء مصعب ، والثناء عليه ، وتعديد انتصاراته، بمــا يشعر بأن قلبه قــد خفق بكثير من الحنان والحزن على هذا الأمير ، الــذى خاطــر بحياته ، فأعجلته الخيانة عن تحقيق آماله ؛ ولا غرابة في ذلك، فقد كان موت مصعب يذكر ابن قيس بمــا سيتعرض له من خطر على حيــاته ، كما كان يذكره بفشــله في الثأر من الأمويين عن طريق هذا الأمير ،فقال :

أغــرُّ تفــرج الغمــرات عنــه ... كأنَّ جبينــه ســيف صــقيل
يُهــاب صريف نابيــه ويخشى ، ... إذا عــدلت شــقاشــقها الفحول
إذا نزلــت بــه حرب ضروس ... يهــاب الــرزُّ منهــا والصــليل
مــرى بالســيف ضرتها فدرت ، ... وأمست وهــى عارفــة ذلــول
أليــس بصــاحب الكذاب لمــا ... أصاب النــاس شــؤبوب وبيــل
وكاد نســاؤهم يلقــين غيــاً ، ... تُرِكــن وفــرَّ عنهن البعــول
. . . .
وأزعن قــد جررت إلى عـــدو ... يــزينّــه التــأوّه والصــهيل
كــأن زهـــاءه لله حـــج ... تــوافى منهــم بمــنى حلــول
تضــل العــائذ البلقــاء فيهـــم ... ويخطــىء رحــل صاحبه الزميل
. . . .
ســموت بهــم إلى حــى بعيــد ... لتفجعهم وأنت لهــا فعـــول

ويلقى ابن قيس ، في كل ما وصلنا من رثائه لمصعب ، تبعة قتلــه على العراقيين وحدهم، وقد أخذ في هذه المراثى كما أسـفلنا يهجوهم ،ويعيرهم بخيانتهم تلك ، وسكت عن ذكر الأمويين فيها ، وقد كان ابن قيس في ذلك حـذرًا محتاطا ، يخاف أن يطلق لســانه فيتجاوز حده، ويُحفِظُ سـلطانا يبحث عنه ، ويريد إلى عقابه ، ولولا هذا لما صبر ابن قيس- فيما نعتقد- على هجاء الأمويين وإثارتهم . ولعــل ابن قيس كان قد دبــر أمــره على أساس الاتصال بالأمويين واستئمانهم، ومن رثائه لمصعب قوله :

لقــد أورث المصرين خزيا وذلــة ... قتيــل بديــر الجاثليــق مقــيمُ
تــولى قتــال المــارقين بنفســه ... وقــد أسـلماه : مبعد وحمــيم
فما نصحت لله بكر بن وائــل ، ... ولا صبرت عنــد اللقــاء تمــيم
ولو كان بكــريا تعطف حــوله ... كتائب يغــلى حميهــا ويــدوم
جــزى الله كوفيا هناك مــلامــة ... وبصريهــم إن المــليم ملــيم
وإن بنى العلات أخلــوا ظهورنا ... ونحــن صريــح بينهــم وصميم
فإن نَفْنَ لا يبقــوا أولئك بعدنا ... لــذى حــرمة في المسلمين حريم

ويقول من قصيدة أخــرى :

إن الــرزيــة يــوم مســـــــ ... ـــكن والمصــيبة والفجيعــه
بابــن الحــوارى الـــذى ... لم يعـــده أهـــل الــوقيعــه
غــدرت بــه مضــر العــرا ... ق ، وأمكنت منــه ربيعــــه
فأصــبت وتــرك يــا ربيـــــ ... ـــع ، وكنت ســامعــة مطيعــه
ياالهــف ! لــو كــانت لــه ... بالطــفً يــوم الطــف شــيعه
أو لــم يخــونــوا عهـــده ... أهــل العــراق بنــو اللكيعــه
لــوجــدتمــوه حــين يغــــ ... ـــضب لا يعــرج بالمضيعــه

وظواهر الأمور قد تؤيد ابن قيس فيما يذهب إليه في مراثيه تلك ، من تعليله لمقتل مصعب بتخلى العراقيين عنه ، وخيانتهم له ، ولكنا أشرنا فيما مضى إلى أن خيانة العراق لمصعب ، لم تكن إلا عاملا واحدا من عوامل عديدة عملت على هزيمته ، ومن بينها ســوء تقديره لموقفه العسكرى ، بعد انسحاب العراقيين ، وإصراره على قتال الشاميين في حرب كان يعرف نهـايتها .

ولعــل سلوك مصعب في التضحية بنفسه إيثارا لسمعته على هذا النحو ، هو الذى أثر في ابن قيس ، وأهاج عواطفه ، فرثى أميره هذا الرثاء الحــار الذى يحمِّل فيه العراقيين وحدهم تبعــة مقتله .

خـاتمـة

رأينا ابن قيس الرقيات يعيش في بيئة اجتماعية متحضرة، ويتأثر بهـذه النهضـة الفنية التي عمّت الحجاز في العصر الأموى ، كما رأيناه يعاصـر ظروفا سياسية معقدة . فيشارك فيها بنفسه وفنه ، وقد انعكس ذلك كلـه على شعره الذى وصلنا قـدر كبير منه : فارتبط هذا الشعر — في كثير من جوانبه — بحياة الشـاعر ارتباطاً وثيقـاً .

ولعل أهم ما يصوره هذا الشعر . رقـة شعور ابن قيس . ورهافـة أحاسيسـه . تلك الرقة التي اكتسبها ابن قيس من هذه البيئة المترفة المتحضرة ، فهو في كثير ممـا قال من الشعر ، مثال الرجل المتحضر المهذب : الذى لا ينطق الكلمة النابية ، ويؤذيه أن يخدش أحاسيس الناس ، ويؤلم نفوسهم ، ولعـل في هذا الجانب من التحضر ، ورهافة الحس ، ما يعلل خلو ديوانه من شـعر الهجاء ، ذلك اللون من الشعر الذى شاع استخدامه في العصر الأموى لـدى شعراء الشام ، الذين أحاطوا بالبيت الأموى يدفعون عنه ، ويحطون من قـدر أعدائه ومنافسيه . فليس في ديوان ابن قيس : ولا فيما حفظته المصادر القديمة من شعره سوى قطعة واحدة ، يهجـو فيها عبد العزيز بن عبد الله بن أسيد : لهزيمته أمام الخوارج . وهى عتاب لرجل ترك جيشـه وزوجه ، فسـباها الخوارج ، وكان أولى به أن يدافع عنها ، حتى يستنقذها أو يموت ، ولنستمع إليه يقول لعبد العـزيز :

عبد العزيز ! فضحت جيشك كلهم وتركتهم صرعى بكل سبيل
من بين ذى عطش يجود بنفسه ، وملحَّب بين الرجال قتيل
هلا صبرت مع الشهيد مقاتلا إذ رحت منتكث القوى بأصيل
وتركت جيشك لا أمير عليهم ، فارجع بعار في الحياة طويل
ونسيت عرسك إذ تقاد سبية ، تبكى العيون برنة وعويل

وهو عتاب يصدر عن رجل متحضر ، فليس فيه كلمة نابية ، أو قدح وإقذاع يؤذى الذوق ، على نحو ما نجد في أهاجى جرير والفرزدق ، أو أهاجى جرير والأخطل . ولعل مما يكمل هذه الصورة ، ما نلاحظه من أن ابن قيس — على الرغم من اتصاله بالزبيريين وانتصاره لهم — لم يهج الأمويين ، ولم يخض في أعراضهم ، أو يعدد مثالبهم ؛ وكل ما نجده في هذا الشعر الذى مدح به مصعبا ، وهاجم فيه بنى أمية ، أسف وحزن على ما أصاب قبيلته قريشا من فرقة وقطيعة ، توشك أن تقضى على سلطانها ، وتمكن لأعدائها من القبائل اليمنية من القضاء عليها ، وهو في هذا يؤدى واجب الوفاء نحو قومه وقبيلته ، ويريد إلى إيقاظ هؤلاء الناس ، الذين لا يقدرون نتيجة أعمالهم ، فهو لا يريد إلى هجائهم ، وإنما يريد إلى عتابهم ، وإيقاظ ضمائرهم ، فهو يقول من قصيدة في مديح مصعب :

وقالت لو انا نستطيع لزاركم طبيبان منا عالمان بدائكا
ولكن قومى أحدثوا بعد عهدنا وعهدك أضغانا كلفن بشانكا
تذكرنى قتلى بحرَّة واقم أصيبت ، وأرحاما قطعن شوابكا
وقد كان قومى قبل ذاك وقومها قد اوروا بها عودا من المجد تامكا

هم يرتقون الفتــق قبل انخــراقه   بحلـــم ، ويهدون الحجيج المناسكا
لقطع أرحام ، وفضت جمــاعة ،   وعادت روايا الحلم بعــد ركائكا

. . . .

فهـــل من طبيب بالعـــراق لعلـــه   يداوى كريمـــا هالكـــا متهالكـــا
فلولا جيوش الشـــام كان شـــفاؤه   قريبـــا ، ولكنى أخاف النيازكـــا
أخاف الردى من دونها أن أرومها   وأرهب كلبـــا دونها والسكاسكا
رجال هم الأقتال من يوم راهط ،   أجازوا الغـــوار بيننـــا والتسافكا

وفي مديحه لمصعب بن الزبير حين يبلغ به الغضب أقصى حدوده ، يقول لعبد الملك :

كيف نومى على الفـــراش ولمـــا   يشـــمل الشـــام غـــارة شـــعواء
تذهل الشيخ عن بنيـــه وتبـــــدى   عن بـــراها العقيلـــة العــــذراء
أنـــا عنكم بـــنى أميـــة مـــــز   ورٌّ ، وأنـــتم في نفسى الأعـــداء
إن قتـــلى بالطف قـــد أوجعتـــنى   كان منكم لـــئن قتلـــتم شـــــفاء

وفي رثائه لمـــن قتل من أقاربه في وقعـــة الحرة ، يثـــور على بنى أميـــة فيتوعدهم بقوله :

كيف الرقـــاد وكلمـــا هجعـــت   عيـــنى ألم خيـــــال إخـــوتيـــه
والله أبـــــرح في مقـــــدمـــة ،   أهـــدى الجيـــوش علىَّ شِكَّتيه
حـــتى أفجِّعهـــم بإخـــوتهـــم   وأســـوق نســـوتهـــم بنســـوتيه

وليس في هذه الأبيات كما نرى ، كلمة نابية ، ولا تعديد لمثالب الأمويين ، أو خدش لأعراضهم ، وإنما فيها عتاب وأسى ، عتاب لهؤلاء القوم الذين قطعوا ما بينهم وبين قومهم من شوابك بالرحم ، فأثاروا الحرب وسيروا جيوش الشام تقتل قريشا في ديارها ؛ وأسى على هذا الماضى الذى اتصلت فيه خيوط المحبة والمودة بين القرشيين . ولعل ابن قيس يريد هذا الماضى الذى ساد فيه الحجاز ، قبل أن ينتقل الأمويون بالخلافة إلى الشام ، ويتخذوا دمشق عاصمة لملكهم ، فهو شاعر وُهِبَ حب قبيلته وبلده ، وهو يعتب على قومه كما يعتب الرجل الكريم المهذب ، فلا يسب ولا يشتم .

وقد رأيناه يتخذ الغزل في نساء الأمويين وسيلة سياسية ، يغيظ بها الخليفة ويثيره ، وعلى الرغم مما يبدو في بائيته التى مدح بها مصعبا من أنه يريد إلى النيل من الخليفة ، عن طريق الغزل في أم البنين ، إلا أنا رأيناه قد احتاط لنفسه ولأم البنين ، فزعم أن هذه القصة الطويلة التى ساقها فيغزله ، إنما كانت حلما ، وهو بذلك يتحرز من أن يلتوى الناس بغايته من هذه القصة التواء يسيء إلى أم البنين ، وينال من كرامتها .

وقد كان الوفاء عنصراً من العناصر التى ارتبط بها ابن قيس ، فنراه يلزم مصعبا ، ويغنيه أعماله ، ويفى له بعد موته ، فيذكر الرواة أنه كان عند عبد الملك ، فأقبل غلمان له معهم عساس خلنج ، فيها لبن البخت ، فقال له عبد الملك : يا ابن قيس أين هذا من عساس مصعب التى تقول فيها :

ملك يطعم الطعام ويسقى . . . .

فقال ابن قيس : يا أمير المؤمنين : لو طرحت عساسك هذه في عس واحد من عساس مصعب لوسعها ، وتغلغلت فيه ، فضحك عبد الملك وقال : قاتلك الله يا ابن قيس ! إنك تأبى إلا وفاء وكرما .

وقد دفعه هذا الوفاء إلى أن يلزم مصعبا دون أخيه عبد الله ، وعبد العزيز ابن مروان دون أخيه عبد الملك . وهو في هذا كله يؤدى واجب الوفاء ، فقد برَّ مصعب بالشاعر وآثره ، وأجزل له في عطاياه ، فضلا عن أنه — كما قلنا — كان أثيرًا لدى الشاعر لشجاعته ونجدته . وقد أحب عبد العزيز ابن مروان ، ووقف إلى جانبه في الخلاف الذى نشب بينه وبين الخليفة على ولاية العهد . يريد بذلك إلى أن يؤدى واجب الوفاء لعبد العزيز ، الذى سعى في خلاصه من عبد الملك عن طريق ابنته أم البنين ، وهذا كله يدل على مقدار ما كان يشعر به ابن قيس من رقة الحس .

وقد عرضه هذا الوفاء للخطر مرتين : إحداهما بعد مقتل مصعب بن الزبير، وفراره من عبد الملك ، والأخرى بعد اتصاله بعبد العزيز ، وانتصاره له في مسألة الولاية .

ومهما يكن من شيء ، فديوان ابن قيس مرآة تنعكس عليها صور حياته ، ودخائل نفسيته ، بكل ما فيها من حب ووفاء ، وثورة وغضب . وجميع مقطوعاته وقصائده ، أغان فيها سهولة ، وفيها رقة وعذوبة ، تمكن المغنين من تلحينها وإخراجها هذا الإخراج الصوتي ، الذى كان يأخذ على الناس نفوسهم في هذا العصر .

أ.علاء الدين شوقي
رفع أ.علاء الدين شوقي أسكنه الله الفردوس

الفهرست

عبيدالله بن قيس الرقيات

حياته وشعره

الفصل الاول :

ابن قيس الرقيات : عصره وحياته ... ... ٧ — ٧٩

(١) الحياة السياسية

(٢) الحياة الاجتماعية

(٣) حياته

(٤) مذهبه السياسي

الفصل الثاني :

شعر ابن قيس الرقيات : رواية وتوقيت قصائده ٨١ — ١٥٣

(١) رواية شعره

(٢) توقيت قصائد الديوان

الفصل الثالث :

شعر ابن قيس الرقيات : دراسة فنية .. ... ١٥٥ — ٢٣٣

(١) الغزل

(٢) المديح

(٣) الرثاء

خاتمة ... ... ٢٣٤ — ٢٣٨